الأعمال الدينية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

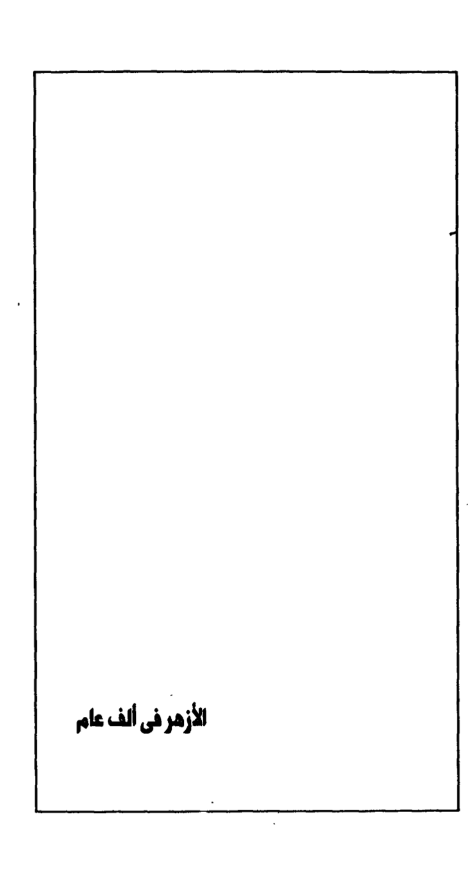
د. بيارد دودج

الأزهر في ألف عام

ترجمة:
د. حسين فوزى النجار

مكتبة الأسرة 1997 ١٩٩٧

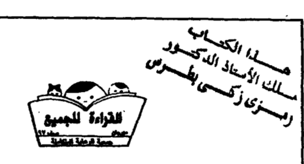
مهرجان القراءة للجميع


الأزهر فى ألف عام

الأزهر فى ألف عام

تأليف : بيارد دودج

ترجمة : د. حسين فوزى النجار



مهرجان القراءة للجميع ٩٧

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الدينية)

الأزهر فى ألف عام

تأليف : بيارد دودج

ت : د. حسين فوزى النجار

الغلاف

الإشراف الفنى

للفنان محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: هيئة الكتاب



مقدمة

وهكذا تمضى مسيرة مكتبة الأسرة لتقدم فى عامها الرابع تسع سلاسل جديدة تضم روائع الفكر والإبداع من عيون كتب الآداب والفنون والفكر فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية، تروى تعطش الجماهير للثقافة الجادة والرفيعة، وتنضم إلى مجموعة العناوين التى صدرت خلال الأعوام الثلاث الماضية لتغطى مساحة عريضة من بحور المعرفة الإنسانية، ولتقطع بأن مصر غنية بتراثها الأدبى والفكرى والإبداعى والعلمى، وأن مصر على مر التاريخ هى بلاد الحكمة والمعرفة والفن والحضارة .. عبقرية فى المكان وعبقرية الإبداع فى كل زمان.

سوزان مبارك

على سبيل التقديم...

مكتبة الأسرة ٩٧ رسالة إلى شباب مصر الواعد تقدم صفحات متألقة من متعة الإبداع ونور المعرفة مصدر القوة فى عالم اليوم..

صفحات تكشف عن ماضينا العريق وحاضرنا الواعد وتستشرف مستقبلنا المشرق.

د. سمير سرحان

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب :

AL AZHAR

A MILLENNIUM OF

MUSLIM LEARNING

BY : BAYARD DODGE

تقـــديم

من الأزهر الشريف

المساجد بيوت الله في أرضه وواحاته في ملكه وهي الأنهار التي يغتسل فيها عبـاده في كل يوم خمس مرات فتصفو مشـاعرهم وتزكو ضمائرهم وتسلم من العلل نفوسهم وتستقيم على الجادة قلوبهم ، ومن أجل هذا أطرى القرآن منشئيها وباركت السنة قاصديها ومعمريها . فقال تعالى : « (انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر . وأقام الصلاة وآتى الزكاة) » وقال : « (في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، واقام الصلاة وايتاء الزكاة) » وقال عليه الصلاة والسلام : « (من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة بنى الله له قصرا في الجنة) » ، وقال : « (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله . شاب نشأ في طاعة الله . ورجل قلبه معلق بالمساجد ... الخ) » .

والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة ومتعددة ، وقد اتفق العلماء على أن تاريخ المساجد على ظهر هذا الكوكب قديم بل هو موغل في القدم فقد سجل القرآن الكريم أن المسجد الحرام هو أول بيت وضع للناس وسجلت السنة المطهرة أن المسجد الأقصى هو المسجد الذي بني بعده وجاء في الكتاب والسنة كليهما أن ابراهيم واسماعيل عليهما السلام هما اللذان رفعا قواعد البيت الحرام ووضعا أسسه ودعائمه ..

وروى عن النبي صلوات الله وسلامه عليه أن يعقوب بن اسحاق قد أقام المسجد الأقصى بعد أربعين سنة من بناء جده وعمه للمسجد الحرام . وقد عاش هؤلاء الأنبياء الثلاثة في القرن التاسع عشر قبل الميلاد . وبعد خمسة وعشرين قرنا تقريبا أقام محمد صلوات الله عليه المسجد الثالث في المدينة فور هجرته اليها وبعد انتهائه من بناء مسجد قباء الذي أقامه فيها أثناء المدة القليلة التي لبثها في هذه القرية قبل شخوصه الى يثرب . ومع تفاوت هذه المساجد الثلاثة في الشهرة وتفاوتها في القدر والرفعة فانها متفقة فيما بينها في سمات ثلاث احداها : أن كلا منها قد بني على يدي نبي ، والثانية : أن الصلاة فيها أكثر أجرا من الصلاة في غيرها ، والثالثة : أن الرحال لا تشد الا اليها وحدهـا ..

وقد بنيت بعد هذه المساجد الثلاثة المئات بل الألوف من المساجد الأخرى

فى الشرق والغرب ٠ وفى ديار الاسلام وغيرها وراحت تتعاون على الدعوة الى الاسلام ونشر مبادئه وتعاليمه علاوة على دورهـا الأساسى فى اقامة الصلاة التى هى عمود الدين وأساسه وذروة سنامه وقد انفرد من بينها مسجد ذاع صيته وشاعت شهرته حتى أوشك أن يحتل المكانة الرابعة بعد المساجد الثلاثة التى ألمعنا اليها من قبل وهذا المسجد هو الأزهر الذى بناه الفاطميون فور استيلائهم على مصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة من الهجرة من مكة الى المدينة وقد كان القصد من بنائهم له تعليم المذهب الشيعى الاسماعيلى واحلاله محل المذهب السنى على ضفاف النيل غير أن الله تعالى قد جعله منارة لأهل السنة ومشكاة تنبعث منها اقباس مبادئهم وتعاليمهم بعد زوال ملك الفاطميين وظل الأزهر يحمل لواء هذا المذهب ويحميه منذ بنائه حتى الآن غير وان ولا مقصر مما جعله تاج المساجد ورابعهـا بعد المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجد النبى عليه الصلاة والسلام فى المدينة ، والسبب الذى من أجله استحق الأزهر هذه الرتبة ونال دون غيره تلك المنزلة هو أنه المسجد الوحيد الذى حمل على عاتقه مهمة حماية الاسلام ولغته وظل أكثر من ألف سنة كالطود الشامخ ٠ لا تنال منه العوادى ولا تؤثر فيه الخطوب والأرزاء حتى صـار قلعة الحنيفية وحصن العربية ٠ وحتى قصد اليه طلاب العلم وعشاق المعرفة من شتى بقاع الدنيا وأصقاعها للتزود مما لدى شيوخه العظام والجلوس منهم مجلس التلاميذ والطلاب وسبب ثان ٠ وهو أن هذا المعهد العتيد كان يفتح ذراعيه للعلماء الفارين من وجه الظلم والاضطهاد فى كل بلد يحتله أعداء الاســلام ويبسطون عليه سلطانهم وهذا واضح فى الغزو الصليبى للمشرق العربى والاجتياح المغولى للخلافة العباسية فان أولئك وهؤلاء لما زحفوا على بلاد الاسلام ودمروا حضارتها ومدنيتها وصبوا على أهلها جام البطش والانتقام لم يجد هواة العلم ولا عشاق المعرفة منهم ملجأ يهرعون اليه ويأمنون فى رحابه غير الأزهر فأقبلوا اليه زرافات ووحدانا وكان الأزهر كما تصوروه وتخيلوه ، فقد أمنهم بعد خوف وأعزهم بعد ذل ولم يقدم اليهم العلم وحده وانما أعطاهم كل ما هم فى حاجـة اليه أعطاهم الملبس والمسكن والمآكل والمشرب حتى الأوراق والأقـلام والكتب والمحابر فانه وضع هذا كله بين أيديهم وتحت تصرفهم ، فالقدر الذى استحقه الأزهـر اذن والصيت الذى بلغه لم يكن هبة وهبت له ولا عطية أهديت اليه وانما كانت جزاء وفاقا لأعماله وأفعاله ودوره الذى لم يمارسه غيره ٠

ومنذ الوهلة التى وضع فيها هذا المعهد العتيد فى أرض القـاهرة وارتفعت مآذنه السامقـة فى سمائهـا والعشرات بل المئات من الكتب والمقالات تؤرخ له وتفيض فى ذكر مآثره ومفاخره وتشرح أفضاله وتطرى

أعماله وتبين الجهود التي كان ولا يزال يبذلها في خدمة الاسلام ولغته وقطع الطريق على أعدائهما الذين يتربصون بهما ويحشدون الحملات للنيل منهما غير أن هؤلاء الكتاب لم يكونوا جميعا من الموالين للأزهر ولا من العارفين لقدره ومنزلته وانما كان بعضهم كذلك وكان البعض الآخر من المتحاملين عليه والمسخرين أقلامهم لتنقصه وتصيد العيوب له • ومن الكتب الجادة التي أنصفت الأزهر وعرفت له شأنه وقدره وخلت من الاساءة اليه والتهوين من فضله وجهده وكانت محايدة في الكتابة عنه : الكتاب الذي كتبه الدكتور بيارد دودج تحت عنوان « (الأزهر في ألف عام) » وقد ترجمه من الانجليزية الى العربية الأستاذ حسين فوزي النجار وجاء في التقديم الذي كتبه مؤلفه بين يديه أن الهدف من تأليف هذا الكتاب هو تعريف غير العرب بالثقافة الاسلامية التي يتولى الأزهر الشريف نشرها عن طريق الأساتذة والمعلمين الذين يتولون التدريس في أبهائه وساحاته وليس القصد منه نقد هذا المعهد العتيد ولا التصدي لما يمكن أن يكون عليه من المآخذ والملاحظات •

ولكي يكون المؤلف صادقا فيما يكتب مطمئنا الى صحته فقد غادر بلاده وأقام سنين طوالا عن كثب من الأزهر وناقش علماءه وغيرهم من أصحاب الفكر والقلم وهكذا توافرت لكتابه كل ما هو في حاجة اليه من المعلومات السليمة والآراء المفيدة ••

والكتاب يحوى بين دفتيه تقديما وثمانية فصول وملحقا واحدا ، وصفحاته سبع وستون ومائة من القطع الكبير وقد تناول المؤلف في **الفصل الأول** : وعنوانه الأزهر والخلفاء الفواطم عددا من القضايا منها : بناء الأزهر والشعائر التي كانت تقام فيه في شهر رمضان وبواكير الدراسات الشرعية ومعالم الفكر الفاطمي • وحلقات الدراسة ، والحاكم بأمر الله ••

وفي **الفصل الثاني** : وعنوانه صلاح الدين والدولة الأيوبية تحدث المؤلف عن معاهد العصر الوسيط ومناهج الدراسة فيها وعرض للعلوم العقلية والنقلية ووقف وقفة قصيرة عند كل من اللغة والنحو والصرف والبلاغة والأدب والقراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام ••

وفي **الفصل الثالث** : تكلم المؤلف عن تجديد الأزهر وأعطى فكرة موجزة عن السلطان الناصر وخلفائه •

وفي **الفصل الرابع** : وعنوانه الأزهر في العصر العثماني عالج المؤلف أمورا منها : المنح الدراسية ومشيخة الأزهر وتأثير التصوف في الحركة العلمية والصراعات التي كانت تدور عند تولى بعض العلماء مشيخة الأزهر ،

كما عرض للحياة الثقافية فى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر • وعاد الى الأزهر فتحدث عن تعميره وتوسعته وحياة طلابه وأساتذته •

وفى الفصل الخامس : وعنوانه بداية التاريخ الحديث ركز المؤلف على الحديث عن محمد على وخلفــائه وجمال الدين الأفغانى والاحتلال البريطانى •

وفى الفصل السادس : وعنوانه التجديد والاصلاح تناول المؤلف الشيخ محمد عبده ودوره فى اصلاح الأزهر وانتقل الى التعليم فى الأزهر فتناول مراحله الثلاث وهى : المرحلة الابتدائية والثانوية والعالية وانتقل الى قضايا أخرى منها الحرب والثورة وما بين الحربين والحرب العالمية الثانية •

وفى الفصل الســابع : وعنوانه الأزهر بعد ألف عــام تحدث عن القضايا التالية : الجامعة والمعــاهد الدينية النظامية والحرة ومستوى الادارة والمبنى الجديد لهــا وســجلات الطلاب المبصرين منهم والمكفوفين (العميان) والانفاق والميزانيــة والدراســة والمكتبة والتربية البدنيــة والصحية والخدمات الاضافية •

ـــ **يبقى الفصل الثامن** : وعنوانه قضية المستقبل وقد عرض فيه لبعض قضايا التعليم وتحدث عن الشبيبة الجديدة ••

ـ وانهى المؤلف كتابه بملحق شرح فيه الاشراف على الأزهر عبر العصور وســجل أسماء العلماء الذين تولوا زمام الادارة فيه ومذاهبهم والمدة التى لبثها كل واحد منهم فى منصبه •

والذى يطالع هذا الكتاب من ألفه الى يائه ، يلاحظ أن مؤلفه قد بذل فيه الكثير من الجهد ، فأسلوبه سهل ، وعباراته حسنة والمعلومات التى حواها دقيقة ، وموثقة ، وعلى الرغم من أن المؤلف ليس عربيا ، ولا مسلما ، فانه لم يكن منحازا ، ولا متعصبا وانما كان محايدا فى أكثر ما كتب ، بل لقد كان يكبر الأزهر ، وشيوخه ، ويدفع عنهم قالات الافك والزور ••

وبعد :

فان ما تناوله هذا الكتاب من حديث عن الأزهر ، ومناهجه ، والجهود التى كان ولا يزال يبذلها فى خدمة الاسلام ، ولغته القرآن شهادة حق من عالم لا ينتمى الى هذا الدين ، ولا يقيم فى دياره ، ولا ينطق لغته ••

تقـديم المـؤلف

ان الغاية من هذا الكتاب ان أزود قارئه بما لا يعرفه عن أعظم المعاهد الاسلامية شهرة ، والثقافة الاسلامية التى نمت وترعرعت فى رحابه ، بينما كانت الثقافة اللاتينية تشق طريقها الى الاستواء والتكيف ، ولم يكن مما أنشده أن أعرض للثقافة الاســـلامية أو الأزهر ناقدا ، بقدر ما ابتغيت أن تكون تفسيرا لها كما يراها المسلمون .

ولا يسعنى فى هذه الدراسة الا أن أتقدم بالشكر والعرفان لشيخ الأزهر ، وعمداء الكليات الثلاث التى يضمها ومديرى المعاهد الدينية ، والخدمات الطبية ، ومكتبة الأزهر على ما قدموه من عون ومساعدة ولا أنسى فى هذا الصدد الدكتور محمد البهى ، ومدير مكتبة حمودة عبد العاطى لمراجعتهما ما كتبته عن الأزهر فى حاضره القائم .

وقد قمت بتدوين هذا الكتاب ابان عملى بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ولا يسعنى الا أن أنوه بما لقيته من عون القائمين على ادارتها ، وأساتذتها وكذلك أساتذة جامعة القاهرة ، وأخص بالذكر الدكتور محمد كامل حسين لما زودنى به من تاريخ الفاطميين ، والأستاذ مصطفى زيادة ، وقد قام بمراجعة ما كتبته عن الحقبة المملوكية ، والدكتور محمد شفيق غربال لما وجهنى اليه فى دراسة الأزهر ابان الحكم العثمانى فى القرن التاسع عشر ، الى جانب القائمين على مركز الدراسات والوثائق بجامعة الدول العربية ، وغيرهم من المسئولين ممن يسروا لى الحصـــول على المعلومات والمصادر المعنية ، فلهم منى جميعا خالص الشكر والتقدير .

ولا أنسى خلال اقامتى بالقاهرة أن أنوه بما لمسته من نشاط ثقافى ، وما أحسست به من تعاطف المفكرين والأساتذة نحو أى زائر ينشد منهم العون والتوجيه .

بيـارد دودج

قامت ادارة البحوث والتاليف والترجمة ـ مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر الشريف بالمراجعة والتصويب . الشكر لهم ـ (الناشر الأجنبى) .

خلفاء الدولة الفاطمية

المهدى	٩٠٩ – ٩٣٤
القائم	٩٣٤ – ٩٤٦
المنصور	٩٤٦ – ٩٥٢
المعز	٩٥٢ – ٩٧٥
جوهر يغزو مصر وينشىء القاهرة	٩٦٩
اتمام بناء الجامع الأزهر	٩٧٢
العزيز	٩٧٥ – ٩٩٦
اقرار الدراسات العليا بالأزهر على نظام ثابت	٩٨٨
الحاكم	٩٩٦ – ١٠٢١
الظاهر	١٠٢١ – ١٠٣٥
المنصور	١٠٣٥ – ١٠٩٤
المستعلى	١٠٩٤ – ١١٠١
الحملة الصليبية الأولى	١٠٩٥
الآمر	١١٠١ – ١١٣٠
الحافظ	١١٣٠ – ١١٤٩
بناء المقصورة الفاطمية بالأزهر	
الظافر	١١٤٩ – ١١٥٤
الفايز	١١٥٤ – ١١٦٠
العاضد	١١٦٠ – ١١٧١

الفصل الأول : الأزهر والخلفاء الفواطم

انشاء الأزهر

بدأ قائد الفاطميين انشاء الأزهر ليصبح المسجد الجامع للعهد الجديد فى جولة التنافس القائم على سيادة العالم الاسلامى بينهم وبين خلفاء بغداد ، وحتى نعى طبيعة هذا التنافس فان علينا أن نعى الأحداث التى سبقت انشاءه ٠

فما أن انتقل محمد صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى حتى انقسم المسلمون الى جماعتين متنافستين ، أهل السنة ممن أصبحت لهم السيادة على العالم الاسلامى بداية من قيام الخلافة الأموية فى دمشق عام ٦٦١ حتى عام ٧٥٠ حين آلت الخلافة للعباسيين واتخذوا بغداد مقرا للحكم ٠ وكانوا بدورهم من أهل السنة ، ولا يعترف بحقهم فى الخلافة الشيعة٠أو المتشيعون ويدينون بالولاء للامام الذى ينحدر بنسبة الى فاطمة الزهراء ابنة النبى صلى الله عليه وسلم ويرون أنفسهم أولى بالخلافة ممن يعرفون بأهل السنة ٠

وانقسم الشيعة على أنفسهم بعد وفاة الامام السادس عام ٧٦٥ الى فرقتين : الاثنا عشرية ، يمثلهم فى الوقت الحاضر شاه ايران ، والاسماعيلية اتباع أغا خان ٠

وقبل أن يبدأ الغزو الصليبى بقرون ، بدأت الطائفة الاسماعيلية حركة سرية مدمرة ضد الخلافة العباسية امتدت الى الشمال الأفريقى حملت جماعات البربر على الثورة حيث انتهب تلك البادرة أحد زعماء الطائفة الاسماعيلية فارتحل اليها متخفيا عام ٩٠٢ حيث تقوم تونس الآن واتخذ لقب المهدى حين تمت له السيطرة على حكومتها وادعى لنفسه الخلافة الاسلامية وأنه أولى بها من الخلفاء العباسيين وابتنى لنفسه الى الجنوب من تونس بمائة ميل حاضرة دعاها المهدية ، وحين أدركته الوفاة عام ٩٣٤ كان قد أقام أسرة حاكمة عرفت باسم الفواطم نسبه الى فاطمة الزهراء ابنة النبى صلى الله عليه وسلم وانهم أولى بالخلافة الاسلامية من العباسيين ، وكانت تلك هى البداية لقيام حكم الهى فى عالم الاسلام ٠

وحتى تتاح لهم فرصة التوسع والنفوذ ، رأوا فى وادى النيل كما هو اليوم بغيتهم للتوسع والنفوذ والانتشار ، فما زالت القاهرة حتى

يومنا هذا القاعدة العسكرية لمصر للسيطرة على سوريا وفلسطين والجزيرة العربية ، ولم يكن غريبا أن تنشد الدولة الفاطمية فى الشمال الافريقى السيطرة على وادى النيل ٠

وبينما تمت للخليفة الفاطمى الرابع المعز لدين الله السيطرة على الشمال الأفريقى حتى الأطلنطى ، ونعم بما أغدق عليه هذا التوسع من ثراء كانت مصر تمر بأزمة مالية قاسية ترجع الى خلل انتاب الحكومة القائمة من ناحية وما اجتاحها من وباء وما حل بها من مجاعة يقص لنا ابن خلدون ، ان الغلاء ثم الوباء الذى اجتاح مصر قد عصف بحياة ستمائة ألف فى مصر وتوابعها ٠

ويفيض السيوطى فى تفصيل ما حدث بصورة أوفى مما كان من ابن خلدون ، ويقول انه لم يعد فى مصر من يؤلف القلوب حوله ، فلما عرف المعز بما حدث كلف عامل أبيه جوهر الصقلى بغزو مصر على رأس مائة ألف من الجند فاجتاحها وتم له فتحها يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان فى العام الثلاثمائة والثامن والخمسين هجرية (٩٦٩ م) ٠

وقد عرف المعز بما حل بمصر عن طريق ابن كلس أحد كبار رجال الدولة والذى نجا بنفسه من بطش رئيس حاقد الى جانب ما حل بوادى النيل من اضطراب الأمن ٠ ومما يذكر عن ابن كلس أنه قام باعداد الدراسات العليا للأزهر فيما بعد ٠

اما هذا القائد الشهير الذى عرف باسم جوهر فقد ولد عام ٩١٢ ، كما يذكر ، ولقب بالصقلى اما لأنه ولد فى صقلية ، كما حمل لقب الكاتب لأنه عمل أمينا للمعز قبل أن يكلفه بقيادة جيش الفتح ، وقد اختار لبيرق الجيش اللون الأبيض نقيضا للون الأسود بيرق العباسيين ، وقد اختار جنده من قبائل البربر واجتاز بهم الى الاسكندرية فاحتلها دون مقاومة تذكر ، فلما اجتاز الى ما يعرف الآن باسم القاهرة لم يدع لجنده أن يخوضوا فى زحام الأحياء القديمة للمدينة القائمة لخشونتهم ، واختار لاقامتهم مكانا مغلقا هو ما عرف فيما بعد باسم القاهرة ، دعاه حينذاك مدينة القاهرة المعزية ، واختصر فيما بعد الى ـ القاهرة ـ ويعرفها الأووبيون باسم ـ كايرو ـ Cairo أو ليكير Le Caire ـ أحاطه بخندق وحائط مرتفع لحمايته والدفاع ويشقه من الوسط طريق ممتد ، والى الجانب الشرقى أقام قصرا فسيحا محصنا سكنا للخليفة ، وخص كل قبيلة من جنود البربر بجانب من المعسكر ، والى الجنوب من القصر أعد جانبا للعبادة أصبح فيما بعد نواة لما عرف بالأزهر ٠

---

(١) المجلد الثالث ص ٣٤٩ ٠

ولا يعرف حتى الآن لماذا عرفت العاصمة الجديدة باسم القاهرة أى الغالبة أو المنتصرة ، وقد جرت أقاويل طائفة الاسماعيلية فى سوريا ـ كما يروى القلقشندى (١) على أن تسميتها بالقاهرة ، لأنها أقيمت لتكون قاعدة لقهر العباسيين ، وتوحيد العالم الاسلامى تحت امرة الفاطميين ، وثمة قالة أكثر شيوعا تحكى أن جوهر الصقلى حين بدأ بناء القاهرة طلب من المنجمين أن يشدوا حبلا اشارة الى ساعة يمن يتم فيها وضع اللبنة الأولى فى البناء ، فلما حط غراب على الحبل وحركه كانت ساعة نحس ، فدعيت باسم الكريهة أو الفأل السيىء ، فلما جاء المعز دعاها القاهرة بدلا من الكريهة ، وهناك قصة أخرى تقول انه حين تم بناء المدينة ، كان كوكب المريخ ـ القاهر ـ فى الأفق ، ورأى المنجمون أن تدعى المدينة باسمه وحملوا الخليفة اليه ·

وقبل أن يتم بناء القصر ، كان جوهر قد بدأ اقامة المسجد للعاصمة الجديدة ، ودعاه جامع القاهرة ، وبعد مرور قرن من الزمان حل الاسم الجديد محل الاسم القديم ، وسرى اسم الجامع الأزهر من بعد ·

وبدأ بناؤه يوم السبت من ابريل ٩٧٠ ، وتم البناء يوم الثانى والعشرين من يونيو ٩٧٢ الموافق يوم الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ ، وتم البناء فى السابع من رمضان سنة ٣٦١ هـ · الموافق الثالث والعشرين من يونيو سنة ٩٧٢ م ·

وفوق القبة بدائرها الى يمين المحراب والمنبر كتبت العبارة التالية عند أو بعيد انشائه :

« بسم الله الرحمن الرحيم مما أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد الامام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين على يد عبده جوهر الكاتب الصقلى وذلك فى ستين وثلثمائة ·· » ·

أما تلك التسمية الضافية وألقاب التشريف فهى للخليفة الفاطمى أما جوهر فهو مولاه ، أما الصقلى فترجع الى نسبته الأولى كما سبق القول ·

وكان الأزهر أكبر من أن يكون مكانا للعبادة فحسب ، بقدر ما كان مسجدا أو جامعا حيث يلتقى المسلمون ، ففى هذا العصر الوسيط من تاريخ الاسلام كاد الفاتح المسلم يقيم المدينة ويحصنها ، ويشيد الجامع مكانا للعبادة ولقاء المسلمين فيعظهم ، ويلقى بتعليماته اليهم فى صلاة الجمعة كل اسبوع ، كما يعقد فى أيام أخر من الاسبوع جلسات للقضاء بين الناس ، وتقرير ما يفرض لبيت المال ، فى بهو الأعمدة من المسجد الجامع ، أما المحفوظات والأضابير ففى قاعات خصت بها داخل المسجد ·

أما الدروس ففي المحاريب والأبهاء وغالبا ما تقام الصلوات الخمس ويتم تحفيظ القرآن في المحاريب ، وفي صلاة الجمع وأيام الصوم ، كما يأوى اليها المسلمون عند الشدة أو انتجاع الراحة وهو ما كان من الاغريق في معابدهم ومدارسهم ومحافلهم ، وعلى غرارها أقام عمرو بن العاص وأحمد ابن طولون مسجديهما في مصر القديمة ، وهو ما احتذاه جوهر في بناء الأزهر ليكون الجامع الرسمى للعاصمة الجديدة ·

ولسنا على ثقة مما دعا الى اطلاق اسم الأزهر على هذا البناء الجديد وان كانت الكلمة تعني ــ الضوء الباهر ــ وان كان من المحتمل ألا يكون للمسجد القديم دلالته الفريدة بعدما أقام خلفاء المعز العديد من المساجد في القاهرة ، ولم يعد للاسم القديم ــ مسجد القاهرة ــ دلالته المنشودة ، وان بقى البناء يشرق بالاضاءة الباهرة خلال شهر رمضان · وغدا ــ الاسم الجديد ــ الأزهر ــ تعبيرا عن النور المشع ، وان كان ــ وهو ما يبدو أقرب الى الحقيقة أن الفاطميين رأوا في الاسم الجديد ما يشجيهم · اذ يذكرهم بالاسم الذى اليه ينتمون اسم السيدة فاطمة ابنة النبى صلى الله عليه وسلم وكان لقبها ــ الزهراء وكان الفاطميون يطلقون على مساكنهم اسم ــ القصور الزاهرة ــ ونعتوا حدائقهم بنفس الصفة ·· وكان أمرا لا غرابة فيه أن يطلقوا على مسجدهم الجامع اسم الأزهر ·

وقد أقيم البناء بداية على مستطيل من الأرض : طوله مائتان وثمانون قدما وعرضه مائتان وسبع وعشرون قدما ، وتقع بوابته الكبرى على امتداد حائطه الشمالى الغربى عبر الفناء الفسيح غير المسقوف دون أعمدة ، وفي نهاية الفناء أقيم المحراب على أربعة صفوف من الأعمدة أقيم عليها السقف ، ومن المحتمل ، دون حسم لواقع ما كان ، أن تكون هذه الأعمدة على كلا الجانبين الأيمن والأيسر من الفناء قد أقيمت في بداية البناء بحيث تؤدى الى المحراب في اتجاه القبلة ، والى اليمين من هذا القبو الصغير كان درج المنبر حيث يلقى الامام خطبة الجمعة · وقد زينت حوافيه بالآيات القرآنية ·

ولم يكن هناك في البداية مكان للوضوء **فمن عقيدة الفاطميين الا يؤم المصلى المسجد الا متوضئا** ، ولم تكن المئذنة الأولى للمسجد على صورتها القائمة فقد بنيت بالطوب عند المدخل ولم تكن بهذا الارتفاع ، والى جانب المدخل عدة أبواب أخرى تؤدى الى الطرق الجانبية الأخرى ، وان كانت الحوائط الخارجية قد استخدم في بنائها الأحجار الرملية لحماية البهو الداخلى والأعمدة الرائعة من زحام السوق ··

وبعد عام وقد استكمل جوهر بناء الأزهر ، كان قدوم الخليفة الفاطمى المعز لدين الله من الشمال الافريقى الى مصر ، وقدم الاسكندرية

سنة ٩٧٣ ، وكان فى استقباله كبار رجال الدولة بالقرب من المنـارة القديمة ، وفى ركابه خمسمائة جمل تحمل كنوزه وذهبه الى عاصـمته الجديدة ، فلما جاءها كان جوهر فى استقباله فركع ولثم الأرض بين قدميه .

وبعد ثلاثة أيام قضاها المعز على ضفاف النيل ، قصد قصره المنيف الذى أعد لاقامته ، وقد تمنطق بعباءة من الحرير الأخضر موشاة بالذهب والجواهر وخاطب رعيته الجديدة بوصفه سليل العترة النبوية ورئيسا دينيا منه ملكا حاكما .

ومع ما نسب الى الفاطميين من هرطقة ، فقد كانوا فى الواقع رجال دين ، وأئمة ديانة جريا على عقيدتهم ، فعملوا على تحريم البغاء ، واللواط وتعدد الزوجات ، والفجور والأحاديث الشائنة والكلام المبتذل الذى يهيض من جلال الاسـلام ، وأغلقوا الحانات ومنعوا الخمور والمسكرات ، وان كانت من الناحية الأخرى مباحة للنصارى واليهود ، فلم يأفل النهار حتى كانت كلها مغلقة .

وفى عيد الفطر من عام ٩٧٣ ، أعلن الخليفة المعز أن الأزهر هو المسجد الجامع للعاصمة الجديدة ، وفى أول محرم من العـام الهجرى وضع للأزهر نظامه وطريقة ادارته وما يحتاجه من خدمات ، عاد بعدها مع أبنائه الأربعة الى قصره مرتدين عباءات من وبر الجمل ممتطين الخيول العربية المطهمة تحرسها الفيلة ، وفتحت أبواب القصر ومدت الموائد ، لكل الناس ، فأكلوا ملء بطونهم .

وازدان الأزهر خلال أيام العيد بالأضواء الباهرة ، والمعز يرقبه من برج اقامه بالقصر لرؤياه .

ولم يعش المعز طويلا لينعم بمآثره ، فقد وافته المنية سنة ٩٧٥ ، فى التاسعة والأربعين من عمره ، وخلفه ابنه العزيز ولما يجاوز من العمر تسعة عشر عاما وامتد حكمه حتى عام ٩٩٦ .

ومما يروى عن المؤرخ العربى يحيى بن سعيد عن ــ هذا الخليفة الجديد حتى وان بقيت شمس الخلافة العباسية الغاربة على ما هى عليه ، فليس هناك حتى بين أولئك الخلفاء الأفارقة العظام ما يدانيه واحدا بعد الآخر ما يمكن أن يقارن ، بالخليفة العزيز شجاعة وقدرة ، ولا حتى فى ملامحه الفريدة بشعره الأحمر وعينيه الزرقاوين الواسعتين ، وما عرف عنه من جرأة وبسالة فى الصيد ومعرفة بالخيل كمعرفته بالأحجار الكريمة فكان المثل الفريد للفروسية العربية النبيلة ، بقيت تثير اعجاب الغرب واكباره .

وقد وسعت شهرته العالم الاسلامي من مراكش الى أعالى الفرات ومن أقصى الجنوب فى اليمن فى الجزيرة العربية ، حتى رأوا فيه الخليفة الحق للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وان كان قد اتخذ وزيرا مسيحيا وزوجة روسية كان من اخوتها بطريق الاسكندرية وبطريق بيت المقدس ، فانه لم ينس الأزهر فغدا على يديه مركزا للدراسات الاسلامية بعد أن كان مسجدا جامعا للقاهرة عاصمة الفاطميين فحسب ·

١ ـ شعائر رمضان :

ومضى العزيز على سنة أبيه فى الوعظ بالأزهر مرة على الأقل من أيام الجمع خلال شهر رمضان ، وقد سجل المؤرخون العرب العديد من التفاصيل عن تلاوة القرآن ، والشعائر التى تجرى خلاله فى صـورة دقيقة صافية ، فتفرش الحصر لتغطى أرض المسجد ، كما توضع ثلاث وسائد أمام المحراب لسجود الخليفة ، ولحمايته من أى خطر يجد ، يحاط المحراب بحشايا تعلق بين الأعمدة ، وحتى لا يلج المسجد قاصد قبل دخول الخليفة يحاط المدخل بسلسلة لا ترفع الا بعد دخول الخليفة ·

وفى نفس الوقت يتخذ جند الحراسة أماكنهم ما بين القصر الكبير والقصر الصغير المواجه له ، وتبدو المدينـة حافلة بالبهجة والناس فى أرديتهم الزاهية والمشاعل ، تغمر الطرقات بالأضواء ·

وما أن يحين موعد خروج الخليفة · حتى تفتح بوابة القصر الذهبية ويخرج الخليفة فى موكبه وقد أحاط به كبار رجال الدولة · والمدعوين ، فى عباءته الحريرية البيضاء ، وعلى رأسه وذراعيه الطيلسان ، وصولجان الحكم فى يده ، متمنطقا بالسيف الى جانبه ، والمظلة محلاة بالجواهر تعلو هامته ، وفى المقدمة حفظة القرآن يرتلون فى خشوع آيات مختارة من القرآن ، فى مسيرته عبر الطريق الأوسط من المدينة الى مبنى الأزهر بجدرانه السامقة التى تعلو على ما حولها ·

وما أن يلج الخليفة بوابة المسجد ، ويتخذ مجلسه الى جوار المحراب المغطى بالستائر لحمايته ، حتى يؤذن للمصلين بالدخول والآذان يغمر أجواء المدينة وأبهاء الأزهر من داخله · وعبق البخور يعم المنبر فيرتقيه الخليفة ، ليلقى موعظته ، وقد بدا والستائر من حواليه كأنه فى هودج على ظهر جمل · ويعلو صوت قاضى القضاة من مكانه بالمسجد بالدعاء أن يسبغ الله نعمته على حضرة سيده الملكية ، يلقى بعده الخليفة موعظة قصيرة ، ومختارات من القرآن ، فاذا قضيت الصلاة خرج المصلون فى جماعات وفق نظام معين ، ويعود الخليفة الى قصره ، والوزير وراءه ، وتضرب الطبول والبوقات فى أثناء مسيرة الموكب من الجامع الأزهر الى القصر الخليفى ·

وغدا الأزهر من بعد المسجد الجامع لعالم يمتد من بلاد الشام فى المشرق الاسلامى الى حافة الأطلنطى فى المغرب العربى ، وما زال وقد امتد به الزمن ألف عام المسجد الأعلى الأصيل فى مصر ، وأحد المراكز الاسلامية الكبرى للعبادات فى العالم بأسره ، ولا تقف مكانته على هذا وحده بقدر ما ترجع الى مكانته العلمية ومجاله فى التعليم والدراسات الاسلامية العليا ٠

بواكير الدراسات الشرعية :

ترجع الخلافة الفاطمية ، كما سبق القول ، الى ، فرعٍ من فروع الحركة الاسماعيلية السرية التى قامت أصلا لنقل الخلافة الاسلامية الى عترة الرسول صلى الله عليه وسلم بديلا للخلافة العباسية القائمة فى بغداد ٠

وعندما بدأت الحركة فى بواكيرها الأولى ، لم تكن الطائفة الاسماعيلية من القوة أو القدرة على المواجهة العسكرية ما دامت تعجز دون اعدادها ، فلجأت الى الدعوة الدينية على أصول فكرية بارعة جندت لهـا الدعاة والمبشرين لكسب الأنصار والأعوان ٠

حتى اذا اقتحم الفاطميون وادى النيل غزاة فاتحين كانوا يدركون تماما أنهم يواجهون مجتمعا سنيا له تعاليمه وشريعته الدينية الغالية ونهجهم فى العبادات ، عزفوا عن أن يواجهوا تلك الكثرة من المواطنين أو يعيبوا تعاليمها ، بقدر ما عملوا على كسبها بالدعاية والدعوة لعقيدتهم ، وكان مما سلكوه فى هذا النهج الطريق المشروع الذى يتواءم مع دعوتهم وعقيدتهم ، فلما نجح المعز فى الاستيلاء على مصر ، عمل على أن يعد جماعة من الفقهاء وعلماء الشريعة القادرين على احلال التعاليم الفاطمية بديلا لتعاليم السنة ، وأعد لذلك نفرا من فقهاء الشمال الأفريقى ٠ جاء بهم الى عاصمته الجديدة - القاهرة - كان من بينهم اثنان عرفا بالقدرة الفائقة على تحقيق ما يبغون ، أولهما أبو حنيفة النعمان بن محمد من مواليد القرن العاشر جاء الى القيروان وهى من مدن تونس فى الوقت الحاضر ، وعكف على دراسة الفقه السنى والشيعى ، والتحق بخدمة الفواطم ، عمل فى البداية قاضيا اقليميا ثم اختاره المعز قاضيا ومشرعا لبلاطه ، وجاء القاهرة ليشير فيما يجب لتقنين التشريع للدولة الجديدة ، وتوفى قبل قدوم المعز الى القاهرة بوقت قصير وخلفه ابنه قيما على تشريعات الدولة الجديدة ٠ أما الثانى فهو يعقوب بن كلس ، وقد أشرنا اليه من قبل ، وكان من يهود بغداد عمل تاجرا فى دمشق حتى عام ٩٤٦ ، ولأمر ما نزح هاربا الى مصر وأصبح من ثراتها ومن كبار رجال الأعمال فيها ، وما لبث أن درس الشريعة والعبادات الاسلامية سرا ، واعتنق الاسلام عام ٩٦٧ ،

واخذ يمارس الصلاة في مساجد القاهرة القديمة · مسجد عمرو بن العاص ، ومسجد أحمد بن طولون ، وغدا موسوعة فكرية وأدبية فسيحة يؤلف الكتب فى الدراسات القرآنية والفقه ، والفلسفة وعلم الأخلاق ، والصحة وفى كل ما يعرض له من بحوث ، واستخدم عددا من النساخ لنسخ ما يعن له من كتب تستهويه ·

فلما ناشت الفوضى مصر فى أخريات الدولة الأخشيدية ، غادرها ابن كلس (١) الى بلاط المعز ، وأقنعه بفتح مصر ، فلما تم الفتح أصبح لابن كلس نفوذه ومكانته فى الدولة الجديدة وأصبح صاحب مشورة فى تنظيم شئونها الداخلية ·

فلما توفى المعز ، وخلفه العزيز ، اتخذ من على بن النعمان عونا له فى تطوير النظام القضائى بمصر ، وعهد الى ابن كلس بمهام كبرى ثم اتخذه وزيرا فى النهاية ·

وفى السنوات الأولى من حكم العزيز ، كان أهل السنة من أبناء القاهرة مازالوا يمارسون شعائرهم فى المساجد القديمة ، مسجد عمرو ابن العاص ومسجد أحمد بن طولون فى مصر القديمة ، بينما بقيت التعاليم الشيعية الضالة تدور فى أبهاء القصر ، وان اتخذ القاضى على بن النعمان ، والرجل صاحب النفوذ ابن كلس ، من الأزهر قبل ذلك بأمد ، مقرا للدراسة ، الفاطمية ، ويقص المؤرخ المقريزى كيف اتخذا من الأزهر منذ البداية مقرا للدراسات العليا ·

ففى صفر من عام ٣٦٥ هـ ــ (أكتوبر ٩٧٥) ــ التقى ــ على ابن النعمان ــ فى جامع القاهرة ، المعروف بجامع الأزهر ، بأناس ، أملى عليهم كتاب أبيه : (خلاصة القانون) وقد استخلصه مما نسب الى اتباع النبى صلى الله عليه وسلم من أفعال أو أقوال ، عرفت باسم ــ الاقتصار ــ كتبها أبو حنيفة النعمان ، وكان الحضور غفيرا جرى تجديد أسمائهم ·

وحين استوزر العزيز بن المعز ــ يعقوب بن كلس ــ أعد مسجدا فى قصره لطلاب العلم من الأدباء والشعراء ، وطلاب اللاهوت ، وأرباب السلطة وقرر لهم الرواتب والمعاشات ، ووضع لهم كتبا فى الفقه ويوم الثلاثاء من كل أسبوع يعقد لهم اجتماعا يدعو اليه طلاب القانون والجدل للحوار والنقاش ، كما جرى أن يعقد اجتماعا يوم الجمعة من كل أسبوع يقرأ على الناس انشاءه ، ويحضره القضاة ، وطلاب الفقه ، وحفظة القرآن واللغويون ، والمسئولون عن العرف والتقاليد ·

---

(١) أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس ·

ويمضى المقريزى ، بعد الحديث عن كتاب ابن كلس ـ دعالم الاسلام ـ فيقول : « كان ابن كلس أول وزراء الدولة الفاطمية فى مصر ، ودبر أمور مصر والشام والحرمين الشريفين فى الحجاز وبلاد وأعمال هذه الأقاليم كلها من الرجال والأموال والقضاء (١) ثم أصدر العزيز بالله فى شهر رمضان سنة ٣٦٨ ـ وكان يقع فى الفترة من ٢ من شهر ابريل حتى أول شـــــهر مايو ٩٧٩ ـ أمرا بمنح ابن كلس لقب ـ الوزير الأجل ـ وألا يخاطبه أو يكاتبه أحد الا بهذا اللقب ، ثم أنابه الخليفة فى التوقيع عنه فى جميع المكاتبات الصادرة عن الخليفة ، وقد صدر قرار الانابة فى شهر المحرم سنة ٣٧٣ ، وكان يقع فى الفترة من ١٥ من شهر يونيو الى ١٤ من شهر يوليو سنة ٩٨٣ .

والى جانب الرواتب والمعاشات التى تمنح للطلاب ، وكان عددهم خمسة وثلاثين طالبا ـ يتكفل الوزير ابن كلس بها من ماله الخاص ، ودرج العزيز على كســـائهم فى عيد الفطر ـ لكل عبـــاءة ، ولكل بغل لركوبه . وقد تم كل ذلك ـ كما يقول المقريزى ـ بعد أن قرأ ابن كلس ، كتابه ـ الرسالة الوزيرية ـ وكانت البداية لتاريخ الأزهر العلمى ومجاله فى البحث والدراسات العليا .

ويمضى القلقشندى فى قول آخر ، فيقول : ان الوزير ابن كلس سأل العزيز أن يزود الطلاب بوسائل الراحة وبما يكفيهم من نفقة كل طالب على حدة ، فأعد لهم رواقا الى جانب الأزهر يكفل لهم تلك الحاجة ، وبعد عامين اقترح ابن كلس أن تكون تلك الفصول (جامعة) تقدم مناهج وافية ، وكانت البداية لنظام دراسى استمر ألف عام من حياة الأزهر الى وقتنا هذا .

معالم الفكر الفاطمى :

كان من وراء الاتجاه الى اتخاذ الأزهر مقرا للدراسات المتقدمة : عاملان ، أولهما توجيه المسئولين الى احلال التشريع الفاطمى محل التعاليم السنية ، وثانيهما اعداد الدعاة لهداية الناس الى المنهج الفاطمى ، بعد سنوات طوال من سيادة المنهج السنى ، قبل قدوم الفواطم .

وكان التباين بين المنهج السنى والمنهج الفاطمى يدور حول أربع سمات أولها عقيدة ـ الامامة ـ أو الخليفة الفاطمى وما يقوم عليه من قداســـة يستمدهـــا من انتمائه الى السيدة فاطمة الزهراء ابنة النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذه النفحة من القداسة ، تمنحه حق الطاعة على

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٨٠٧ .

رعاياه والايمان به من تابعيه ، وهو ما يبدو يسيرا فى تلك الحقبة من العصور الوسطى ، مما حمل الفواطم على البقاء بمنأى عن الناس الا ما كان من مناسبات دينية تقتضيها المراسم .

والسمة الثانية لهذا التباين ، أن الفاطميين ينتمون الى العترة النبوية الشريفة وانهم ورثة كل ما كان له من حقوق فى حياته ، يستندون فى هذا الى بعض آيات القرآن وان كانوا يفسرونها على هواهم ـ كما كان تفسيرهم للآية الحادية والأربعين من ـ سورة الأنفال :

« واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير » .

وفسر الفاطميون الآية على أن لهم عشرين فى المائة من دخل الدولة ، وكان عليهم ، أن يحملوا دعاتهم على اقناع الرعية بها . وانها حق من حقوق الخليفة .

والسمة الثالثة للدعوة الفاطمية ، ما يدعونه من (قداسة الخليفة) فقد أوتى محمد علم الظاهر والباطن ، فلما انتقل النبى الى الرفيق الأعلى ، أوصى بالامامة لعلى ـ ابنه بالتبنى ، وأوصى بها على للأئمة من ورثته أبناء فاطمة الزهراء ، وله . ولذلك كانت الدعوة لهذه العقيدة فى الأزهر كل ما يبغونه ولهذا أعدوا الدعاة لها مسلحين بتلك المعرفة الفريدة ، أو تلك القوى الروحية التى سلكها أسلافهم من قبل ، يوغلون فى تلك الدراسات أكثر مما يوغلون فى تفسير القرآن ، مما لا يعين العامة من الجهلة ، وان حشدوا فى بلاطهم نخبة من الدارسين والفقهاء النابهين (١) وان كانوا من المنتشين بالدراسات اليونانية والعلم الاغريقى ، وأغرموا بعلم ما وراء الطبيعة ، لم تكن لديهم القدرة على متابعة المنهج العلمى بطريقة موضوعية ، وان كانوا يملكون من المعرفة بعلوم ما وراء الطبيعة ما يمكنهم من تأييد حق الخليفة فى الحكم .

وحتى يتسنى لهم شرح تلك المبادىء وكسب الأعوان ـ كما هو اليوم فى العمل الحزبى ـ كأعضاء ـ يناصرون حكومتهم ، وكان أن اتخذ الفواطم طريقة مثلى للهداية والتنظير .

فاذا عدنا الى ما تركه الباحث أحمـد حميـد الدين الكرماتى من احصاءات وسجلات ، لأدركنا أن الفاطميين قد جندوا ما ينوف على تسعة

---

(١) See Series of articles on these matters, Muslim World 1966; January, pp. 30-38, pp. 130-141.

آلاف من العملاء للتنويه بعقيدتهم ، يطلق عليهم اسم الدعاة ، على درجات متباينة من المكانة ، أشبه بالنظم الكنسية للقسس والمطارنة لهم طقوسهم وشعائرهم وان لم تكن من قبيلها ، ولكل عضو فى هذا النظام الهرمى مرانته ودربته الوافية ، فالداعية من الطبقة الدنيا مجاله الغمار والعامة من الناس ممن يعون ما يقول ، وكل ما عليه ، أن يعلم الناس ما يعنيه الاسلام ، وعليه أن يثير تساؤلات الناس عما يجهلون ، أو لا يدور في أدمغتهم ٠

أما الدعاة ممن يحتلون درجة ارفع ، فان عليهم أن يكرسوا شعائر الولاء وأن يقوموا بهداية الناس الى بعض التعاليم والمراسم الفاطمية ، وشرح الرموز والتفاسير القرآنية التى تعزز دعاوى الخليفة فى الحق الالهى لنحكم ، وعلى العملاء ــ كما يسميهم د٠ بايارد دودج ــ أو الدعاة المتميزين والمختارين من ذوى الثقافة الرفيعة والتعليم العالى أن يراقبوا مساعديهم ، وان يكون لهم دورهم البارز في الحوار مع زعماء الفريق المناوىء وقادته ٠

ويبدو يقينا أن الفاطميين قد اتخذوا من الأزهر محفلا لتدريب هؤلاء المتعصبين ، من الدعاة والعملاء ، وأن القدر الأوفى من التعليم والتعاليم يتم في القصر ، ومن بعد في دار الحكمة بعد انشائها ٠

المتون الأولى :

كان القرآن أول ما يدرس فى الأزهر ، حيث يلتقى المؤمنون ليسمعوا الى محكم التنزيل وتفسيره ، حتى كان عام ٩٧٥ ــ كما ذكرنا ــ وقام على بن النعمان باملاء خلاصة لكتابى أبيه ــ دعائم الاسلام ــ و ــكتاب الاقتصار ــ على الحضور ، شرحا للعقيدة الفاطمية ٠٠٠ وقد حوى كتابه ــ دعائم الاسلام ــ شروحا ضافية فى مجلدين جديدين ٠ أما كتاب ــ الاقتصار ــ فقد صدر فى مجلد واحد ، مع ملخص لفحوى الكتاب المطول ٠ وكلا الكتابين من جزءين ، يعرض الجزء الأول لقواعد العقيدة الفاطمية السبع ، وقواعد السنة الخمس :

فقواعد العقيدة الفاطمية هى :

الايمان ٠ الطهارة ــ الصلاة ــ الزكاة ــ الصوم ــ الحج ــ الجهاد ــ وقواعد السنة هى :

الشهادتان (الايمان) ــ الصلاة ــ الزكاة ــ صوم رمضان ــ حج البيت لمن استطاع اليه سبيلا ٠

وأولاها بالشرح والتفسير ما اتصل بالشهادتين ، فالسنة : هى ــ الله لا اله الا هو وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله ، وهى ايمان

يجمع عليه المسلمون · الا أن الفاطميين يخالفون السنة فيما يضيفونه الى الشهادتين بحق على في امرة المسلمين ، وهو ما نعرض له بالتفصيل ·

والكتاب الثاني ، بعد القرآن ـ مما يدرس في الأزهر ، فهو ـ الرسالة الوزيرية في الفقه ـ وتتناول تعاليم الشيعة الدينية · من تأليف ابن كلس وكانت قواما لمحاضراته التى بدأ يلقيهـا فى الأزهر خـلال رمضان ، ومن الواضح أن فيه تكرارا لما تناوله فى كتابه ـ دعائم الاسلام ـ

وخـلال الجيل التالى تنـاول حفيد القاضى النعمان ، فى كتابه : (اختلاف أصول المذاهب) (١) · وقد يكون من دواعى تأليفه ، ارشاد المسئولين من رجال الدولة ، والدعاة وتعليمهم ما بين النظام الشيعى ، وما يدين به عامة الناس من مذاهب ، حتى يتسنى لهم أن يكسبوهم الى جانبهم ·

ولا يذكر المؤرخون أسماء المتون الأخرى للدراسة ، وان كان لنا أن نفترض وهو ما يبدو مقبولا ، الاستعانة بالمراجع والأصول القديمة لعلوم اللغة والخطابة والوعظ ، ومنها ما قام بتأليفه العلماء الفاطميون أنفسهم ، مما يتصل بتفسير القرآن وحديث النبى ، وأكثرها مما صدر خلال العصر الفاطمى ، وان لم تكن ثمة مصادر أصيلة فى هذا الصدد تعرض لما كان يدرس منها بالأزهر ·

حلقات الدراسة :

كان هناك ثلاث حلقـات دراسية تدار فى الأزهر ، أولهـا تضم مجموعة من التقاة المتدينين يؤمون الأزهر ، ينصتون الى قراءة القرآن وتفسيره ، وثانيها حلقات للدارسين يتحلقون فيها أرضا حول الشيخ الذى يقتعد كرسيا من الخشب أو الجريد حتى يسمع الدارسون صوته ، وكان لكل شيخ عمود لا يغيره ، يملى عليهم ، ويجيب على أسئلتهم ، وثالثها محاضرات عامة يلقيها رئيس الدعاة ، أو الامام نفسه ·

وتعقد هذه الحلقـات ، وتسمى ـ مجالس الحكمـة ـ يوم الاثنين للعامة ، ويوم الخميس للخاصة ، ويعقد أكثرها بساحة القصر ، كما كانت حلقات الدرس للنساء غالبا ما تعقد فى الأزهر · كبعض حلقات الرجال أيضـا · وكان يطلق على الدارسـات فى مجلس النساء لقب (المؤمنات) وكانت الحلقات قاصرة عليهن ·

وكانت لغة الدروس ذات طابع شعرى يجذب اليها المتعلمين ، ولما كانت الدروس لا تستغرق وقتا طويلا ، مما يسمح لمناقشات حرة لشغل

---

(١) اختلاف أصول المذاهب تأليف عبد العزيز بن محمد النعمان ـ للمؤلف ·

الوقت • وان كانت المادة الدراسية تقوم على النصح أو التحذير الأخلاقي مما يتسق مع تعاليم القرآن فان التعبيرات الرمزية كانت تتيح تقديم الفكر الفاطمي عن حق الخليفة الالهي في الحكم في أي حديث أو محاضرة •

وفي نهاية الموسم الدراسي فان الحضور يقومون بتقبيل يد المحاضر ، وختم الخليفة المرفق بالنص •

ومما يؤسف له أننا لا نعثر على مصدر موثوق عن الموضوعات التي كانت تدرس بالأزهر خلال العصر الفاطمي ، ومما يذكر في كتاب قديم عنوانه ــ الفلك الدوار (ص ١٦٥) ما يأتي :

« كان على القائمين بالدعوة الفاطمية ان يلموا بعلوم اللغة (اللغويات) والفلسفة والمنطق ، والفلك وأصول الفقه في الأزهر ، فاذا بدا تفوقهم العلمي ، قبلوا بدار الحكمة حيث يتفرغون لدراسة المعالم الأساسية للعقيدة القائمة ، مما يعد ضرورة كبرى ودعامة للحركة ، وهذا الفريق الذي ينتسب الى دار الحكمة يدعي ــ مائدة الرشد ، او كعبة الهدي ، وبتعبير ادق ــ قبة الهداية ــ » •

ويؤكد هذا النص ما قيل من أن الأزهر كان مقرا لدراسة تلك العلوم من قبيل الفلسفة والفلك بالاضافة الى الدراسات القرآنية •

ويقدم الرحالة الفارسي المشهور ــ ناصر خسرو ــ تفصيلات وافية عن دراسته خلال السنوات التي قضاها بمصر أواسط القرن الحادي عشر ، وأصبح داعية ، وتضفي هذه التفصيلات مزيدا من الضوء على ما كان عليه التعليم خلال الحكم الفاطمي في مصر ، فيقول :

« ما أن أتم ناصر خسرو حفظ القرآن قبل ان يبلغ العاشرة أمضى تسع سنوات في دراسة للغة العربية نثرا وشعرا ، وعلوم الصرف والاشتقاق ، وقواعد الحساب ، وما بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة درس الفقه والشريعة والحديث وتفسير القرآن ، والتاريخ والانشاء العربي ، وفي الثانية والثلاثين درس أسفار موسى الخمسة ومزامير داود والأناجيل ، وعكف بعدها ست سنوات على دراسة تلك الكتب المقدسة ، ثم اخذ في دراسة علوم الفرس ، وقانون الطب لابن سينا ، ثم الرياضيات العليا والاقتصاد التجاري والسياسي ، واخيرا وقد بلغ الرابعة والأربعين عكف على دراسة الموسوعة البريطانية واقبل على تعلم السحر والعرافة ، وتعاليم يسوع فيما كتبه ابن أرقا عنه » •

وليس من المستبعد أن تشمل دراسات الأزهر دراسة العهد القديم والعهد الجديد واللغتين اليونانية والعبرية ٠

أما دراسات السحر والخرافة فلم يكن لها مكان فى الازهر ، ولم تكن مما يدين بها الفاطميون أو يصدقونها ، وان كان من المحتمل أن وجود مستشفى بالقاهرة قد أدى الى الاهتمام بصناعة الدواء ودراسته في المستشفى بدل الأزهر ٠ بينما عهد الى معلمين أخصائيين بتدريس علوم التجارة والرياضيات العليا فى الأزهر ، ولنا أن نصدق ما ذكره ناصر خسرو من اضطلاع الأزهر بتدريس اللغويات والأدبيات وفقه اللغة والدراسات القرآنية وكذلك المنطق وبعض الرياضيات وعلم الفلك ٠

الحاكم بامر الله :

خلف الحاكم أباه العزيز سنة ٩٩٦ م وامتدت خلافته حتى سنة ١٠٢١ م (١) ٠ وكان من أعظم الشخصيات اثارة فى التاريخ ٠ وكان ـ كما يروى ابن أيبك ـ مازال طفلا حين أدى موعظته الأولى بالأزهر خلال شهر رمضان ، وفيما بين سنة ١٠٠٠ و ١٠٠٥ ، بدأ يمارس مهام الحكم بالتجوال في مطارح القاهرة ليلا ، وكان أن بقى الناس فى حوانيتهم مضاءة ليلا ، وولغوا فى العبث ، ولا نعلم ما كان من موقف رجال الأزهر حيال ذلك ، ولم يمض زمن حتى عاد الحاكم الى التدين ، والاهتمام بالنواحى الدينية فقام بتجديد الأزهر سنة ١٠١٠ م ، ومما قام به نقش بوابة الأزهر ، وما زالت تلك البوابة من مقتنيات المتحف العربى بالقاهرة ٠

واذا كان العزيز هو الذى بدأ بناء الأزهر فان الحاكم هو الذى اتم البناء سنة ١٠١٣ ، واتخذ المبنى الجديد اسم ـ مسجد الحاكم ـ أو الجامع الحاكمى ـ ويقع الى الشمال من نهاية القصر ، وبقى على حاله خارج بناء المدينة حتى جاء ابنه الأكبر وأعاد بناء التحصينات شمال المدينة من نهايتها ٠ واتصل بناء المدينة بالجامع ٠

ومع ما جرى عليه المسلمون من أداء الصلوات الخمس ، فانها قصرت على صلاة الجمعة ظهرا ، وتقتصر على خطبة الجمعة والابتهال بدوام الخليفة وأن يسبغ الله عليه نعمته ، وقبل أن يقام بناء الجامع الجديد كانت مراسم الصلاة تؤدى فى الأزهر ٠ وما أن تم بناء جامع الحاكم ، وهو ما يشير اليه ، المفضل بن أبى الفاضل عن تلك الفترة من التاريخ بقوله :

« رأيت فيما يروى من تاريخ الحاكم أنه فى رمضان من سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ و ١٠٠٠ م) أن صلاة الجمعة أقيمت

(١) تقابل ٠

بمسجد الحاكم الجديد خارج باب الطابية بالقرب من باب الفتوح ، وكان الخليفة يلقى عظته ومراسم صلاة الجمعة مرة في جامع ابن طولون ، واخرى في مسجد مصر ، ولم تعد تقام في الأزهر (١) » •

ويذكر السيوطي ، ما يقارب ذلك ، ويضيف : أن الأزهر بقي معطلا حتى عهد الظاهر بيبرس (٢) ويؤيد المقريزي ذلك ، بينما يذهب مؤرخ يدعى ـ ابن أيبك الى أن الحاكم كان يؤدي صلاته ووعظه في جامعه الجديد ، وكانت أول ما كان منها ، وأمر ألا تقام في الأزهر • فلم يعد له مقام من بعد •

ومما يبدو أقرب الى الصواب ، أن الحاكم حين أقام مسجده رأى أن يجذب الناس اليه ، فسمح لهم بأداء صلاة الجمعة في الحي الجديد الذي ابتناه ، وفي نفس الوقت لم يشأ أن يحملهم على هجر صلاتهم في جامعي أحمد بن طولون وعمرو بن العاص في مصر القديمة بعيدا عن عاصمة الفاطميين ، وان صلاة الجمع قد عادت الى الأزهر قبل نهاية الدولة الفاطمية ، وهو ما تؤكده أقوال الثقات من المؤرخين ، وهو ما نشير اليه في الفصل التالي •

---

(١) Patrologia Tume XII, pp. 501-502. It is question as to whether the date in this quotation is correct.

(٢) Süguti, Part II, p. 115 — Maqrizi (Khilat) Part IV, p. 53.

الأزهر وخلفـاء الفواطم

ما أن ذاعت شهرة الأزهر ، حتى رأى كبار المسئولين ، تحسين أروقة الطلاب وتهيئتها لحياة مريحة ، فأخذوا في تجميل المبنى ، وتوسعة دار المخطوطات ، وزيادة حلقات الدراسة ورفع مستواها .

ويذكر المقريزى أن الحاكم قد استعمل عددا من شيوخ الأزهر لبدء حلقاتهم الدراسية في مسجده الجديد ، وفي نفس الوقت قام بتحسين بناء الأزهر وأوقف عليه بعض الهبات المالية شأنه شأن غيره من المعاهد الأخرى وتتمثل هذه الأوقاف ، أو الهبات في المبانى ، والحوانيت في مصر القديمة وغيرها من أقسام القاهرة ـ وهى مما لا يمكن بيعه أو تغييره ـ أو الاعتداء على أبنيته ، وكان ما يحققه الأزهر من هذا الدخل يجرى صرفه على النمط التالى :

الداعية	٨٤٠٠	دينار
فراش الحصير	١٠٨٠٠	»
حمولة ثلاثة جمال من الدواجن والدجاج	١٢٧٥	دينارا
كافور ومسك وارد الهند	١٥٠٠	دينار
حمولة نصف جمل من الشمع	٧٠٠	»
نظافة المسجد وترميم الحصير	٥٠٠	»
فحم نباتى للبخور	٥٠	دينارا
حمالات للمؤونة والمصابيح والأسقف	٢٤٠٠	دينار
سعف النخل وحبال واربعة جرادل	٥٠	دينارا
قماش لتنظيف المصابيح	٥٠	»
سكاكين ودوبارة للتعليق	١٫٢٥	»
١٢٠٠٠ رطل من الزيت		
للانارة واجور التوزيع	٣٧٫٥٠٠	دينار

وكانت تلك هى نفقة الجامع ليماوس نشاطه الدراسى والدينى ، والى جانب ذلك نفقات فى صورة هبات ، تتطلبها الدراسة تحت اشراف ــ المشرف ــ يعاونه مساعدون أربعة ، ليس هناك ثمة بيان لما يتقاضونه من أجور مقابل ذلك ، وان بدا أنهم يتقاضون أجوراً خاصة ٠

والى جانب تلك الهبات المالية ٠ كانت هناك هدايا لها قيمتها ، ومن قبيل ذلك فانوس كبير للسقف ــ تنورة ــ الى جانب اثنتين وسبعين تنورة أخرى صغير من الفضة الخالصة ، تضاء خلال شهر رمضان ، ولكنها تخزن وتصان فى أماكن خاصة فى غير شهر رمضان ــ كما أقام بنديرة من الفضة الخالصة أعلى المحراب وفى منتصف الطريق اليه لتجميله وتزيينه ٠

ومع ما كان من اهتمام الحاكم بالدين مما أضفى على الأزهر مزيداً من الرعاية والازدهار ، كان من سلوكه ما يتسم بالغرابة والشذوذ ، فقد منع بعض الخضر من التداول وحرم بيعها ، الى جانب محرمات أخرى تتصل بأسماء عرف أصحابها بعداوتهم للفاطميين ، ولم يكتف بتحريم الخمور وتحطيم أوانيها ، بل حرم ما يدخل فى صناعتها كالعنب والعسل ، وعن له أحيانا أن يحرم ركوب الدواب فى القاهرة ، أو يأذن للمشاة بالمرور قريبا من القصر ، كما أمر بقتل الكلاب ، أو ابعادها ٠ وفرض أردية خاصة للنصارى واليهود ، وحرم عليهم ركوب الخيل ، أو تزيين برادع الحمير ، وأقفل العديد من الكنائس وأمر بهدمها ، وانقلب على المنجمين فأقصاهم عن قصره ٠

وفى السنوات الست الأخيرة من حكمه حرم على النساء الخروج من منازلهن ٠ وأقفلت الحمامات الخاصة بهن ، كما حرم صناعة الأحذية لهن ٠

وخلال عام ١٠١٧ ، وقع الحاكم تحت تأثير فارسى يدعى الدرزى قاده الى مهاو شاذة ، يعينه عليها تابع آخر يدعى ــ حمزة ــ حمل الحاكم على هجر معتقداته القديمة ليصبح رائد الدعوة الجديدة ، يأتى على ذكر أحداثها كاتب عربى على الصورة التالية :

« ينتمى الدرزى الى أصل فارسى وكان يدعى ــ محمد ابن اسماعيل ــ وفد الى القاهرة سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) ودخل فى خدمة الحاكم بامر الله ، وكان اول من غزاه بالاتجاه الجديد ، الا أن أول من تناول تلك العقيدة الجديدة علانية ــ حمزة بن على الزوزانى اللباد ، وقد صاغ الدرزى اصول تلك العقيدة الجديدة من تعاليم باطنية صاغها فى رسالة ، تلاها فى الأزهر مما أثار الناس عليه مما حمله على هجر القاهرة نازحا الى جبل لبنان » ٠

وقد صاغ أحمد حميد الدين الكرماني رســـالة في هذا الصدد قرئت في الأزهر ٠

وكان الكرماني من أبرز فقهاء عصره ، نال شهرة سابقة في ايران والعراق قبل قدومه الى مصر ، وكانت رســـالته تفنيدا لدعوى الحاكم في القداســـة ٠

واخيرا اغتيل الحاكم سنة ١٠٢١ ، وطرد أتباعه من مصر ، فكانت منهم طائفة الدروز المنتشرة في لبنان وسوريا وفلسطين ٠

وقد امتدت شهرة الحاكم هذا الخليفة النـــابه الغريب الأطـوار والشاذ ، لسبب واحد كان له فضله على القاهرة باقامة ـ دار الحكمة ـ لصق قصره ، لتكون مقرا لدراسات متقدمة ، عام ١٠٠٥ ، كان من أثرها في القاهرة الفاطمية ما كان لمتحف الاسكندرية على عهد البطالمة ٠ والى جانب ما قامت به دار الحكمة باعداد الدعاة للعقيدة الفاطمية ، غـدت مقرا ومسعى للدارسين والنابهين من طلاب العـلم والمعرفة ، وأصبحت ندا ـ لبيت الحكمة ـ في بغداد ، ومركز العلم والدراسات العليـــا في الأندلس ٠

وقد ازدانت حوائطها بالنقوش الزاهية ، وأعدت بعض فصولهـــا لتعليم النســـاء ، ولم يكلف الطلاب بأى انفاق بل كانـــوا على العكس يزودون بكل ما يحتاجونه من أدوات الدراسة من ورق وأحبار وأقلام ٠ وكانت من أقسام عديدة لدراسة اللغة ، والفقه ، والشريعة الى جانب الرياضيات ، والطب ، والتنجيم ، والفلك ، وكانت لها أهميتها الخاصة لدى الفاطميين ويتم الانفاق عليها من المنح والهبات التى يقدمها الخليفة ، يقبل عليها الطلاب ، كما يقبلون على المكتبة وقد زودها الفاطميون بالكتب والمخطوطات وغير ذلك من المراجع الفريدة ولا نستطيع أن نتبين على وجه الدقة مدى العلاقة بين هذا المعهد الجديد والأزهر ، فبقدر ما زود الحاكم دار الحكمـــة بالمراجع والمنسوخات العديدة ، لم يحرم الأزهر منهـــا ، وكان الأزهر في الواقع أكثر ســـماحة من دار الحكمة ، ففى عام ٩٣٣ مثلا ، حينما رأى بعض شيوخ الفاطميين هجر الأزهر ، كان هنـــاك من لاذ به من الفريق الآخر ، دعامة لحرية البحث ، كما حدث بعد ذلك بفترة أن أغلقت دار الحكمة حين رأى بعض أنصار المذهب السنى دراســـة فقه الأشعرى المعارض للمذهب الفاطمى ، مما أدى الى اغلاق دار الحكمة دونهم وبقيت الدراسات الدينية قائمة في الأزهر بينما بقى من يبتغى دراسة العلم والفلسفة ، وأسرار العقيدة الفاطمية يؤمون دار الحكمة ٠

خلفـــاء الحاكم :

عندما اغتيل الحاكم سنة ١٠٢١ م ، خلفه ابنه اسـمـا على كرسى الخـــلافة ، لأربعـة عشر عاما كانت أحلك الأيام فى تاريخ مصر حيث عاشتها المجاعة والفوضى ، وخلفه المستنصر حفيد الحاكم ، وكان ابنـــا لجارية سوداء وحكم من سنة ١٠٣٥ الى ١٠٩٤ (١) ، وطال حكمه وامتد الى أبعد مما امتد اليه حاكم في تاريخ الاسلام ، حل فيها القحط بمصر لنضوب موارد النيل وعصف بها من الجفاف والقحط والمجاعة ، ما لم تشهد من قبل ، وما لا يدانيه ضريب آخر فى العـــالم على امتداد تاريخه ، الا ما حدث فى انجلترا عندما اجتاحها وليم الفاتح .

وعصف الجوع بالناس ، وحلت الفوضى محل النظام ، فاجتـــاح الجيـــاع والجنود الخارجون على النظـــام المنشآت العـــامة ، وسرقوا محتوياتها ، وكان مما نهبوه محتويات المكتبات من الكتب والنفائس .

وكان مما كتبه ـ أبو بكر بن أيبك ـ فى هذا الصدد مايلى :

« كان الموت يعصف كل يوم بما يقـــرب من عشرة آلاف شخص ـ كما يذكر ديوان المواريث ـ غير عدد لايعرف من الأرقاء » كما يقول أيضـا : « ان نهازى الفرص والجشعين ، غالوا فى أسعار الأقوات مما يفوق طاقة الناس ، وان الكلاب قد عصف بها الجوع فاقتحمت البيوت واكلت الأطفـــال ، كما سـقطت الطيور صرعى الجوع .. ثم يقر بأن الخليفـة المستنصر فقـد سلطانه ، واختلت ادارتـه وفسدت حكومته ووهن حكمه مما حمله على هجر قصره ، فلاذ بالجامع الأزهر ، فى صومعة الى يمين المدخل أعلى البوابة ، وظل بهـا ، حتى جاءه بدر الجمالى حاكم عكا وامير الجيوش ، وقد أبحر بالجند منها الى مصر لينقذ الخليفة ، واستطاع خلال العامين اللاحقين ١٠٧٤ ـ ١٠٧٥ (٢) ـ ان يعيد النظـــام ، فقضى على القواد الأتراك ، واخضع الخارجين ، وبنى حول المدينة سورا جديدا استعان على بنـائه بالعمال الأجانب ما زالت بواباته ما بين الشمال والجنوب قائمة حتى الآن شاهدا على فخامتها ـ هى باب الفتوح ، وباب زويلة ـ ويعرف الآن باسم بوابة المتولى ـ وباب النصر .. ومن المحتمل ان يكون قد تم تجديد الأزهر خلال تلك الفترة » .

---

(١) ٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ .

(٢) ٤٦٧ ـ ٤٦٨ هـ .

وتوفى بدر الجمالى سنة ١٠٩٣ م ، وخلفه ابنه فى منصبه أميرا للجيوش ، ولحق به الخليفة فى العام التالى ، ومع ما كان من امتداد حكمه ، فانه كان البداية لانهيار الدولة وأفول الخلافة الفاطمية •

ولم يطل حكم خلفه المستعلى لأكثر من خمس سـنوات كان فيها مطية للوزير أمير الجيش وصاحب السلطة الحقيقية ، وفى هذه الفترة من الزمن برز حدث جديد كان له أثره البالغ على الأزهـر ، وعلى مصر وبقية دول الشرق الأدنى ، ففى سـنة ١٠٩٥ عقد البابا أربان الثانى مجلسا فى كليرمونت دعا فيه الى تحرير بيت المقدس من أيدى المسلمين ليعود الى أيدى المسيحيين ملاذهم ومهد دعوتهم • وكانت بداية الحرب الصليبية الأولى ، ولم تمض أربع سنوات حتى اجتاح المدينة المقدسة ألف ومائتا فارس واثنا عشر ألفا من الصليبيين ، وكان ذلك خلال خلافة المستعلى ، وقد أخذت الدولة الفاطمية تتهاوى وتتمزق ، وأخذت قلة من الفاطميين جانب أخيه نزار خليفة أولى بها من المستعلى ، وكان أن ند عنها حتى الوقت الحاضر طائفتان من الشيعة الاسماعيلية •

وهناك ما يورى بأن الأزهر بقى كما كان ، حفيظا على مكانته العظيمة وأهميته البالغة طوال تلك الحقبة من الزمن ، ففى عام ١٠٩٥ تقريبا ، أقيم حفل احياء ذكرى استشهاد الحسين ، كان على رأسه القاضى الأكبر وأئمة المذهب فى الأزهر ، وقبل أن يؤموا مشهد الحسين حفيد الرسول كانوا قد أدوا شعائر مذهبهم ، ومرة أخرى ، قرىء على الناس اشـهار حكومى بتمويل نفقات المشهد الحسينى ، وقد عرف هؤلاء الذين اخذوا بفكرة الخليفة المستعلى ، فيما بعد باسم – طائفة البهرة – وكان ما جرى من بعد على أيام الخليفة الآمر الذى خلف المستعلى عام ١١٠١ ، وحكم حتى عام ١١٣٠ (١) ، أن شعائر الجنازات لداعى الدعاة كانت تقـام فى الأزهر ، وفى تلك الفترة أغلقت دار الحكمة الى حين ، وبقى الأزهر المعهد العلمى الأول فى هذا العالم ، وفى هذا الوقت أيضا أقيم محراب للصلاة على أجمل صورة من الخشب المنقوش نصب فى مواجهة الباب الخلفى للجامع ، ومازال هذا النموذج قائما فى المتحف العربى للفن بالقاهرة •

هذا وان كان حكم الخليفة الحافظ (٢) بداية الوهن الذى حـل بالدولة قبل نهاية حكمه ، الا أنه وان قبض على السلطة بكلتا يديه ، أقام بناء سقيفة جديدة للأزهر ، كما يقول المقريزى فيما يلى :

---

(١) ١١٠١ م توافق ٤٩٥ هـ و ١١٣٠ توافق ٥٢٤ هـ •

(٢) حكم الخليفة الحافظ من ١١٣١ – ١١٤٩ م ٥٢٤ – ٥٤٤ هـ •

« ابتنى الحافظ لدين الله مقصورة رائعة بالقرب من الباب الغربى للجامع ـ الأزهر ـ داخل الأعمدة عرفت باسم ـ مقصورة فاطمة ـ اجلالا لفاطمة الزهراء ـ تبدو للناظر وقد خط عليها : ـ فليتقبلها الله جل جلاله قبولا حسنا » .

وكانت سقيفة رائعة ، أقيمت على أقصى جانب من البهو المفتوح أمام المحراب الداخلى على صف من الأعمدة ، وقبة على صورة رائعة وتصميم بديع ومازالت بعض معالمها باقية حتى اليوم رغم كل المتغيرات منذ عهد الحافظ حتى الآن .

وكان الخلفاء يحتفلون بأعياد الشيعة ، كما يحتفلون بعيد الغطاس فالحدائق حافلة بروادها أيام الأعياد ومنازه النيل مقصد الشعراء والمغنين وكل من ينشد البهجة والفرح .

وكان الخلفاء يحتفلون بأعياد الشيعة ، كما يحتفلون بعيد الغطاس وخميس العهد ، وكثيرا ما كان الخليفة يتصدر الموائد التى يقيمها فى البهو الذهبى من قصره على مائدة كبرى تتسع لكل المدعوين .

وفى ليالى الوقود عند بداية ومنتصف شهرى رجب وشعبان تغمر الانارة الزاهية ساحة الأزهر ، حيث يؤمه الواعظ بصحبة رفاقه من الوعاظ يخاطبون الحشود من الناس الذين جاءوا لاعلان ولائهم للخليفة وتحيته . فى جو غامر بالبهجة ومواكب حافلة بالمسرة مما يضفى على الأزهر أهمية بالغة ويعلو بمكانته على الدوام كمنتجع لاحياء المناسبات الدينية ، وأيام الماضى العريق الحافل ، وغدا على آثارها المحفل الأثير للطقوس والمراسم .

وانها لمشيئة الله سبحانه وتعالى أن يغدو حكم الفواطم زاهيا ، وان شاب عقيدتهم نوع من الهرطقة يأباه الكثيرون . فحملت الجدران كتابات خطتها الأيدى أن العصمة التى يدعيها الأئمة ليست الا عبثا باطلا .

وكان الخليفة الحافظ الذى أقام تلك المقصورة الرائعة للأزهر ، قد خلفه وليد صغير ، ثم حفيد لم يتعد الحلم اتسم حكمهما بالعنف ، والانهيار ، وكان آخر من حكم من الفاطميين العاضد وبدأ حكمه سنة ١١٦٠ ـ (٥٥٥ هـ) حتى سنة ١١٧١ م (٥٦٧ هـ) ، وحينما قتل وزيره كانت البادرة لسياسى لعوب يدعى ـ شاور ـ انغمس فى مغامرات شائنة مليئة بالخداع والرياء لعب فيها على الحبلين فى اتصاله بالصليبيين من ناحية ، والقائد العربى من ناحية أخرى ، أما الصليبى فهو ـ أملريك ـ وأما العربى فهو ـ نور الدين ـ وبعد صراعات عديدة احترقت خلالها

منطقة فسيحة من أقدم مناطق القاهرة ، حاول خلالها القائد العربى أن يعيد النظام والأمن وكان بصحبته ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقتل شاور ، وغدا عمه وزيرا ، وما أن تم له اعادة الهدوء والنظام سنة ١١٦٩ م (٥٦٤ هـ) حتى توفى عمه فجأة وخلفه على الوزارة ، فرأى نفسه فى موقف حرج ، لا لأنه مازال صغيرا على الحكم ، ولكنه رأى نفسه ملزما بخدمة سيدين ، وزيرا للخليفة الفاطمى من ناحية ، وممثلا للخليفة العباسى من ناحية أخرى . وقد التزم بالدفاع عن مصر ضد الصليبيين .

وأخيرا توفى العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ولم يخلفه أحد ، فقام صلاح الدين بتغيير الأذان للصلاة الى الأذان السنى ، وحل اسم الخليفة العباسى محل اسم الخليفة الفاطمى فى خطبة الجمعة . لا فى الأزهر وحده بل عم المساجد كلها .

وكان من شأن الأزهر ، أن تضاءل فلم يعد كما كان فى الحكم الفاطمى ، وبدأ فصل جديد فى تاريخ الأزهر .

الدولة الأيوبية

صلاح الدين	١١٧١ ـ ١١٩٣
العزيز ، عماد الدين	١١٩٣ ـ ١١٩٨
المنصور ، محمـــــد	١١٩٨ ـ ١١٩٩
العادل ، سيف الدين	١١٩٩ ـ ١٢١٨
الكامل ، محمـــــد	١٢١٨ ـ ١٢٣٨
العادل الثـــانى	١٢٣٨ ـ ١٢٤٠
الصالح نجم الدين أيوب	١٢٤٠ ـ ١٢٤٩
القديس لويس يغير على دمياط	
شـــجرة الدر	١٢٤٩ ـ ١٢٥٠
توران شـــاه	١٢٥٠
الأشرف موسى	١٢٥٠ ـ ١٢٥٢ طفلا تحت الوصاية

الفصل الثاني : صلاح الدين والدولة الأيوبية

كان عام ١١٧١ بداية ملحمـــة جديدة فى تاريـخ الشرق الأدنى الجنوبى . منذ تمكن القائد الناشىء صلاح الدين من احتوائه والسيطرة عليه فـلم تمض أربـع سـنوات على قدومه ، حتى اعترفت به الخلافة العباسية سلطانا على مصر والنوبة والشمال الافريقى ، مع الحجـاز وفلسطين وأواسط سوريا ، كانت خلالها مسرحيـة الحركة الصليبيـة تلعب دورها فى عالم ساده النظام الاقطاعى ونشوة الفروسية الغالبة .

وفى مصر بدأت حركة انشاء المعاهد الجديدة لنشر التعاليم السنية بديلا لهرطقة الفاطميين .

واتخذ صلاح الدين المذهب الشافعى أساسا للشريعة فى مصر ، وحرم أن تقام صلاة الجمعة فى أكثر من مسجد واحد فى أية مدينـــة ، وكان من اثر ذلك ما يصفه المقريزى ، وهو ما لم يقف اثره على الأزهر وحده بل تعداه الى غيره من مساجد القاهرة :

فيقول ما معناه : ان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ما أن دانت له السلطة حين قام بتعيين قاضى القضاة وعهد به الى (القاضى صدر الدين عبد الملك بن درباس) فقام بوضع الأســاس الشرعى للفقه السنى ، وافتى بعـدم جواز اقامة خطبتين للجمعة فى بلدة واحدة كما يقرر الامام الشافعى فى مذهبه ، فابطل صلاة الجمعة فى الجامع الأزهر وقرر اقامتها فى جامع الحاكم بامر الله ، وهو الجامع الحاكمى بحجة انه اوسع رحابا ، واســتمر ذلك حوالى مائة عام تالية ، حتى أعادها الظاهر بيبرس - كما يقول المقريزى .

وحين آل الأمر الى صلاح الدين وغدا وله الحكم والسلطة ، كان فى حاجة الى المال لتمويل جيشه ، وايواء اللاجئين ممن جنت عليهم الحرب ، فخلع من محرابه ما ازدان به من حلى الفضة ، كان الحاكم قد زينه بها وقام ببيعها .

ولا نملك من التفاصيل ما يهدينا الى ما نال الأزهر من عون مالى خلال حكم صلاح الدين ومن خلفه الى ثمانين سنة تالية ، فقد كانت حقبة مثيرة بما حفلت به مصر من أحداث الحرب الصليبية ، ومن المسلم به أن الجامع الأزهر لم يعد يحظى بما كان يحظى به من قبـــل من مراســـم دينية ، كما قطعت عنه المعونات المالية ، ولم يعد شيوخه يجدون ما يقوم بأودهم الا بشق الأنفس ، ودمرت كل معـــالم الفكر الفاطمى من كتب ومخطوطات ، حتى ان مخطوطة ـ دعائم الاســـلام ـ لم يبق لها من أثر غير نسخة فريدة مازالت باقية فى دار الكتب بالقاهرة ·

وهناك ما يدل ، على أن الأزهر لم يهجر تماما ، وفيما يرويه المؤرخ المفضل بن أبى الفضـــل (١) · أن مئذنته رفعت الى أطـول مما كانت عليه ، وأن أنصبته من صناعة الخزف ، ودار سك العملة فى مصر القديمة كانت تغل ١٠٦٧ من العملة الذهبية سنويا ، ويروى ـ تريتون (٢) ـ نقلا عن مؤلف آخر ، أن دارسا يدعى عبد اللطيف ، وقد يكون عبد اللطيف البغدادى ، قوله :

« تعلمت فى الأزهر اول ما تعلمت منذ الصباح حتى الساعة الرابعة ، ما يحتمـــل ان يكون من الحديث ، والفقه ، وعند الظهر اواسط اليوم صناعة العقاقير ، الى جانب دراســـات اخرى ويحتمل أن يكون ذلك فى بيته ، ويعود بعدها الى الأزهر مساء ليقابل مجموعة اخـــرى من الدارســين ، ويمضى فى استذكار دروسه بعد ذلك ليلا فى بيته ، وكان يتقاضى من صلاح الدين أجره على ذلك ثلاثين دينارا ، ضاعفها ابنه من بعد الى مائة دينار » ·

ويدل ذلك على أن الفصول الخاصة للدراســـة لم تكن قاصرة على الأزهر فحسب خلال حكم الأيوبيين ، ولكنها فضلا عن ذلك كانت تلقى التأييد والتشجيع من السلطان ، وفضـــلا عن ذلك غدا الجامع ملاذا له قداسته وحرمته لمن يلجأ اليه من الحاج والنســاك والمتصــوفة ، ممن يؤمون القاهرة طمعا فى كرم صلاح الدين وتقواه ·

وقد وهب صـــلاح الدين أيامه الأخـيرة لمحاربة الصليبيين فى فلسطين ، فاذا كان قبره القائم فى دمشق قريبا من المسجد الأموى ، قد غدا شاهدا حيا ، وذكرى باقية لصاحبه ، فان بناء القلعة التى تطل على القاهرة ، وتنسب اليه هى النصب التذكارى الخالد لذكرى باقية ·

---

(١) المفضل بن أبى الفضل ، انظر See Patrologia, Tompe, XII, p. 500.

(٢) Triaton : Muslim Education, p. 79.

وفى غمار تلك الأزمة القائمـــة ، توفى الملك الصالح بينما كان ابنه وولى عهده توران شاه ، فاخفت سريته أم خليل شجرة الدر خبر وفاته ، وأخذت تدير الأمور كما لو كان حاضرا خشية أن يؤثر ذلك على الروح المعنوية للجند ، فلما عاد ، كانت موجة الغزو الصليبى قد انحسرت ووقع الملك لويس أسيرا وسجن فى بيت ابن لقمان بالمنصورة .

وكان للمماليك البحرية دورهم البارز فى احراز النصر ، فتجبروا وطغوا وطمعوا وقتلوا توران شاه ، وأقاموا مكانه أم خليل شجرة الدر ، وبقيت على الملك ـ تحكم بوصفها سلطانا ـ حتى اعتزلت ، وبايعوا ـ الأشرف موسى ـ من بيت الملك سلطانا ، وكان صبيا لم يجاوز الحلم ـ واختاروا عز الدين أيبك التركمانى ، من مماليك الملك الصالح قيما عليه ، فتزوج شجرة الدر ، وسلبها كل سلطة فامرت مماليكها بقتله ، وقتلها ابنه ، وكانت نهاية الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك البحرية .

معاهد العصر الوسيط :

كان أكثر ما شغل صـــلاح الدين وخلفاءه أن يصبح الأزهر مقرا لتعاليم السنة بدلا من تعاليم الفاطميين الشيعية .

ولم تكن تلك هى البداية فى منهج التعليم الاســـلامى وطرائقه ، وما كانت الغاية فى بدء الدعوة الاسلامية الا أن يقوم الحفـــاظ بتعليم الصبية قراءة القرآن الكريم وحفظه ، وهو ما كان يتم فى المساجد ، وبمضى الزمن أنشىء ما يعرف بالكتاب للتعليم الأولى فى غرف أعدت لذلك أو فى دور الشيوخ أنفسهم ، أو فى المساجد أكثر الأحايين ، حيث يقوم الصبية بنقل آيات القرآن الكريم على لوح من الصفيح ، وما أن يتم لهم حفظها وادراك فحواها حتى يقوموا بمسح اللوح لكتابة الآية أو الآيات التالية ، ويتكرر ذلك حتى يتسنى لهم حفظ القرآن والالمام بالقراءة والكتابة قبل أن يبلغوا عادة الحادية عشرة . وفى بعض هذه الكتاتيب ، أو التعليم الأولى يدرسون بعض قواعد اللغة والشعر والحساب .

وان كان بعض الصبية ينقطعون عن التعليم للعمل مع آبائهم فى الحقول أو فى الحرف والصناعات الأخرى التى يمتهنونها فى سوق العمل .. أو يلحقون بوظيفة حكومية ، أو بخدمة بعض الشيوخ البارزين .

فاذا رغب البعض أن يمضى فى تعليمه فانهم عادة ما يلجأون الى معلم خاص يستقبلهم فى بيته ، أو يلتقى بهم فى المساجد ، وكانت محفل التعليم والدرس للكبار دون الكتاب الذى يستقبل صغار التلاميذ .

ولم تكن حلقات التعليم في المساجد على مستوى واحد ، فالشيخ العادي يكتفي بحصير يجلس عليه أو على ركوة من الخشب يتحلق حوله القلة من طلابه ، وقد سادت هذه الحلقات طوال العصر الوسيط ، حيث يلقى رواد الحلقة من الرعاية ما يلقاه الأبناء من آبائهم ، أما ذوو المكانة من الشيوخ فانهم يتخذون مقعدا مرتفعا من الخشب يستند الى عمود من أعمدة المسجد ، ويملي على طلابه ما يدرس ، يساعده أحيانا عريف أو عريفان ، فاذا كان من الشيوخ البارزين فان حلقته تتسع للمئات من الرواد ، ينسخون ما يمليه عليهم ، ليصدر من بعد في منسوخة كاملة .

ولم يكن هناك منهج مقرر ، ولكن الطالب يلزم شيخه حتى يلم بما ينشد من علم أو معرفة ، ويمنح الشيخ طلابه شهادة باتمام ما درس. ولم يكن لها في الواقع قيمة علمية وان صيغت في لغة منمقة ، ولم يكن ثمة نظام للتأهيل أو القبول أو الامتحان ، فالطالب حين ينتهي من دراسته يغدو نبت ذاته وقدرته على التحصيل ، ولم تكن ثمة حاجة لانشاء دور خاصة لتلقي العلم في المراحل المتقدمة ، كما هي بالنسبة للتعليم الأولى .

وليس ثمة حاجة لتصور ما يحدث من ربكة أو بلبلة حين يختلط الأذان وحركة المصلين بالدروس والمناقشات الدراسية ، ولم يكن ثمة مناص من اعداد دور خاصة لتلك الدراسات المتقدمة ولغيرها من الدراسات الأولية الأخرى .

وأول ما أنشيء من أبنية فارهة لدور العلم مدرسة نيسابور في الربع الأول من القرن الحادي عشر ، ولم تكن دارا للبحث والمعرفة كتلك المعاهد التي أنشئت من بعد في بغداد والقاهرة ، ولا تعدو كونها مدرسة ثانوية لتعليم الدين والدراسات الأدبية والانسانيات .

وفي سنة ١٠٦٧ أنشأ نظام الملك أبرز وزراء الأتراك السلاجقة مدرسة جامعة في بغداد ، عرفت باسم ـ المدرسة النظامية ـ غدت مثالا لما أقيم من مدارس في العالم الاسلامي من بعد ، وقد أنشئت هذه المدارس لمواجهة الفكر الشيعي الهدام ، ونشر تعاليم السنة والفقه السني .

وكان بعض هذه المدارس ، ضيقا لم يكتمل له بناء ، بينما كانت الأخرى فسيحة سامقة البناء رفيعة الذرى ، ألحقت بها أجنحة لاقامة الطلاب ، وقاعات للمحاضرات وفصول للتعليم ، ومكتبات عامرة بالكتب والمنسوخات ، ولم يكن للنساء مكان فيها ، وتقام الصلوات الخمس في أوقاتها من الفجر حتى العشاء ، ولعل الحياة فيها كانت أقرب ما تكون الى حياة الأديرة .

ولما كان المذهب الفاطمى منصبـــا بين العديد من مذاهب الشيعة ، فقد أنشئت هذه المدارس للتصدى لها ومقاومتها • ولم تكن ثمة حاجة لاقامتها فى مصر خـلال العصر الفاطمى ، فلما أمسـك صـلاح الدين بالسلطة ، وكان ما يرمى اليه القضاء على كل نأمة للشيعة بدت الحاجة اليها لاحلال المذهب السنى محل المذهب الشيعى فاقام معهدا بالقرب من مقام الامام الشافعى جنوب القلعة ، وأخرى بالقرب من مشهد الحسين عبر الطريق من الأزهـــر ، كما أنشأ معاهد أخرى فى مصر القديمـة أو الفسطاط •

ومضى خلفاؤه على نهجه فانشـأوا ستة وعشرين معهدا برز منها معهدان هما : المدرسة الكاملية أقامها السلطان الكامل ، وبعدها بسنوات أقام السلطان الصالح معهدا فسيحا عرف باسم ــ المدرسة الصالحية •

وكان لانشاء هذه المعاهد أثر بارز على مكانة الأزهر من ناحيتين أولاهما : انه فقد مكانته الأولى ، فلما استكمل بناؤه من جديد ، سارت الدراسة فيه على نهج المعاهد الجديدة دون النهج الفاطمى •

ولما كان التعليم هو الغاية الكبرى من انشاء هذه المعاهد ، وان هذه المعاهد التى تنتمى الى العصر الوسيط تختلف تماما عن مثيلاتهـــا فى أوربا ، فان علينا أن نشرح مناهج الدراسة فيها ، ولسنا فى حاجة لأن نذكر ان العربية وليست اللاتينية كانت لغة الدراسة ، وأن القرآن يحل محل أسفار الكتاب المقدس أساسا للدراسة •

منهج الدراسة فى المعاهد

خلال العصر الوســيط :

١ ــ علوم اللسان العربى والعلوم النقلية :

اللغة ــ النحو والصرف ــ البلاغة ــ الأدب ــ القراءات ــ التفسير الحديث ــ الفقه ــ علم الكلام •

٢ ــ العلوم العقلية :

الرياضيات (الفرائض) ــ المنطق •

وكان تعليم الحساب لضبط أوقات الصلاة ، والصـــوم ، وتقسيم المواريث ، أما المنطق فهو الوسيلة للدفاع عن العقيدة وتبريرها •

ولما كانت علوم اللسان العربى ، والعلوم النقلية من أوليـــات التعليم فى الأزهر منذ ذلك الحين فقد بقيت تحتل المكان الأوفى من بعد

ولقيت من عناية سـلاطين المماليك منذ سبعة قرون ما هى قمينة به ، وعلينا أن نبين ماهية هذه العلوم ، قبل أن نعرض لتاريخ الأزهر خلال العصر المملوكى :

اللغــة :

اذا كان القرآن قد نزل بلغة قريش التى ينتمى اليها الرســول صلى الله عليه وسلم فقد وسع لهجات القبائل الأخرى ، وان غابت كلماته عنها ، وكان من العسير على الأطفال والمسلمين من غير العرب أن يدركوا معانيهــا ٠

لذلك كان أول ما عنى به التعليم الاسلامى ، أن يشرح لغة القرآن ، وكان أن قام الخليل بن أحمد من أبناء البصرة فى القرن الثامن بتصنيف أول معجم لألفاظ القرآن ، وتــوالى بعده العديد من المعاجم العربيــة السهلة والمبسطة يسرت فهم معانى القرآن ، واشتقاقات الألفاظ الى جانب الاملاء والخط والانشــاء و (التأليف) ، وعـدت جميعــا من أصول التعليم الاسلامى ٠

النحو والصرف :

كان من المسلمين من يجيد العربيــة الفصحى ، فبدءوا يصنفون قواعد النحو والصرف ، ولقى ذلك الكثير من الترحيب من فقهاء المسلمين ، فقد يسر لهم فهم معانى القرآن والألفـاظ القرآنية فهما دقيقا ، وكان الرائد وامام هذا المنحى ــ سيبويه المتوفى سنة ٧٩٣م ــ بكتابـه فى قواعد النحو والصرف ، وأقبل على دراســته طلاب الأزهر ليتيسر لهم فهم معانى القرآن فهما ونطقا دقيقا ، وقراءة اللغـة العربية وكتابتهـا دون خطـأ ٠

البـلاغة :

ولم يكتف فقهاء المسلمين بدراسة النحو والصرف فحسب ٠ وحتى يتيسر لهم فهم معانى القرآن فهما دقيقا فضلا عن النطق الصحيح عند الوعظ والكتابة الدقيقة الخالية من الخطأ ، وضعوا علم البلاغة يتنـاول ثلاثة جوانب : المعانى لدقة التعبير ، والبيان لشرح الكلمات شرحا وافيا ، والتشبيه ، والاستعارة والبديع لضبط النطق وفصاحـة الالقاء ، وكان للبلاغة أهميتها فى الوعظ والخطابة ٠

الأدب :

ولقى الشعر الجاهلى ــ مع ما كان من جفوة المسلمين له ــ اهتماما بالغا فى ميدان الدراسات اللغوية ، حتى يتيسر للدارسين الالمام بالألفاظ

والمعانى والكلمات الواردة فى القرآن • دون فحواها ، كما كان للشعر أهميته البالغة من الناحية السياسية ، فحفل به سادة الحكم وامراؤه ، مديحا وتقريظا ، وغدا وله مكانته فى القصـــور والمحافل والأســواق الاســـلامية •

وكان من الشعر ما تناول الحكمة والفلسفة ، والغزل والخمريات ، أو المدح والهجاء ، مع ما صدر من دواوين الشعراء •

وفى بواكير الاسلام كان النثر أداة الادارة والمعاملات العامة وان كان من ولع بعض الحكام بالأساليب الأدبيـــة ما حملهـم على تصنيف بعض الرسائل التى لا تختلف فى أسلوبها ونهجها عما ينشر من مقالات ورسائل•

هذا الى ما كان من كتابات نثرية تناولت العديد من الأساطير ، كما هى فى كتاب ـ كليلة ودمنة ـ و ـ ألف ليلة وليلة ـ حازت شهرة واســـعة فى الشرق وفى الغرب على السواء •

وابان هذا العصر الوسيط صدر كتاب ـ الأغانى للأصفهانى ـ ومقامات الحريرى ، وغدا للنثر مكانته كما هى للشعر على السواء •

وحتى يتسنى لنا استيعاب الدراسات اللغوية لابد وأن نضيف هذه الحقيقة وهى أن الشعر والنثر قد أصبحا على حد سواء من الدراسات المقـــررة فى المناهج ، حتى وان كان بعضها مما يتنـــاول الخمريات ، والغزليات مما لا يتفق والدين •

القـــراءات :

ان أول ما يجب على رجال الدين المسلمين أن يحفظ القرآن قراءة ونطقا على أكمل صورة ، وليس ذلك بالأمر اليسير ، وذلك لتقارب الحروف كتابة فى العربية فضلا عن التشكيل ، مما حمل الخليفة القاهر العباسى ووزيريه ابن مقلة وابن عيسى على وضع ما عرف بالقراءات السبع وأصول تجويد القرآن فلا يختلف على قراءته أو تجويده آخـــر ، وكان لتجويد القرآن أهميته ليستمع اليه أكبر عدد ، ومما يذكره السيوطى أن القرآن احتل مكانة سامقة فى الأزهر خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر • وقد ولد فى مصر حينذاك سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) على بن يوسف شيخ القراء ، وقد درس القراءات على أربابهـــا ، وقام عليها فى الأزهر ليؤم حلقته أكبر عدد من الدارســـين ، وقد توفى فى الشـــهر الأخـير من سنة ٧١٥ هـ (١٣١٣ م) •

وكان الامام عثمان بن عبد الرحمن يؤم المصلين فى الأزهر فسما القرآن الى القمة من التجويد وحسن الأداء يستمع اليه حشود المصلين

والمستمعين عند تلاوته كأنهم رجل واحد حتى قيل أن الجن كانت تستمع اليه ، ويبقى يتسلم القمة حتى وفاته فى الثمانين من عمره سنة ٨٤٠ هـ (١٤٣٦ م) ٠

واقبل العميان من الصبية على حفظ القرآن وتجويده واخذوا يتلونه فى البيوت وفى المناسبات العامة ٠

التفســير :

كانت الدراسات اللغوية عونا للشيوخ فى فهم مفــردات القرآن وكلماته ، الا أنهم لم يلقوا بالاً الى أهمية المناسبات التى نزل بها الوحى ، ولم يمض الزمن طويلا حتى بدأت الدراسات لمعرفة أين ومتى كانت هذه المناســبات ٠

وبمرور الوقت صدرت دراسات عديدة فى شرح اللغـة وتسجيل الأحاديث وتبويبها وروايتها وتفسير القرآن ، كان بعضها مختصرا ويسيرا على القارىء والأخرى مسهبة مليئة بالاصطلاحات ، الصعبة كما كان ـ البحر المحيط ـ لأبى حيان الغرناطى ٠

وبدا ما كان من أهمية تأويل القرآن وتفسيره عندما أخذ الطامعون والأفاقون يفسرونه وفق هواهم وأطماعهم ، ففى بغداد كان هنــاك من المفكرون من لج فى الالحاد ، وفى مصر ، اتخذ منه الفاطميون أداة لاحكام سيطرتهم وتبرير حكمهم ، ومن الآيات ما يفسرها البعض على هواهم ، كآية :

« أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة أولئك هم المهتدون » (١)

ولما كان القرآن أساس التشريع فان من ينشدون الزور يتخذون من تفسيرهم للقرآن ما يوافق هواهم وغايتهـــم ، وأخـيرا وليس آخرا أن الربانيين ، أو رجال اللاهوت نزعوا الى التأويل سندا لمعتقداتهم ، وكان ما شاب ذلك العصر الوسيط من تاريخ الاسلام من تفسير للقرآن يجانب الصـــواب ٠

ولم يكن غريبا أن تضم مكتبة الأزهر ما يربو على خمسة آلاف كتاب ، الى جانب العديد من الدراسات والمناهج فى هذا الموضوع المهم ٠

---

(١) البقرة : آية ١٥٦ ٠

الحديث :

عندما يتسنى لصبى نابه أن يحفظ القرآن ولما يبلغ العاشرة من عمره ، فانه لايجد فيه ما يفى بحل مشكلات حيـاته الخاصة ، فقد نزل عليه ــ عليه الصلاة والسلام ــ الوحى فى اطار من القيم الروحية ، أما ما كان من أحاديثه بعيدا عن الوحى ، فليس من التنزيل ٠

الا أنه عليه الصلاة والسلام ، كان أدرى من غيره بتفسير ما أوحى اليه ، وان تكون أحاديثه النبوية تتمة لما أوحى اليه من التنزيل الكريم ، وكان كل ما حدث به أو سلكه من فعل أو قول فى المرتبـــة الثانية من الأهمية فى شريعة الاسلام بعد القرآن الكريم ، وكانت دراسة ما نطق به ، أو استنه ، ما عرف ــ بعلم الحديث ــ وسرعان ما أصبح من الدراسات المهمة فى النهج الاسلامى ٠

وان كان الفاطميون ، وغيرهم من الشيعة ، سـلموا من الأحاديث بما ورد على لسان النبى نفسه وقرابتـــه ، وهو ما كان من السنة حين سلموا بالتالى بما روى عن الرسول وصحابته ، من أقوال أو مأثورات ، أو ذكريات سواء أكان الراوية رجلا أم امرأة أصلا ، أو تواتر عنه جيلا بعد جيل ٠

وقد قسم الرواة الأحاديث الى نوعيتين : الاسناد فى سلسلة من المحدثين واحدا بعد الآخر مع تعاقب الأجيال ، والمتن وهو ما كان صحيحا من قول أو مأثور ٠ ثم تدوينه فى مثابرة ودراسة واعية دقيقة لسلسلة الرواة واحدا بعد الآخر وما هم عليه من أمانة وصدق ، وقدرة على التذكر والنقل ، ويصور ما يلى ما كان من رواية الحديث :

> « نقل احمد بن حنبل عن أبى معاوية ، قوله : ان داود بن هند نقلا عن أبى حرب بن أبى الأســود عن أبى دهار وقد روى أن حوارى الله أنعم الله عليه ورضى عنه انه قال : اذا غضب منكم أحد وهو واقف فادعه للجلوس، فلعله يهدأ اذا جلس»٠

واستكمالا للتعليق كان الخونة واللاغون من كل قبيل يتخذون من الأحـاديث أداة لنزواتهم ومآربهـــم ، وقضـــاياهم ومواربتهـم ولغوهم وتفسيراتهم ، وأطماعهم السياسية ، وينسبونها الى النبى ، ولم يقفوا عند تحوير الأحاديث ، بل اخترعوا من عندياتهم ، وقضاء على هذا الافك، اتفق شيوخ السنة على صحة الاسناد الى ستة من المحدثين هم : البخارى (٨١٠ ــ ٨٧٠) ــ مسلم بن الحجاج المتوفى ســنة ٨٧٥ ــ أبو داود المتوفى سنة ٨٨٨ ، الترمذى المتوفى سنة ٨٩٢ ، ابن ماجـــة ، المتوفى سنة ٨٨٦ ، والنسائى المتوفى سنة ٩١٥ ٠

ومن بين هؤلاء الستة ، كان اثنان اتفق على أنهما مرجع صحيح • أولهما ما جمعه البخاری ، وقد ساح في الأرض ستة عشر عاما وراء جمع الأحاديث واجتمع له منها ما يقرب من ٧٥٠٠ حديث من بين نصف مليون، وغدا لها من القداسة حتى كان يقرأ فى الأزهر تبركا عند الملمات •

وثانيهما ما جمعه مسلم بن الحجاج ودعی باسم صحيح مسلم •

وغدت هذه الخلاصة من الأحاديث المختارة استكمالا لما جـــاء فى القرآن من تعاليم الدين والسلوك الدنيوى ، بداية من اقامة الحدود حتى السواك •

ويذهب بعض شيوخ العصر الى التشكيك فى صحة هذا الحشد من الأحاديث فى صـــحيح البخارى ، وهل هى جميعا مما يؤثر عن النبى والصحابة • وان ذهب الايمان بها فى العصر الوسيط الى حد القداسة حتى غدت لدى المؤمنين نهجا للسلوك والعبادات • وغدا البخارى محفلا لدراسات فسيحة ، حتى كانت دراسته تستوعب مائتين وعشرة دروس خلال عامين من الدراسة الشاقة العسيرة ، طالما كانت الضرورة تلح الحاحا شديدا بالرجوع الى الحديث فى الدراسات الدينية ، اللاهوتية والشرعية •

الفقــه :

يقوم التشريع الاسلامى على ما جـــاء به القرآن الكريم خـــلال القرن السابع فى الجزيرة العربية ، حتى اذا امتد المسلمون فوسع ملكهم امبراطورية فسيحة تضم العديد من الشعوب والأجناس ، وما كان بينها من علاقات تجارية واقتصـــادية فكانت ضرورة الاحتكام الى القرآن غاية ملحة ، والى ما أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم من أقوال وأفعال • وغدت الشريعة نهجا للحكم والعلاقات العامة • وتستمد أصولها من الفقه ، وهو القانون نصا ، **وأصول الفقه ويعنى التشريع وهو ما يقابل التشريع عند الغربيين •**

وكانت هذه الدراسات خلال حكم الفاطميين ، تقوم وفقـــا للنهج الشيعى ، فلما أعيد تجديد الأزهر خلال العصر المملوكى ، حلت التعاليم السنية محل التعاليم الشيعية وكانت هنـــاك أربعـــة مذاهب يقوم على تدريسها المعاهد الكبرى وعلى رأسها الأزهر أما المعاهد الصغرى فكانت تكتفى بمذهب أو مذهبين للدراسة •

ومذاهب السنة الأربعة :

١ ــ أبــو حنيفة النعمان ، وهو غــير سميه الذى قام على شرح المذهب الشيعى ، نشأ فى الكوفة ودفن ببغداد سنة ٧٦٧ ، بدأ بالكلام

ثم انتقل الى الفقه وروى عن التابعين وتابعيهم في العراق والحجاز ، ومنهجه الأخذ بالكتاب والسنة وفتاوى الصــحابة ، ثم بالقياس والاستحسان والعرف ، وأصبح مذهبه المذهب الذى أخذت به الدولة العباسية والدولة العثمانية ومصر ·

٢ ـ مالك بن أنس عاش فى المدينة حوالى عام ٧١٥ الى ٧٩٥ م ، وكان أقرب الى النهج الواقعى ، يتحرى ويدقق في الرواية ، وله كتاب ـ الموطأ ـ جمع فيه كل ما صح عنده من أحاديث النبى (صلى الله عليه وسلم) وانتشر مذهبه فى مصر والشمال الافريقى والأندلس ، وبعض بلدان المشرق ، وعاش آخر سنيه فى مصر ، وما زال قبره مزارا أثيرا (*)·

٣ ـ محمد بن أدريس الشافعى ولد بغزة سنة ٧٦٧ وتوفى بالقاهرة سنة ٨٢٠ وقضى أغلب سنى عمره فى بغداد على عصر هارون الرشيد ، ومنهاجه فى الاستقراء الكتاب والسنة والقياس والاجماع ·

٤ ـ ورابع هؤلاء الأئمة الأربعة أحمد بن حنبل ـ ٧٨٠ ـ ٨٥٥ ـ نشأ يتيما ، ولكنه كان عيوفا ، شغل بجمع الحديث · فى العراق والشام والحجاز واليمن ، وطلب الفقه ولم يترك الحديث ، وكان اماما فيهما ، وعذب حين تصدى لخلفاء بغداد ولم يشايعهم فى القول بخلق القرآن ، رفض عطاء الخلفاء ، رغم حاجته ، ويقوم مذهبه على الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين والقياس عند الضرورة ، وله كتاب ـ المسند ـ فى الحديث ويأخذ الوهابيون فى نجد بمذهبه ·

وليس ثمة تباين كبير بين ما ذهب اليه هو والأئمة فكان من اليسير على طالب نابه أن يلم بها جميعا دون عنت فى وقت واحــد ، وان كان العكوف على دراسة مذهب واحد منها دراســـة وافية دقيقة يحتاج الى سنوات عديدة ، فان الكثيرين من طلاب الأزهر ارتضوا هذا السبيل الشاق أملا فى ان يصبح شيخا أثيرا أو طمعا فى أن يتولى منصب القضـــاء أو الافتـــاء ·

وكان مما سادت دراسته فى الأزهـــر خلال هذا العصر الوسيط تلك الدراسة الموسوعية الشاملة للشريعة لكل ما يثـور فى الحيــاة من طقوس كالطهـــارة والصـــلاة ، والصدقات والحج والزواج ، والطلاق والمواريث ، والتجارة ، والقضاء ، والتجديف ، وحلف اليمين ،والشهادة ، ومعاملة الأرقاء والطعام والشراب ، والعراك ، والأخلاقيات ، واللباس ، وما عدا ذلك من الأساسيات ، فلم تكن دراسة الشريعة تقف عند التنظير فحسب بل تعدوها الى كل سلوك ونهج فى الحياة فى طابعها الواقعى ·

(*) جاء فى المصادر ان موته كان فى المدينة ، وأن قبره فى البقيع ·

وفى هذا العصر الوسيط كان الشاب الناشىء يستطيع أن يجد عملا فى ميدان من ميدانين ، فاما التحق بالخدمة العسكرية ، أو سلك سبيله الى المشياخة ، وأصبح الأزهر مركزا آهلا لدراسة الشريعة ، وكان المرمى المنشود لكل دارس أن يلتحق بوظيفة مرموقة فى القضاء بين الناس حيث يعيش .

الكلام :

لم يمض وقت طويل على المبعث ونزول القرآن وحيا من عند الله حتى لج بعض فقهاء المسلمين فى متاهات اللاهوت ، والحديث عن حرية الارادة ، وما قبل البعث ، والثواب والعقاب والجنة والنار ، والخلق وما قبل الخلق ، والجبر والاختيار ، وخلق القرآن ، والنسك والتقشف وغير ذلك مما شغل عقول رجال الدين .

وقد وقف الخليفة المأمون وقد امتد حكمه فى حاضرته بغداد من سنة ٨١٣ الى سنة ٨٣٣ م ، مؤيدا لاتجاهين ، أولهما : الأخذ بالعلم الاغريقى فكان نواة للاتجاه العقلى فى التفكير ، وثانيهما : ما خاض فيه المعتزلة حين استهوتهم فلسفة الاغريق فى الجدل والحوار تأييدا لمذهبهم ، مما أثار ثائرة المحافظين من رجال الدين لقولهم بحرية الارادة ، والايمان الصريح القائم على هدى المنطق ، فليس لله أن يكتب على الانسان الخطيئة ثم يعاقبه عليها ، ولكن العقاب يقع ما أوتى حرية الارادة والاختيار فعدا عليها ، ثم ما كان من القول بخلق القرآن ، على عهد الخليفة المأمون ، وكانت له الخلافة سنة ٨١٣ الى سنة ٨٣٣ م (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ) وكان محبا للعلم ، فأحيا معالم الفكر الاغريقى ، والاتجاه العقلى فى البحث والاستقراء ، واتخذ جانب المعتزلة فى القول بسلطان العقل فى معرفة الشر والخير مما أثار عليهم غضب المحافظين فى القول بوحدة الله ذاتا وصفات ، والقول بالعدل وخلق القرآن ، ولم يسبق لله أن قضى على انسان مسبقا بالخطيئة ثم يعاقبه عليها بالنار وبئس القرار ، فقد زين الله الانسان بحرية الارادة ، فاذا أخطأ فعليه وزره ، ثم ان القرآن كلام الله ، لم يكن له ثمة وجود قبل أن يوحى به .

وكان من أثر هذا الخلاف بين المحافظين والمجددين أن شاب هذا الاحساس الممض بغداد طوال نصف قرن تال أو يزيد ، حتى جاء ـ أبو الحسن على بن أبى موسى الأشعرى ـ بفكر تقبله أكثر الناس وارتضوه ، امتدت حياته ما بين سنة ٨٧٤ ـ حتى سنة ٩٣٦ . (وفى قول آخر من سنة ٨٧٣ الى سنة ٩٤١) قضى أيامه الأولى فى البصرة ، وأخذ بنهج المعتزلة فى الكلام ، حتى اتخذ منهجه الوسيط بين

المعتزلة والمخالفين لهم ، مما يتناول كما يعرف باللغة العربية ـ باسم ـ الكلام ، أو التوحيد ، أو أصول الدين .

وعندما سادت دراسة اللاهوت خلال هذا العصر الوسيط من تاريخ الاسلام ، بدت صورة جديدة من التفكير الديني ، غدا وله مكانتــه من بعد . وهو الحركة الصوفية ـ أو التصوف ـ اتخذت في البداية صورة من الزهادة البالغة ، وبمرور الوقت شابتها مراسم اتسمت بالغموض ، والتشعب والصلة الأليفة بالله . ولما كانت هذه الحركة الى حد ما نوعا من رد الفعل على ما شاب الفكر التقليدى من عقم وما عصف بالروح من جدب ، لم يكن غريبا ، أو ما يثير الدهشة أن يقف منها الفقهاء موقفا ادأ حتى ظهر فقيه عالم أضفى عليها نوعا من التوقير هذا الفقيه العالم هو الغزالى .

ولد أبو حامد محمد الغزالى فى طقوس سنة ١٠٥٨ م (٤٥٠ هـ) حين كان للسلاجقة الامرة فى الدولة العباسية ، والصليبيون ينوشون أطرافها ، درس العلوم الاسلامية والفلسفة ، وعمل أستاذا بالمدرســة النظامية ، وشهد اقامتها فى بغداد أيام طفولته ، وناشه زهد صرفه الى التجوال بحثا عن الحقيقة ، ويقول فى كتابه ـ المنقذ من الضلال ـ انه غادر بغداد الى الشام ، ثم مكة ، وعرج على الشــام بعد أن بارح مكة ، وأقام فى الشام عشر سنوات انقطع فيها للعبادة زاهدا ناسكا ، وعاد الى التدريس سنة ١١٠٥ ، فى نيسابور ، وبعد ســت ســنوات وقد بلغ الثالثة والخمسين من عمره فارق الحياة ، بعد حياة زاخرة كتب خلالها أعظم ما كان وما كتب فى هذا العصر الوسيط من كتب فى العالم بأسره .

وقد أضفى الغزالى على الصوفية والتصوف نوعا من التوقير والاكبار لم يتسن لها من قبل أو بعد ، وفى كتابه ـ الاحياء ، تناول بالبحث العلم وقواعد العقائد وأحوال المعيشة وآداب الاجتماع ورياضـــة النفس وعجائب القلب ، ومن تعاليم الصوفية عرض للتوبة والمحبة والصبر ، كما عقد الصلة بالله وبالنبى (صلى الله عليه وسلم) ، وأضفى على الفكر عامة خلال القرن الحادى عشر حيوية وقدرة ، وغدت تعاليمه الصوفية من برامج الدراسة فى الأزهر وغيره من المعاهد الأخرى لما حوته من مثل عليا روحية وعقلية وفلسفية الى جانب دراساته الموسوعية ، تسنمت بالفكر الاسلامى القمة فى دراسات العصر .

ومع ما كان من دراسات عديدة وفكر متجدد خـــلال تلك الفترة فقد بقيت دراسات الأشعرى والغزالى طلبة الدارسين لمن ينشدون العمل فى سلك التدريس فى المعاهد الدينية وأئمة المساجد ، وطلاب الشريعة والفقه بل وفى وظائف الحكومة ، فالدين والعمل صنوان لايفترقان فى الحكومة الاسلامية .

العلوم العقلية :

عندما اتخذ الاشعرى من علم المنطق أداة لمقارعة الملاحدة ، أصبح ـ المنطق ـ من المقررات الدراســـية فى المعاهد ، وان كان المنطق أصــــلا مما اخذه المسلمون عن الاغريق • كما أصبح علم الحســـاب بدوره من المقررات الدراسية ، طالما كان ضرورة ملحة لتقسيم المواريث ، وتحديد مواقيت الصلاة والصوم •

وان كانت بعض المعاهد قد فتحت أبوابها لدراسة الطب ، كما كان فى المدرسة المستنصرية ببغداد ، والمدرسة الناصرية فى القاهرة ، فان صناعة الدواء كقاعدة عامة كانت تتم فى المستشفيات •

وحين اتسعت دائرة البناء فى بعض الأحايين ، وســـاد الفكر الحر وحرية التعبير فتحت بعض المعاهد أبوابها للدراسة للنابهين من الطلاب لدراســـة الفلسفة ، والفلك ، والرياضـــيات العليـــا ، وكان الفكر خلال هذا العصر الوسيط قد أخذ يتحرر من أقانيمه فراجت دراســـة التنجيم والسحر والشعوذة العلمية كتحويل المعـــادن الى ذهب ، فاذا لم يكن لها مكان فى المعاهد القائمة لجأ الدارسون الى أصحابها يأخذونها عنهم فى بيوتهم ، اذ لم تكن مما يتقبله الفقهاء ورجال الدين •

وكل ما أنشده من هذا التقديم ، أن يجد الغربيون ممن لم يتسن لهم الالمام بالدراسات الاسلامية ودور الأزهر فيها ، فعندما تم تجديد الأزهر خلال العصر المملوكى ، بدأ دوره الأثير فى تاريخه الجديد ، رغم ما ناش هذا العصر المملوكى من مجاعات وحروب ، ومما كان من زلازل وأوبئة •

سلاطين المماليك

المماليك البحرية

أيبك	١٢٥٠ ـ ١٢٥٧
نور الدين على	١٢٥٧ ـ ١٢٥٩
قطز	١٢٥٩ ـ ١٢٦٠
بيبرس	١٢٦٠ ـ ١٢٧٧ ـ تجديد الأزهر ١٢٦٦
أبناء بيبرس	١٢٧٧ ـ ١٢٧٩
قلاوون	١٢٧٩ ـ ١٢٩٠
الأشرف خليل	١٢٩٠ ـ ١٢٩٣
الناصر	١٢٩٣ ـ ١٣٤٠
ضياع الوراثة كتبغا	١٢٩٤ ـ ١٢٩٦
بيبرس الثانى	١٣٠٨ ـ ١٣٠٩
أبناء الناصر	١٣٤٠ ـ ١٣٦١ ـ أبو بكر كجوك ـ الكامل أحمد اسماعيل ـ المظفر حاجى شعبان ـ الصالح حسن
أحفاد وكبار أحفاد الناصر	١٣٦١ ـ ١٣٨٢

المماليك البرجية

الظاهر سيف الدين برقوق	١٣٨٢ ـ ١٣٩٨
خلو العرش : الحاجى صالح	١٣٨٩ ـ ١٣٩٠
الناصر فرج	١٣٩٨ ـ ١٤١٢
خلو العرش ـ المنصور	١٤٠٥ ـ ١٤٠٦
الخليفة المستعين	١٤١٢

المؤيد شيخ	١٤١٢ ـ ١٤٢١ : ورثة المؤيد الصغير والتتار
برسباى	١٤٢٢ ـ ١٤٣٨ : أبناء برسباى ١٤٣٨
جقمق	١٤٣٨ ـ ١٤٥٣ : أبناء جقمق١٢٥٣
اينال	١٤٥٣ ـ ١٤٦٠ : ابن اينال ١٤٦٠ ـ ١٤٦١
خشقدم	١٤٦١ ـ ١٤٦٧
يلباى	١٤٦٧
تيمور بغا	١٤٦٧ ـ ١٤٦٨
قايتباى	١٤٦٨ ـ ١٤٩٥ ـ تجديد الأزهر
الناصر محمد	١٤٩٥ ـ ١٤٩٨
الظاهر قنصوه	١٤٩٨ ـ ١٤٩٩
جنبلاط	١٤٩٩ ـ ١٥٠٠
قنصوه الغورى	١٥٠٠ ـ ١٥١٦
الأشرف طومان باى	١٥١٦ ـ ١٥١٧

الفصل الثالث : سلاطين المماليك .

تجديد الأزهر :

فى حديثنا عن خلفاء صلاح الدين ذكرنا أن السلطان الصالح بنى قصرا جديدا فى جزيرة على النيل ، ولم تكن له ثقة برعاياه المصريين الناقمين ، فاتخذ من أجلاب الآسيويين حرسا لحمايته وحماية ملكه ، وأسكنهم الى جواره ، فعرفوا باسم ـ المماليك البحرية ، وما أن توفى حتى استبدوا بالسلطة ودان لهم الأمر بعد دورهم البارز فى لقاء الصليبيين حين أغاروا على مصر بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع ، أو القديس لويس ـ كما عرف من بعد · فاغتالوا الوريث الشرعى للعرش ، وأقاموا عليه أرملة الملك الصالح ـ شجرة الدر ـ وتزوجت زعيمهم عز الدين أيبك ، فاتخذ لنفسه لقب السلطان ، وكانت بداية حكم المماليك وقد لا يعنينا فى تأريخنا للأزهر أن نعرض لما كان من أحداث انتهت بزوال الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك البحرية · فاستعاد الأزهر مكانته على أيديهم وكانت بداية حقبة جديدة من تاريخه الحافل·

وأول ما كان ما نيط به من تجديد اللغة العربية واحياء تراثها ، ولم يكن للمماليك دراية فقد كانوا يتكلمون لهجة من لهجات اللغة التركية ، وقد جلبوا من قبائل أواسط آسيا فتية صغارا ، وكانت هذه القبائل تنساح فيما يعرف الآن بجنوب روسيا ، ليكونوا جنودا وتكون الحرب مهنتهم ، فأقاموا فى معسكرات التدريب ليكونوا فرسانا محاربين ، وكان ولاؤهم لسادتهم ومالكيهم ، وكل مايرمون اليه أن تكون فروسيتهم جديرة بالاكبار لتضفى على حياتهم مجد الحياة ·

وقد نالوا من التعليم ما يمكنهم من القراءة والكتابة فيما يجب أن يلموا به من تعاليم الاسلام ، ولم يكن ذلك بكاف لدراسة القرآن وقراءته ·

ولو لم يقم الأزهر والمعاهد المثيلة الأخرى بتحفيظ القرآن والحفاظ على اللغة العربية لكان الأمل فى الحفاظ عليها ضئيلا ·

كما اضطلع الأزهر والكتاتيب الملحقة بالمعاهد الدينية بالحفاظ على الشريعة وتوقيرها ، فالمملوكى بطبعه فارس مغامر ، يلوذ بالقوة فى

كل ما يعنيه ، فاذا أتيح له أن يكون من الشجاعة والذكاء ، ما يزكيه للقيادة وامارة الجند غدا أميرا على جماعته ، فاذا برز بقدرات تؤهله لقيـــادة أعلى غدا من اليسير عليه أن يصـــبح اميرا على اقليم أو ناحية فيستكثر من الأجلاب ويغدو وله حشد من المماليك يؤيدون ســـلطانه وكيانه المستقل ، وجعل من المال يكفل نفقاته والاكثار من مماليكه ، وتغدو القوة والسيطرة نبراس سلوكهم ونهج حياتهم ، اعلانا عن قوتهم وسطوتهم وتثور المعارك بينهم ويعدون على العامة والشعب غير آبهين بالقانون أو العرف .

فاذا تسنى لأحدهم أن يصبح سلطانا ، ســـارع بمصـــادرة أملاك منافسيه وحيازة مماليكهم وضمهم الى رحابه غير آبه بقانون أو شريعة أو تعاليم القرآن فى التملك أو الميراث ، ومن قبيل ذلك عندما توفى — تغرى بردى — والد المؤرخ المعروف صادر السلطان أملاكه ودوره ، وضم مماليكه وكانوا يبلغون المئات عددا وعدة الى مماليكه ، وكان ذلك ديدن غيره لا يرعون فى ذلك الا ولا ذمة ولا توقيرا لقانون أو عرف أو شريعة ، وهو ما ينوه به المؤرخ الابن (١) .

وكان على الفقهاء ورجال الدين أن يلوذوا بالشريعة ، وأن يذيعوا تعاليمها وفاء لحقوق الناس وحماية للشعب عن العسف ، واقامة للعدل فى حقبة سادها الظلم والتسلط .

كما كان على الأزهر من ناحية أخـــرى أن يتبنى تعاليم القـــرآن الكريم ، وما جاء به من قيم أخلاقية وما نص عليه من حدود لاقامة العدل بين الناس ، فى حقبة سادها الظلم والتسلط والقهر والنهب من قبل الحـــكام ، ومن قبيـــل ذلك ما كان من الأمـــير — أقبغا Aqbugha — الذى سبق له أن أقام خلال نصف القرن السابق مكتبة الأزهر — حين بعث به السلطان للقبض على أحد الأمراء الخارجين من المماليك ، فوجده فى حديقته مع ستين جارية (٢) الى جانب حريمـــه ، وحاشـــيته من الحشم والخدم .

وثمة صورة أخرى للتبذير والاسراف من كبير من هؤلاء الكبار المتسلطين (٣) فى حفل ختان ابنه ، فقد أضاء الحى بالأنوار الســـاطعة ودعا المغنين والمغنيات لامتاع الناس وابهاجهم بتلك المناسبة .

---

(١) تاريخ مصر ١٣٨٢ — ١٤٦٩ لأبى المحاسن بن تغرى بردى ، وقد توفى أبوه وكان اميرا من أمراء المماليك حوالى عام ١٤١٠ أثناء سلطنة الناصر فرج .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٤٧٨ .

(٣) ابن اياس (٨٥٧ — ٨٧٢) تاريخ المماليك س . ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .

وكعادة المحدثين من الثراة ، أغرم المماليك بالحفلات والسهرات الصاخبة ، فاذا ركب السلطان لغزو ، أو مدعوا لحفل تم ذلك فى حشد حافل بالأبهة والعظمة والمدعوين وأقطاب الحاشية .

وكان كبار الأمراء يسكنون قصورا فاخرة وسط حدائق غناء ، وقد امتطوا خيولهم المطهمة مكسوة بالدمقس موشاة ، أعنتها بالذهب وذلك مما حبب المصريين فى تلك الولائم وجذبهم اليها ، فاذا كان حفل لمناسبة كالختان مثلا ، فان الليل ينقلب نهارا . وأعظم ما كان من حفاوتهم بالعزاء فى الموتى ، واقامة المآتم ، وقد أغرم المماليك ببناء المقابر الى جوار المساجد ، والمعاهد ، وزوايا الدراويش ، وكان من مخلفات هؤلاء السلاطين أنصاف المثقفين ، تلك الأبنية من المساجد والقصور والقبور ما ليس له مثيل فى الجمال والروعة وطلاوة العمارة فى العالم أجمع . وان سخر فى بنائها الحرفيون والفلاحون بصورة مخزية واتسعت الفجوة بين الأغنياء والفقراء .

ولم يكن غريبا أنّ يلوذ سواء الناس بالأزهر وغيره من أماكن العبادة داعين الى ما كان من سنن النبى الكريم من مثل عليا للعدالة الاجتماعية .

وفى الحقبة من قسوة الحكم والحكام ، لجأ شيوخ الأزهر الى الدعوة لاحياء تعاليم نبى الاسلام العظيم فى الحب والتسامح والرحمة .

ومن قبيل ما كان من قسوة هؤلاء المماليك ووحشيتهم أنه فى سنة ١٢٩٨ ، أن قتلة السلطان الأشرف قطعت أيديهم وعلقت فى رقابهم ، وسمرت أجسادهم بالجمال ، وطوف بهم على بيوتهم حيث عصف الذعر بزوجاتهم وخدمهم ، وفى سنة ١٤٩٨ كان للسلطان مغن اتهم بغناء مقطوعة تحمل نوعا من التعريض بسياسة السلطان ، فجلد على قدميه ، وطوف به عاريا على حمار ، والهتاف من حوله : — هذا هو عقاب من يتكلم فيما لايعنيه ، ويدس أنفه فيما ليس من شأنه ، وفى سنة ١٤٧٢ حمل ثائر فى سوريا واخوته الى القاهرة ، وحشد للقائهم الطبالون والمغنون عند باب القاهرة الشمالى ، فعريت أجسادهم ، ودقت بالمسامير الى ألواح من الخشب تجرها الجمال حتى باب القاهرة الجنوبى ، وتركوا معلقين على هذا الوضع لست وثلاثين ساعة حتى لفظوا أنفاسهم ، وفى نفس الوقت جيء بشيعتهم ممن قبض عليهم ، وقطعت أجسادهم نصفين (١) .

---

(١) ابن اياس : تاريخ المماليك ص ٨٥ — ٨٦ — قارن ما ورد فى المقريزى الجزء الأول ص ٧٩٦ .

وعند وفاة السلطان خشقدم ، خشى أطبــاؤه أن يعاملوا معاملة الخونة أو المتمردين ، اذا أهملوا اعلان المسئولين بحالتـــه ليتخذوا أهبتهم فيما يكون ، وحين هرب أحدهم خشية ما يحل به قبض عليه وسجن . وهو ما كان من أطباء برسباى حين تقاعسوا عن ذلك فعذبوا ونكل بهم .

ولسنا فى حاجة الى ضرب أمثلة أخرى ، لتحمل رجـــال الدين وشيوخه على مواجهة هذا النوع من القسوة والظلم .

وكان الأزهر ، فى مواجهة ما كان قد غدا ملجأ للناس من العسف ، عندما يحزب الخطر ، ويشتبك أمراء المماليك فى عراك دام حـــول السلطة وتنافسهم عليها وتغدو الطرقات مسرحا لقتـالهم ، ليضنى الناس بصراعهم ومعاركهم ، وهو ما يشير اليه ـ ستانلى لين بول ـ بقوله :

« كان الفزع الذى يعصـف بالنـــاس يحملهـــم على غلق متــاجرهم ، واللواذ ببيوتهم ، وغلق أبـواب الحارات التى تفصل ما بينها ، وتخلو الطرقـــات والأســواق والأحياء من قاطنيها الا ما كان منها مفتوحا مما هو عام . حيث يقتحمون ، البيوت ويزيحون عنها النساء والأطفال ويتخلون منها معقلا يلقون منها بسهامهم وحرابهم على مناوئيهم فى الطريق » (١)

ولما كان الأزهر يحتل مكانا وسطا بين الأحياء ، غدا أقرب ما يكون ملجأ للخائفين والمذعورين ، حيث يدعون الله أن يزيل عنهـــم الغمة والكرب .

وغدا الأزهر الى جانب هذا ، وخلال هذا العصر المملوكى ، المكان الأثير لاقامة شعائر الدين فى حقبة اجتاحها التعصب كما عصفت بهـــا الخرافات والأباطيل ، ولم يكن غريبا أن تثور روح التعصب فى الناس بعد قرنين من الزمان بقيت بعدهما ذكريات التعصب الصليبى ، عالقة بالأذهان وهى ما يشير اليها ـ المقريزى ـ فى ـ السلوك ـ ويضرب الأمثلة العديدة لها (٢) . ومن قبيل ذلك أن المسلم فى ثيابه الخلقة الممزقة وقدمه الحافية حين يبصر بمسيحى أو يهودى على صهوة جواد مطهم ، يعصف به الغضب حتى حيل بينهم وبين ركوبها ، وأمروا أن يكون غطاء الرأس عمامة زرقاء أو صفراء .

---

(١) لين بول ، طبعة القاهرة ص ٧٥ .

(٢) السلوك جزء ١ ص ٩١٠ـ٩٢٣ ، وجزء ٢ ص ٩٢٣ـ٩٢٥ .

(٣) الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ـ وقد لقب ـ البندقدارى ، نسبة الى الفارس المملوكى الذى ابتاعه ، وقد تولى السلطنة من ١٢٦٠ حتى سنة ١٢٧٧ ـ المؤلف .

وأصبح عامة الناس وهم يعانون الفقر والمسغبة ويعصف بهم الجهل ضحايا التعصب والخرافة ، وبقدر ما كان اهتمام الحكام باقامة المساجد والمعاهد الدينية فى المدن ، بقدر ما كان اهمالهم للتعليم واقامة المعاهد فى القرى والريف النائى ، وان حفلت القاهرة بالخرافة والتعصب ولقيت الطرق الصوفية الضالة بكل ما حفلت به من خرافات وأباطيل تأييد المماليك وتشجيعهم ، وكان على الفقهاء وشيوخ الدين النابهين أن يتصدوا لهذه الظاهرة من الأباطيل ، وأن يعيدوا للشريعة الاسلامية مكانتها وجلالها لدى الناس ٠

وأصبحت الحاجة ماسة الى احياء تعاليم الاسلام وسنة رسوله العظيم وهو ما اضطلع به الأزهر من جديد بعد أن عزف عنه صلاح الدين منذ أصبح ملاذا لتعاليم الشيعة على عصر الفاطميين ، مما سبقت الاشارة اليه ٠

ويعد السلطان بيبرس صاحب الفضل الأول فى تجديد الأزهر (٢)، وقد ولد فى عام ما ، قيل هو ١٢٢٨ ، وشب بين القبائل الرعوية التى تقع الى الجنوب من روسيا الحالية ، وبيع لتاجر من تجار الرقيق فى ــ سيواس ــ ومنها الى سوق الرقيق فى سوريا ، وقل الطلب على ابتياعه لضعف احدى عينيه ، فلما نقل الى سوق حماه ، ابتاعه مملوكى ، وضمه الى مماليكه حيث تمرس بالفروسية وعدة الحرب ، حتى اذا بلغ الثامنة عشرة انتقل الى خدمة السلطان الصالح نجم الدين الأيوبى فضمه الى حرس قصره ، وفى سنة ١٢٤٩ ، عندما أغار الملك لويس التاسع الفرنسى ٠ على مصر ، وهاجم دمياط ، كان على قيادة الفرسان الذين قلبوا الهزيمة الى نصر ، ووقوع لويس أسيرا مما أدى الى نهاية الدولة الأيوبية ، وبداية حكم المماليك ، وانتصارهم الباهر على التتار فى معركة ــ عين جالوت ــ سنة ١٢٦٠ (٦٥٨ هـ) ٠

ولم يكن قطز على وفاق مع بيبرس ، وكانت نهاية قطز بعد ان اغتاله بيبرس ، ونادى بنفسه سلطانا على مصر ، وامتد حكمه من سنة ١٢٦٠ الى سنة ١٢٧٧ م (٦٥٨ ــ ٦٧٦ هـ) فكان أعظم وابرز سلاطين المماليك البحرية ، بدأ بتنظيم الدولة حكما وادارة ، وفى بواكير حكمه قام بتجديد العديد من الأبنية القديمة ومنها الأزهر ، حين استجاب الى مشورة أحد أمرائه ، وكان أقربهم اليه ، وأولاهم بثقته ، فكان ــ كما يقول ــ ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ينيبه على الحكم عند غيابه عن مصر ، فى حروبه بعيدا عنها ، ويدعى هذا الأمير ، عز الدين أيدمر الحلى ، وكان قد أقام قصره المجاور للأزهر من الجهة الغربية البحرية ، وأمل أن يعود الأزهر الى تسنم

مكانته القديمة ، فتحدث الى بيبرس فى اصلاح مبنى الأزهر ، ولقى منه استجابة طيبة ، وأمده بأموال وفيرة ، الى جانب ما تبرع به أيدمر من ماله الخاص زلفى الى الله سبحانه وتعالى وشرع فى ترميمه ترميما كاملا بعدما ناله من اهمال بعد نهاية الدولة الفاطمية ، ويقول المقريزى : ان أيدمر شرع فى تنفيذ عمليات الترميم التى شـملت أركان الجامع وسقوفه وجدرانه وسائر أركانه ، كمـا أمر بتبليط أرضـه وفرشها بالحصر ٠

وما لبث أيدمر أن حصل على قرار شرعي باقامة صلاة الجمعة فى المسجد الأزهر ، وكان الأيوبيون ، كما سبق القول ـ قد حالـوا دون اقامتها بالأزهر استنادا الى ما أخذ به الشافعية في اقامة صلاة الجمعة في مسجد واحد فى مدينة واحدة واختاروا لاقامتها مسجد الحاكم دون الأزهر فى القاهرة ٠

ولما كان بيبرس قد اختـار المذهب الحنفي ، وهو مذهب أكثر مرونة من غيره من المذاهب الأخرى ، كان من اليسير على أيدمر أن يحصل على قرار رسمى باقامتها فى الأزهـر ٠ وكان ما أشـار اليه المقريزى بقوله : انه فى يوم الجمعة الثامن عشر من ربيع أول سنة ٦٦٥ هـ ، (١٧ ديسمبر ١٢٦٦ م) ، أما المتفضل بن أبى الفضائل ، فيسجل : أنه خلال سنة ستمائة وخمس وستين :

« قرر السلطان أن تكون صـلاة الجمعة بالجامع الأزهر ، وكان قد اتخذ مكانا لأداء الصلوات الخمس من قبل »
وان كان بعض العلماء قد اتخذوا موقفا معارضـا ، وكان قرار السلطان فى الثامن عشر من ربيع الآخر من تلك السنة ٠

وقبل خمسة أيام من تقرير صلاة الجمعة بالجامع الأزهر ، اقام بيبرس منبرا جديدا من الخشب الى جانب المحراب وان لم يتسن له حضور الحفل بافتتاحه ، فقد أمده بهبة مالية ، وأعاد اليه ما كان موقوفا عليه من محابس ٠

ويبـدو أن أيدمر قد كلف بمهمة خارج مصر ، أو توفى قبل أن يكتمل تجديد الأزهر ، فقام على تكملته أحد المسئولين يدعى ـ بيليك ـ بدر الدين بن عبد الله الخازندار ، وكان نائبا للسلطان وقائمـا على خزائنه ، فأقام ـ مقصورة ، لدراسة المذهب الشافعى ، ونعنى كلمة ـ مقصورة ـ باللغة العربية ـ الفصول أو الجناح المعد للتدريس ، ويبدو أن بيليك قد أضاف الى ما أقامه أيدمـر مقصـورة جديدة ، أو أكمل ما لم يكمله سلفه ٠

وقد زود الأزهر حينذاك بما يحتاجه من نفقـة ، واسترد نائب السلطان للجامع الأزهر الكثير من الأوقاف المحبوســة عليه ، والتى اغتصبت من قبل خلال الحكم الأيوبى ، للانفـاق على الطلاب والفقهاء القائمين على تدريس الشريعة ، والقراءات السبع المتفق عليها ، واستقبل الأزهر مرة أخرى الطلاب لدراســات منظمة لقراءة القرآن وتجويده ، كان يؤمها رجال الحكم ليستمعوا الى دروس التفسير ، وتم تعيين امام للصلوات الخمس وصلاة الجمعـة ، وفى عـام ١٢٦٦ ـ ١٢٦٧ . صدرت التعليمات بتحريم تدخين الحشيش وتناول الخمور ، واغـلاق دور البغاء وحانات الخمر ، وبهذا استعاد الأزهر مكانته كمركز للعبادات ، والدراسات التى يؤمها الطلاب من شتى الأنحـاء ، وسمح للنسـاء بالدراســة .

وقد يبدو مستغربا أن يتم ما أصبح للأزهر من مكانة على يد بيبرس الذى بدأ حياته أميا فى مراعى القرغيز على حافة روسيا من الجنوب . ولم يتسن لهذا السلطان الغادر فى أخريات أيامه أن يؤم الجامع الأزهر ، كما يحب ، عندما شغلته الحروب الصليبية من ناحية وعدوان الأتراك السلاجقة وتهديد المغول من ناحية أخرى ، وان لم يتسن له أن يشهد نهاية الصليبيين ، فان خلفاءه قلاوون والأشرف خليل قد فازوا باجلاء الصليبيين عن آخر معاقلهم الآسيوية فى الشام .

السلطان الناصر وخلفاؤه :

وبعد وفاة الأشرف خليل الابن الأكبر للســلطان العظيم قلاوون حوالى عام ١٢٩٣ (٦٩٣ هـ) خلفه أخوه الأكبر ، الناصر ولم يكن قد جاوز التاسعة من عمره ، ومع ما واجه من متاعب فى بداية حكمه من جانب أمراء المماليك امتدت سنوات ، الا أنه قد استعاد سلطانه وغدا وله اليد العليا فى عالمه ، وظل يحكم حتى سنة ١٣٤١ م (٧٤١ هـ) وكانت ســنوات حافلة بالتوتر والقلق ، اذ قام المغول المخربون بغزو الشام مرة أخرى واجتاحوا دمشق ، وأعلن شيوخ الأزهـر وغيره من المساجد الأخرى ــ الحرب المقدسـة ــ وانثالت الهبـات ، من الأقطـاب والتجار والثراه ، وجند الفلاحين والعمال .

ومع ما شغل به من حروب ، فقد تميز بأصالته العلمية ورعايتـه للتعليم : وأكمل بناء المارستان الذى بدأه أبوه قريبـا من المكان الذى أقيمت عليه البوابة الذهبية لقصر الفاطميين الكبير من قبل ، ويعـرف باسم المارستان المنصورى ، كما قام بانشاء المدرسة الناصرية ، وقد غدت منافسا للأزهر فى ميدان التعليم .

وقد ترك لنـــا المؤرخ المقريزى تفصـــيلا وافيا لتلك الأحداث المثيرة التى وقعت سنة ١٣٠٣ م (٧٠٢ هـ) فى بواكير حـــكم الملك الناصر ، فيقول ما فحواه :

« فى يوم الخميس الثالث عشر من ذى الحجة وعند صلاة الصـــبح اهتزت الأرض بزلزال عنيف وطقت أصـــوات الانهيـــارات وتســـاقط البيوت والشرفات ، وترنح المشاة ، وسقوط الراكبين بعيدا عن مطاياهم ، وقيل للناس ان السماء انطبقت على الأرض ، وهج الرجال والنســـوة الى الطرقات والفزع والخوف يحـــولان بين النسوة وستر وجـــوههن ، والصراخ والعويل والفزع يخيـــم على النـــاس واجهضت النسوة ، وهبت الريح صاخبة ، وطغت مياه النيل ، وانزلقت الأشرعـــة والمراكب على الأرض ، حتى اذا انحسرت بقيت الأرض والبيوت عارية الا من حطام المراكب وشظاياهـــا على الشاطىء وما أن هجر الناس بيوتهم حتى اجتاحها اللصوص ونهبوا كل ما فيها ..

ومدت الخيام من بولاق الى الروضة لايواء الناس ، الا أن أكثرهم لجأ الى المساجد لقضاء الليل ، وفى اليوم التالى أخذوا يبتهلون الى الله فى صلاة الجمعة أن يزيل عنهم الكرب .

ومن بين الأبنيـــة التاريخية التى انتابهـــا الدمار ، مســـــجد عمرو بن العاص ، وقام نائب السلطان الأمير سلار بتجديد بنـــائه . وتداعى مسجد الحاكم بالقاهرة وسقطت مئذنتاه ، وقام الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير بعمارته ، وتولى الأمير ســـلار عمارة الجامع الأزهـــر وتجديد مبانيه واستكمال مرافقه وحاجته من صهاريج الميـــاه وميضأة الوضـــوء .

وفى العاشر من شهر ربيع الثانى قام الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار نقيب الجيوش فى الديار المصرية فى دولة الناصر محمـــد بن قلاوون ، وقد شـــغل منصبه هذا قرابة عشرين عاما ببناء المدرســـة الطيبرسية ، الى جوار الجامع ، وقد فرغ من بنائهـــا ســـنة ١٣٠٩ ـ ١٣١٠ م (٧٠٩ هـ) ، وأوقف عليهـــا بســـخاء ما تحتاجه من نفقة ، ويحكى عنه ، أنه لما فرغ من بنائها جاءوه بكشف عما انفق عليهـــا ، فطلب طستا مليئا بالماء ، فألقى فيه بالكشـــف وأذابه دون أن يقـــرأه ، وقال كلمته الأثيرة : لا نلقى بالا الى ما كان منا هبة لله .

وقد أقيمت المدرسة الطيبرسية ـ كما يقول المقـــريزى ـ ملحقـــة بالجامع وهى غربيه مما يلى الجهة البحرية ، وموقعها الآن الى الداخل

من البوابة ، حيث تكون جزءا من مكتبة الأزهر ، وكان علاء الدين قد تأنق فى بنائها ورخامها وتذهيب سقوفها ، وأعدهـا لتدريس المذهب الشافعى ، والدراسات الصوفية ، وكان قد بدأها بمسجده الذى اقامه على النيل فلما تهدم ، انتقل بها الى المدرسة ولما توفى سـنة ٧٠٩ هـ (١٣١٩) دفن بها ٠

وكان من بين معاونى الناصر والمقربين لديه أمير من أمراء المماليك هو ــ أقبغا ــ علاء الدين أقبغا عبد الواحد ، كانت أخته زوجا للسلطان ، قد أقام مدرسة بجوار الأزهر على يمنة الداخل اليه ، فى المكان الذى أقيم عليه قصر الأمير أيدمر بن الحلى من قبل عرفت باسم المدرسـة ــ الاقبغاوية ــ وهى التى يشغلها الآن جزء من مكتبة الأزهر ــ كما سلف القول ــ وسخر القائمون على بنائها يوما فى الاسبوع دون أجر من بين أبناء القاهرة ومصر القديمة ، تحت اشراف مماليكه ٠ غصبا وكرها ، فلم ير الناس من قبل قسوة وظلما كقسوته وظلمه فى تجنيدهم للعمل ، وغدت فيمـا بين ــ ١٣٣٠ ــ ١٣٤٠ ــ ملتقى الأمـراء والشيوخ ، وان لم يتول أحد القوام عليها حينذاك ٠

وقد لايتسنى لنا تفسير ، ما أصبح عليه الأزهر من أهمية أخذت تتعالى وتسمو على الزمن ، بينما تضاءلت أهميـة المسـاجد والمعـاهد الأخرى فى القاهرة ، ففى أعقاب الزلزال العاصف ، وتجديد مسـجد الحاكم ، وجددت الدراسات فيه ، فغدا منافسا للأزهر حين فتح أبوابه لليتامى ، وحفلت مكتبته بالزائرين من القراء٠ ، ففى عام ١٣٢٥ ، حين مر به ــ ابن بطوطة ــ الرحالة المعروف ، وكتب عن الناصر ومارستانه العظيم ، كما كتب عن الطرق الصوفية وما تلقـاه من حـدب ورعايـة . لم يرد ذكر الأزهر فيما كتب ، مما يدل على أنه لم يحظ حتى ذلك الوقت بما أصبح له من أهمية ومكانة فيما بعد ٠ حتى اذا كان القرن الخامس عشر أصبح الأزهر واحدا ــ كما يقول المقريزى (١) ــ من ثمانية وسـبعين مسجدا وخمسـة وسبعين معهدا ، لم يعـد لها ما غدا للأزهر من أهمية من بعد ٠ حين أصبح منارة العالم الاسلامى ، ومحفل العبـادة والعـلم فى مصر ٠

وما من ريب فى انـه حفى بمكانتـه تلك ، بعد أن غـدا . وله قداسته ، كما غدا ملجأ للنازحين والقادمين ، فعندما اشتعلت الحرائق فيما حواليه ، هرع اليه العامة وسواد الناس ينشدون الأمن والأمان . يدعون الله للصلاة والدعاء ، كما يذكر المقريزى ، فعندما اجتاح الوباء مصر ، أيضا ، هرعوا الى الأزهر ينشدون النجاة والأمان ٠

---

(١) الخطط ص ١٥ ٠

وعندما توفى السلطان الناصر سنة ١٣٤٠ · كان من الحفاوة وحسن الذكر ، أن اجتمعت كلمة المماليك على خلافة ثمانية من أبنائه ، وأربعة من أحفاده على كرسى السلطنة · وفى أثناء ولاية ابنه السابع السلطان الحسن ، عصف وباء الطاعون بالناس ، وكان قد اجتاح أوربا وعرف باسم ـ الموت الأسود ـ ويحتمل أن يكون قد اجتاح القاهرة سنة ١٣٤٨ ، ولم يشهد العالم الاسلامى شبيها له من قبل ، وبلغ عدد الموتى فى القاهرة وفى مصر ما بين عشرة وخمسة عشر ألفا فى اليوم الواحد ·

ولم يكن الوباء قاصرا على مكان واحد ، فقد اجتاح العالم أجمع شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، لم ينج منه أحد من الآدميين ، حتى المخلوقات الأخرى من الأسماك والطيور وعصافير الجنة والوحوش المفترسة ، وبدأ أول ما بدأ بين وثنيى آسيا ، ثم حملته الريح الى بلاد الأزبك ، واستامبول فبيزنطة وانطاكية وانتحى الى خلجان كرمان وقيصرية بكل ما حوت من أودية ومرتفعات فعصف بكل ما فيها من انسان وحيوان وماشية ودواب ، وهرب الأكراد فلم يجدوا منتجعا يحميهم قبل أن يعصف بهم الموت جميعا ·

وكان الوباء أشد وقرا فى الصين منه فى الهند ، وأصاب الناس بالطفح الجلدى فى بغداد ، وانساح الى سوريا وفلسطين واجتاح أنطاكية فقضى على خمسمائة من سكان حلب كل يوم ، ولم ينج من بلدة جنين غير امرأة عجوز هربت بعيدا عنها ، ولم يترك حيا لا فى اللد ولا فى الرملة ، وامتلأت النزل والبيوت بجثث الموتى ، وفى غزة تساقط الرجال خلف محاريثهم ومات ستة من اللصوص ، وهم يحملون أسلابهم فارين ·

ونزل الموت بالمناطق الشمالية من مصر ، مجتاحا مدينة اثر الأخرى وخيام البدو خيمة بعد خيمة ، وفى القاهرة ومصر القديمة عصف أول ما عصف بالنسوة والأطفال ثم بالحرفيين والمهنيين · ونزح السلطان عن المدينة عندما عصف الموت بثلثمائة من السكان فى اليوم ليلا ونهارا وقبل نهاية رجب ، زاد عدد الموتى يوميا على الألف حتى اذا اشتد الوباء خلال الشتاء ، هرع الناس الى المساجد للصلاة داعين الله أن يزيل عنهم الغمة ، وعكفوا على قراءة البخارى بالجامع الأزهر ، وغيره من المساجد الأخرى أياما عديدة ، يدعون الله العلى العظيم فى صلاتهم ، وعندما يشعر أحدهم بالحمى تسرى فى بدنه ، يتلوها نوع من الغثيان ، فيبصق دما ، ثم يموت ، ليقفوه من أهله واحد بعد الآخر خلال ليلة أو ليلتين ، على يقين بأنهم سيلقون حتفهم بنفس المرض ، فيزداد احسانهم ، ويبدءون فى التكفير عن ذنوبهم بالصلاة والعبادة ·

ولم يعد لأحد منهم خلال الوباء حاجة الى شراب أو دواء أو استشارة طبيب طالما أنهم ملاقو الموت قبل أى سعى من هذا القبيل ·

ولم يعد للناس فى الصعيد ولا فى القاهرة وما يحيط بها شغل بغير ذلك فبارت الزراعة ، وكسدت الصناعة فى كل مكان من الحضر أو الريف ، وقيل ان عدد الموتى بلغ عشرين ألفا فى اليوم الواحد ، وفى القاهرة وحدها كان عدد الموتى خلال شهرى شعبان ورمضان تسعمائة ألف ـ كما ورد فى السلوك للمقريزى ـ وان كان فى قوله بعض المبالغة ، فان القلوب الآسية الموجوعة لرؤية النساء وقد فقدن أزواجهن وأطفالهن ، أو الرجال وقد عصفت بهم الوحدة وغياب العشير ، واليتامى ، والفزعين من الغرباء لايجدون لهم ملاذا غير ساحة الأزهر وصحنه ينشدون السلام والقوة من الله العلى القدير ·

وكان لدور الأزهر فى هذه الملمة من الاكبار لدى السلطان الحسن أن أذن لأحد أمرائه ـ الطواشى سعد الدين الجمدار الناصر فبدأ عمله بازالة المقاصير العديدة ، التى استجدت عليه ، وأخرج الخزائن والصناديق العديدة ، التى ازدحم بها الجامع ، وقام باصلاح جدران الجامع وسقوفه ، وتبليطه ودهانه ومنع الناس من المرور فيه ، وأنشأ على بابه القبلى سبيلا لامداد الناس بالماء العذب ، وقضى على الفئران التى سكنته ، وزوده بمكتبة لتعليم الأيتام قراءة القرآن الكريم ، ورتب لفقراء المجاورين طعاما يوميا ، وقرر دروسا لفقهاء الحنفية فى المحراب الكبير ، ووقف عليه أوقافا عظيمة وتم ذلك كله قبل أن تزول دولة المماليك البحرية لتخلفها دولة المماليك البرجية ·

المماليك البرجية :

كان هؤلاء المماليك الذين انتزعوا السلطة من المماليك البحرية سنة ١٣٨٢ م (٧٨٤ هـ) ، على يد السلطان برقوق (١) ، غير المماليك البحرية ، أصلا ونشأة ، اذ أنهم يمتون الى الشركس الضاربين فى تخوم آسيا الصغرى والقوقاز ، وأطلق عليهم اسم البرجية لسكناهم القلعة أو البرج بدلا من جزيرة الروضة ·

وحين تولى الأمير الطواشى بهادر ـ نظارة الأزهر ، كان برقوق قد أصدر مرسوما ينص على أن من مات من مجاورى الجامع الأزهر عن غير وارث شرعى وترك موجودا (ثروة) فانها تؤول الى زملائه من مجاورى الأزهر ، وقد نقش هذا النص على لوحة من الرخام ، قام بوضعها عند الباب الغربى الكبير ، وعثر عليه أخيرا ، ومازال موجودا بالجامع الأزهر الآن · ونص هذا المرسوم على ما يأتى :

---

(١) الملك الظاهر أبو سعيد برقوق ، تولى السلطنة سنة ١٣٨٠ م (٧٨٤ هـ) ·

« بسم الله الرحمن الرحيم رسم بالأمر الشريف السلطانى الملكى الظاهر أبو سعيد برقوق عز نصره ، أن يكون موجود من يتوفى الى الله تعالى من الفقراء المجاورين وأرباب وظا ولم يكن له وارث شرعي يكون لصالح جامع الأزهر بمقتضى العلامة الشريفة بتاريخ سابع شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة » .

وفى هذه الآونة من سنة ١٣٨٢ م ، (٧٨٤ هـ) وفد الى مصر العلامة الكبير المؤرخ ابن خلدون ، وعينه السلطان مدرسا للمذهب المالكى فى الكلية القمحية بجوار جامع عمرو ، ولم يمض سوى قليل حتى عينه السلطان أيضا لتدريس الفقه المالكى بكليته الجديدة التى أنشأها فى حى بين القصرين واسمها الكلية الظاهرية البرقوقية ، ولما خلت وظيفة أستاذ الحديث بكلية صرغمتش نقله اليها . وفى مقدمته الخالدة ، يسجل ابن خلدون أن كثيرا من السلاطين بعد صلاح الدين قد أغدقوا على الأزهر من الهبات ما حمل الكثيرين من العراق والشمال الافريقى على القدوم الى مصر ، حينما اجتاح المغول الغرب الآسيوى خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، واحتلت القاهرة مكانة بغداد فى زعامتها الفكرية والثقافية .

وفى سنة ١٣٩٧ أو ١٣٩٨ تقوضت منارة الأزهر ، أو هدمت ، وأقام السلطان برقوق أخرى محلها (١) . وفى حكم السلطان برقوق أيضا ، حفيت الطرق الصوفية بالتأييد والاهتمام ، مما كان له أبعد الأثر على الأزهر حيث التحمت تعاليم الصوفية ، بتعاليم أهل السنة .

وخلال حكم المؤيد شيخ ما بين ١٤١٢ و ١٤٢١ ، نصب على ادارة الأزهر بعض المقربين اليه ، من بينهم حاجب القصر الأمير سودون ـ Sudun (٢) ـ وعصابته فأطاح بنظامه .

وفى سنة ١٤١٥ مالت مئذنة الأزهر ، فأزيلت وقام مكانها غيرها من الحجر ، كما جدد بناء البوابة الشمالية بالأحجار ، وأقيم سبيل لسقاية الفقراء والمعوزين كما جرى غرس بعض الأشجار فى صحن الجامع مالبثت أن جفت .

وفى وصف تلك الحقبة من تاريخ الأزهر ، يدون المقريزى

---

(١) تقول الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها ـ مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ـ انه فى سنة ٨٠٠ هـ ، هدمت مئذنة الأزهر القديمة لأنها كانت قصيرة ولا تتناسب مع ضخامة الجامع ، واتساعه ، وأقام السلطان الظاهر برقوق مئذنة أخرى طويلة .

(٢) وصحته ـ الأمير سودوب ـ د. سعاد ماهر ـ المصدر السابق ص ٢٠٦ .

ما فحواه : أن الأزهر مضى فى نشاطه بدراسة القرآن وحفظه وتفسيره على الطريقة الصحيحة الى جانب تدريس الشريعة والحديث والتفسير واللغة ، كما أقيمت دورات للوعظ ، الى جانب حلقات الذكر للدراويش ، فاذا أمه طارق حفت أذناه بذكر الله وقد شع بالهدوء والسكينة والسلام مما لايراه فى أى منتجع آخر ٠

ولقى الأزهر من حفاوة الأغنياء وكبار الثراة ورعايتهم ، فحفوه بالمنح والهدايا والهبات من الذهب والفضة والأموال ما يمكن الدارسين من خدمة دين الله سبحانه وتعالى ، الى جانب ما يحفونهم به من شتى الوان الطعام بداية من الخبز الى الحلوى والمشهيات ٠

وتعظم تلك المنح والهبات والهدايا فى مواسم الحج حين يستقبل الأزهر القادمين لأداء الفريضة المقدسة ٠

وقد بلغ عدد المعوزين والفقراء من اللاجئين حينذاك سبعمائة وخمسين ، من الفرس والزنوج ، وأبناء الريف المصرى والشمال الافريقى كل فى رواقه ٠

وكان الأزهر مقصد من ينشدون الراحة من العاملين والتجار والجنود والفقهاء ، ومنهم من يؤمه طلبا للبركة والقربى الى الله حيث يذكر اسمه سبحانه وتعالى ٠

وتتزايد أعدادهم خلال الصيف استرواحا للنسيم المنعش فى أروقته وصحنه الواسع المفتوح ، وفى ليالى رمضان للذكر والعبادة فتزدحم مقاصيره وأروقته بمن يؤمونه من كل فج وقبيل ٠

ولم يعد الأزهر — كما يقول المقريزى — قاصرا على العبادة والصلاة ، والتعليم بل غدا قدسا للمتقين ، ومقاما للحاج فى طريقهم لأداء الفريضة ومنتجعا للفقراء والمعوزين والمتصوفين حيث يقومون باذكارهم ، وأداء شعائرهم ٠

وفى سنة ١٤٢٩ اختار السلطان برسباى الطواشى جوهر القنقبائى خازندار فأنشأ مدرسة صغيرة فى الطرف البحرى لجدار الجامع الشرقى عند باب السر للجامع الأزهر ، وتمتاز نوافذها العليا بأنها مغطاة بجص مفرغ خلفه زجاج ملون يضفى على المكان صورة رائعة عندما تشرق عليها الشمس أو يطل عليها القمر ، وقد عنى بزخرفتها عناية فائقة فوشيت بالزخارف وطعمت بالعاج والصدف والأبنوس فغدت تحفة رائعة ، وأنموذجا رائعا للعمارة المملوكية وتعد قبتها أصغر قبة فى مصر بعد قبة المدرسة القاصدية ، وفى وسط هذه القبة دفن القنقبائى صاحبها ومنشئها ٠

وفى عهد السلطان برسباى وخلفائه دهم الوباء مصر الى جانب بلايا أخـــرى فلاذ الناس بالأزهـــر لاجئين ومصـــلين وداعين ، وفى سنة ١٤٤٦ م ، جدد بناء الأزهر مرة أخرى ، وأعيد طلاء أبنيته وزود بالهبات والعطايا اعانة للفصول المعدة لتدريس الشريعة ·

وفى سنة ١٤٦٨ ، أصبح قايتباى سلطانا وكان حاكما قديرا ، وكان برسباى قد ابتاعه بخمسين دينارا ذهبيا وهو فى العشرين من سنيه ، ثم انتقل الى خدمة جقمق فحرره ووهبه حصانا ، ومنح لقب الأمير ، وغدا وتحت امارته عشرة فرسان ، ثم أصبح قائدا لألف مملوك من الفرسان ثم قائدا للحرس المملوكى ، فأتابك للعســكر وأخيرا وقد بلغ الخمسين من العمر سنة ١٤٦٨ ، أصبح سلطانا · فانتقل الى سكنى القلعة ، وكان من قبل يسكن قريبا من سوق الماشية ، وأصبح فى خدمة زوجـه الأميرة فاطمة عدد من الطواشى ، ونخبة من السيدات ، وتوفى قايتباى سنة ١٤٩٥ ، بعد سنوات ثلاث من اكتشاف كولمبس أمريكا · وكان حاكما قديرا الا أن سنواته الأخيرة قد غامها الأسى بسبب ماناش مصر من حروب متوالية ، وما حل بها من وباء · وكان قايتبـــاى من هواة الفروسية والصيد ولعبة ـ البولو ـ ولكن هوايته الكبرى كانت العمارة ، فأنشأ كثيرا من المساجد والمدارس والقلاع والطرق ، ومن آثاره القائمة ـ قلعة قايتباى ـ بالاسكندرية حيث كانت منارة فاروس احدى عجائب الدنيا السبع من قبـــل · وفى القاهرة مسجد ومقبرة قايتباى ، وقد ألحق بها زاوية لجماعات الصوفية ·

وعندما اكتسح الوباء مصر سنة ١٤٧٧ · قام بالكثير من الاصلاحات المهمة تقربا الى الله ، ويقص ـ ابن اياس (١) ـ ان : السلطان امتطى صهوة جواده قاصدا الأزهر بصحبة العديد من الأمراء · حتى اذا أم المسجد بصحبة عدد من الفقهاء أصدر قرارا باجراء ما يلزم من اصلاح وترميم ، ومنح اللاجئين والمقيمين به من المعوزين ، رغم ما كان من وباء جائح · وأقام قايتباى على هذا العمل ، ابن تاجر الرقيق الذى ابتـاعه مقابل خمسين دينارا من العملة الذهبيـة ، ويبـــدو أنه كان على ثراء عظيم اذ تبرع بخمسة عشر ألف دينار من ماله الخاص لاتمام هذا العمل ·

وتصور اللوحة المحفوظة بمتحف الفن العـربى بالقاهرة ، هذا البرنامج الذى أعد لتجديد المسجد عامة ، واقامة منـــارة جديدة الى اليمين من البوابة الكبرى ، وبناء رواقين للمجاورين ، يقول فيها :

---

(١) تاريخ المماليك ص ١٣٨ ـ ١٥٣ · (٨٧٢ ـ ٩٢٨) الجزء الثالث ص ١١٧ ، ١٣٣ ، ٢٦٦ ·

« أمر بتجديد هذا الجامع سيدنا ومولانا السلطان الملك الأشرف قايتباى على يد الخواجة مصطفى بن الخواجا محمود بن الخواجا رستم غفر الله لهم بتاريخ شهر رجب عام احدى وتسعمائة ، وقد صرف الخواجا رستم على هذه العمارة من ماله الخاص ، وبلغ مقدار ما صرفه نحو خمسة عشر الف دينار »

ويبدو مما كتب أن قايتباى كان أكثر اهتماما بالأزهر عن غيره من المساجد وقيل انه كان يقوم بزيارته متخفيا لحضور الصلاة ، وليسأل الناس عما يرون من ادارته للأمور ، فلما وقع مريضا فى دمشق عام ١٤٧٧ أخذ الشيوخ والأئمة وفقهاء المذاهب الأربعة فى تلاوة البخارى ، ووزعت الصدقات على طلاب الأزهر ، حتى اذا وافته المنية سنة ١٤٩٥ م (٩٠٧ هـ) وخلفه ابنه الناصر ، لم يكن هو أو غيره على مستوى المسئولية والأحداث الجارية حتى ولى السلطنة قانصوه الغورى ، وقبل أن يلى الحكم بسنوات ثلاث حدث أن اتخذ فاسكو دى جاما طريقه عام ١٤٩٧ حول رأس الرجاء الصالح وأصبح طريق التجارة الأوربية الى الشرق البعيد وفقدت مصر ما كانت تجبيه من عوائد المرور مما كان له أبعد الأثر على الظروف الاقتصادية فى مصر ٠

ولم يكتف البرتغاليون بذلك بل اغاروا على ثغور البحر الأحمر ، وفيما بين سنة ١٥٠٢ و ١٥٠٦ حاول الغورى أن يزيحهم عنه بلا حدوى ، ومع ما حل بمصر من هزائم فى الخارج وخلل اقتصادى فى الداخل ، استطاع أن يقوم ببعض الانجازات الداخلية التى كتبت له فى سجل الخلود ، فمازلنا نذكر المئذنة الجديدة للجامع الأزهر ، وهى مئذنة ضخمة ، يصفها ابن اياس (١) ، بأنها منارة ضخمة ذات رأس مزدوجة ، وهى عالية امتازت بتلبيس القاشانى ببدن دورتها الثانية ، كما امتازت بوجود سلمين فيما بين دورتيها الأولى والثانية لا يرى الصاعد فى أحدهما الآخر ، وهى احدى النكت فى العمارة الاسلامية » ٠

وفى بداية القرن السادس عشر ، كان هناك ثلاث دويلات كبرى فى الشرق الأوسط : أولاها سلطنة الغورى بمصر وفلسطين وسوريا ٠ والثانية للشاه اسماعيل فى فارس زعيم طائفة الشيعة ، ثم السلطان العثمانى سليم فى القسطنطينية ، ويحكم آسيا الصغرى وبعض البلقان ٠

---

(١) Creawell (Egypt) V. I, pp. 39-40. The Pendentwes of the dame are like those fn mousoleum of the same period.

وفى سنة ١٥٠١ أوقع السلطان سليم العثمانى الهزيمة بالشاه اسماعيل الصفوى فى فارس ، وبعد خمسة عشر عاما اجتاح سوريا ، واستطاع آخر سلاطين المماليك السلطان قنصوه الغورى أن يعد جيشا عام ١٥١٦ للدفاع عن بلاده ، من عشرة آلاف فرقة من فرسان المماليك ، وخيالة العرب على خيولهم المطهمة ، والبدو من حلفائه فوق جمالهم ، والطبالين والزمارين وحاملى البيارق فى موكب حافل وصناديق المال على ظهور الجمال ، يحرسها الصيارفة ، والمئات منها تجر العربات محملة بمعدات القتال والذخائر ، الى جانب الفيلة والجمال والبغال تحمل التموين ، وفى اثرها الحدادون والنجارون وعمال البناء وكل ما يلزم المعسكر من معدات ٠

ولم يكن هذا الجيش الكبير ، بما كان معه من قوات سورية غير خيلاء باطلة ٠

وكان اللقاء فى مرج دابق (١) على مسيرة يوم من شمال حلب ، وكان الغورى فى الثامنة والسبعين من عمره ، لم يتحمل ارهاق المعركة ، فوقع ميتا ٠ والجيش فى مسيس الحاجة الى قيادته فوهنت معنوياته ، وكان نصرا مؤزرا للعثمانيين ، انحدروا منه الى سوريا فى طريقهم الى مصر ، وخلفه على القيادة ــ طومان باى ــ فالتقى بالعثمانيين، وهزم فى موقعة ــ الريدانية ، ثم قبض عليه وشنق ، وعلقت جثته على باب زويلة ، وهى ما تعرف الآن باسم ــ بوابة المتولى ــ وغدت مصر ولاية عثمانية ، سنة ١٥١٧ م (٩٢٣ هـ) ٠

ولم ينل الازهر ضر كبير ، لمكانته عند العثمانيين حتى غدا من بعد منارة العالم الاسلامى ٠

---

(١) سنة ١٥١٦ م (٩٢٢ هـ) ٠

مصر تحت الحكم العثمانى

١٥١٧	السلطان سليم يفتح مصر
١٥٢٠ ـ ١٥٦٦	السلطان سليمان القانونى اعادة تنظيم الدولة وانشاء الديوان
١٦٩٠	وفاة أول شيخ للأزهر
١٧٠٨	التنازع حول تعيين شيخ الأزهر
١٧١٧	عثمان كتخدا يبدأ تحسين الأزهر
١٧٥١ ـ ١٧٥٢	عبد الرحمن كتخدا وتوسيع مساحة الأزهر
١٧٦٩ ـ ١٧٧٣	على بك الكبير يستقل بمصر عن الدولة العثمانية
١٧٧٣	أبو الدهب يستعيد السيادة العثمانية
١٧٧٥ ـ ١٧٩٨	ابراهيم ومراد يستأثران بشئون مصر الداخلية
١٧٩٨	نابليون يغزو مصر

الفصل الرابع : الأزهر في العصر العثماني .

السيادة العثمانية :

عندما احتل الجيش العثماني القاهرة ، قتل عشرة آلاف من المصريين وأحرق العديد من البيوت ، وقطعت رؤوس عشرة آلاف من المماليك الشركس ، والقيت بأجسادهم الى النيل بينما علقت رؤوسهم في جزيرة الروضة حتى يراها الناس جميعا ٠

ومع ما كان من عسف العثمانيين بمن تصدوا فقتلوهم ، فانهم لم يمسوا اللاجئين الى الأزهر بسوء اكبارا لقداسته ٠ كما يقول ابن اياس (١) ٠

وقد سطوا على القلعة وبيوت الأمراء والسلاطين والمساجد والزوايا والأربطة من النفائس والذخائر ، والكتب حتى أعمدة الرخام وكل ما ركب فيها ٠

ونقل الى الاستانة المئات من العلماء والمقدمين والقضاة وكل من له نفوذ أو امرة في مصر ٠

وأمر بجمع رجال الحرف والصناعات ، فجمع منهم حوالى ألف وثمانمائة صانع ونقلهم الى الاستانة ليذيعوا الصناعات الدقيقة بها ، وقيل انه قضى بذلك على نحو خمسين صناعة ٠ مما كان سببا في تدهورها ٠

وجمع من تجار خان الخليلي ، وغيرها من الأسواق الأخرى وجردها من كل ما فيها وبعث بها وبأصحابها الى الاستانة ٠

وقضى السلطان سليم ثمانية شهور ، كان يؤم خلالها الأزهر ويؤدي صلاة الجمعة ، وأغدق عليه المال والهبات ، وصان مقتنياته ومكتبته ونجت مما حل بغيرها ٠

وبقيت للأزهر مكانته واكباره حتى بعد أن ارتحل السلطان سليم من مصر عائدا الى مقر حكمه ٠ وفيما بين سنة ١٥١٨ وسنة ١٥١٩ ، أصبح الأزهر مقاما للقراءات الدينية والعبادات والمواسم ٠ والتبرك ٠

---

(١) ابن اياس : الجزء الخامس ٠ *الفتح العثماني* ص ٠ ص ١١٥ ـ ١١٧ ٠

وعندما انتاب المرض الوالى العثمانى بالقاهرة قام بتوزيع الصدقات على طلاب الأزهر ، وعتق بعض الارقاء الى الله وبركة ٠

وجاشت مصر بالأحداث خلال الحكم العثمانى ، نكتفى بذكر بعضها ، من قبيل التعميم دون التخصيص ٠ ففى عام ١٥٢٠ خلف السلطان سليمان القانونى السلطان سليم على الحكم ، وكان من أعظم سلاطين الدولة العثمانية ، فحين عجز الوالى عن ادارة شئون مصر بعث بصهره ووزيره ابراهيم ليسوس أمورها ويعيد النظام اليها ، ومع ما شغل به من حروبه مع البرتغاليين فى البحر الأحمر ، فقد أعاد تنظيم ملكية الأرض ، وسن قانونا بتنظيم الادارة والحكم فى مصر ٠ وكانت مصر ولاية من بين ثلاثين ولاية للدولة العثمانية تخضع مباشرة لحكم السلطان العثمانى فى استامبول بسلطانه المطلق ، وان خضع لتعاليم الاسلام ، وبما أنه كان يحكم امبراطورية فسيحة ، فقد فوض الحكم الى مندوبيه ومنحهم نوعا من الاستقلال الذاتى ٠

ولم يبذل العثمانيون أية محاولة لتمثل تلك الشعوب داخل امبراطوريتهم وبقى لكل ولاية شخصيتها الذاتية ٠ وفى مصر عملوا على كسب مشاعر الجماهير وولائهم بالحفاظ على تعاليم الشريعة الاسلامية ، ورعاية رجال الدين وعلمائه وزوايا الصوفية ٠ ولما كان وادى النيل بمنأى من السلطة المركزية للدولة ، فقد اختطت لادارتها ثلاثة مبادىء :

أولها : الباشا وهو نائب السلطان ، ورأس الادارة العثمانية المحلية ، يتلقى أوامره من السلطان ويوافيه كل عام بالجزية السنوية دون تدخل الحكومة المركزية فى جبايتها ، ولم تكن وقفا على المال وحده ، بل تتضمن امداد السلطنة بما فيها من مواد الغذاء كالأرز والسكر ، والخضر والفواكه والعطور والتوابل ، وغير ذلك مما تحتاجه السلطنة ٠

والثانى أن يحكم الباشا الولاية عن طريق مجلس يعرف بالديوان يرأس الباشا اجتماعاته ٠ وحتى لا تراوده نزعة الى الاستقلال ٠ لا تمتد ولايته لأكثر من عام واحد ، ليخلفه غيره ، وليس له ما لغيره فى الولايات من مال أو مرتبات عينية ، ومع ما كان له من مكانة لم يكن يسمح له بحضور جلسات المجلسين الاستشاريين اللذين أقيما فى القاهرة ٠ وان كان له أن يرسل مندوبا عنه يعرف باسم الكتخدا أو الكخيا ، ولم تكن عضويتهما قاصرة على رؤساء الادارات وأمراء المماليك بل يضمان رؤساء المذاهب الأربعة وعددا من كبار المشايخ ، وهم فى انتمائهم الى الأزهر ، يضفون عليه نوعا من النفوذ السياسى المؤثر ٠

والعامل الثالث فيما احتذاه العثمانيون للحكم فى مصر ، أنهم اتخذوا من المماليك امراء للأقاليم ، كما كانوا قبل الفتح العثمانى ، تدق لهم الطبول وترفع لهم البيارق ، وكان منهم أربعة وعشرون أميرا للأقاليم والادارة المركزية ، ويعرف حاكم الأقاليم باسم السنجق • فكانوا أشبه بأمراء الاقطاع بما لهم من مزايا اقليمية ومالية • وكان منهم من بعد شيخ البلد وأمير الحج ، ورغم ما كان من تبعيتهم للدولة العثمانية وهيمنتها ، فقد عدوا ولهم نفوذهم ومكانتهم فى الأزهر خلال القرون الثلاثة التالية كما كانوا من قبل أبان الغزو الصليبى والمغولى •

وقد اتسم الحكم العثمانى فى بدايته بالقسوة والملمات الجائحة وصراعات أمراء المماليك مع بعضهم البعض خلال القرون ، وان حفلت الحقبة الأخيرة من القرن السابع عشر بنوع من الرخاء فاتسعت القاهرة وامتدت حتى كان الطواف بها يستغرق يومين • فكان على حافة النهر فى بولاق قرابة ألف من القوارب النهرية الراسية •

وأخذ الثراة من التجار يقلدون المماليك فى اقامه القصور الفارهة والمساكن الفاخرة •

ويصف زائر طاف بالقاهرة سنة ١٦٨٦ :

« ان القاهرة الكبرى ، وكان الأتراك يسمونها (الكبر) تعد أكبر مدن العالم تحيط بها أسوار تمتد نحو عشرة فراسخ ، بها سبع بوابات تطل على أربعة وعشرين ألف شارع وتضم اثنين وعشرين ألف جامع • مما أشاع فى جوانحنا نوعا من الغبطة لرؤية تلك المدينة حين تتطلع اليها من عل فترى الدور وقد امتدت اسطحها مستوية على سواء ، والعديد من المساجد قائمة فى وقار ، يبهج النظر ، وان كانت الطرق ضيقة ورديئة ، ودور العامة من الخشب ، وان كانت المساجد رائعة البناء لا تقل عنها روعة بيوت الأثرياء ــ تطل الشمس من نوافذها فتشيع فيها الدفء ، مموهة بالطلاء المذهب محلاة بكل ما يبهج من حلى وزينة فاخرة » •

المنح الدراسية فى العصر العثمانى :

عندما زار ليون الافريقى Leon L'Africain مصر خلال القرن السادس عشر ، كتب : يوجد بالقاهرة عدد لا يحصى من المعاهد رائعة البناء عظيمة المساحة فى شتى مناحى القاهرة وأقسامها ، وان كان العثمانيون لا يتكلمون لغتهم التركية ، فان اكبارهم للاسلام وحاجتهم الى من يديرون دولتهم

ويرعى قضـــاياهم الشرعية ، قد حملهم على الحفاوة بتلك المعـــاهد والاكثار منها ٠

وقام العثمانيون بتعيين قاض للقضاة ٠ اعتمد على اعوانه من المصريين في ادارة دور القضاء ورئاسة جلساتها واصدار أحكامها وفقا للمذاهب الأربعة للسنة لا في القاهرة ولكن في شتى الاقاليم ، كما كان هناك مفت في كل من الاقاليم الكبرى يقدم الفتوى الشرعية في كل ما يعن من أمور ، وغدا للدراسات الاسلامية مكانها القمين بها للحفاظ على الشريعة ٠

فشريعة الاسلام المقدسة كانت بمثابة العمود الفقرى للحكم العثمانى ولا يتسنى الالمام بها دون الالمام باللغة العربية ، فالقرآن الكريم ، وكل ما يتصل بالشريعة قد دون أصلا باللغة العربية ٠ وقام الأزهر بالقاهرة والمعاهد الدينية السنية في دمشق وطرابلس ، وحلب ، باعداد العلماء ، والقضاه ، ورجال الافتاء ، من المتفقهين الأجلاء في العلوم الاسلامية وعلوم الشريعة . وشغلوا مناصب القضاء في كافة مناحى الامبراطورية العثمانية ، وهى مناصب لها أهميتها الكبرى وتوقيرها العظيم ٠

وكان من رجال السلطة هؤلاء مع القائمين على المسجد ورجال الوعظ، والمعلمين رعيل الثقافة والعلم حينذاك كما كان أضرابهم من قبل ، فهم جماعة العلماء ، ومفردها عالم ، وتعنى صاحب المعرفة والملم بها ٠ وكان ما حظى به الأزهر من اكبار وتقدير وتسنمه تلك المكانة الرفيعة خلال الحكم العثمانى لما كان لتلك الصفوة من شيوخه وخريجيه من مكانة في قيادة الأمور وادارتها في القاهرة وفى غيرها من الأقاليم ، فما من أمر يجرى بداية من شئون الكليـات والمعاهد وتعيينات الخـريجين ، وتقـرير المنح والهبات واعاشة الطلاب الا وكان لشيخ الأزهر الرأى الأعلى فيه ٠

ولما كان لرجال الدين القيادة العليا والتوجيه المؤثر على الجماهير ، وما كان من رعايتهم والدفاع عن مصالح المقهورين والمظلومين من العمال والفلاحين ، كان على المماليك أن يستمعوا لهم ويلبوا مطالبهم ٠ ومن مأثورات ما قيل عن مملوك عرف أنه من أسوئهم قسوة وظلما ، ولكنه يبجل العلماء ويجلهم ، ويســـتمع اليهم ويتقبل شفاعتهم ، في ايمان وصـــدق غامر بالاســـلام ٠

وثمة مثل من هذا القبيل يفسر كيف كان القائمون بالدفاع عن حقوق العامة بالطرق المشروعة ٠ وذلك عندما تفاقمت الضرائب ، ولجأ الصبية الى البادية ، أو نزحوا الى القاهرة حيث يجدون ما يقتاتون به من الجراية التى تعرف لطلاب الأزهر ، واحتج جامعو الضرائب على ما حدث

بأن الأرض لا تجد من يقوم بزراعتها ، ولم تغل ما يكفى ، وحول الأمر الى العلماء للفتيا وابداء الرأى ، وكان الرأى : أنه طالما أن الفلاحين لا يملكون الأرض ، وليست من أرض الخراج ، وانهم يعملون فيها مأجورين فليس عليهم من وزر اذا ما تركوها واذا نزح أحدهم الى القاهرة ليقيم فيها فله كل الحق فيما يختار ، وأى اجراء يتخذ ضده باطل ، لا سيما اذا كان سعيه الى القاهرة لطلب العلم وحفظ القرآن كأى طالب من طلاب الأزهر ·

الا انهم رغم ما ظفروا به من علم وما كان من حفاظهم على العدالة والدفاع عنها ، كانوا مقلدين أكثر منهم مجددين عاكفين على التراث دون ان يضيفوا اليه جديدا · وهناك العديد من الأمثلة التى تصور كيف كان العلماء حينذاك يخشون التجديد أو الاجتهاد ، ففى بواكير القرن السادس عشر قدم ببعض النساك الى الأزهر من اليمن وجاءوا معهم بالقهوة ، لتساعدهم على السهر ، فأفتوا بتحريمها كما أفتوا من بعد بتحريم التدخين لاضرارهما بالصحة ومضى رجال الشرطة ، يطوفون بكل منحى من المدينة ثلاث مرات فى اليوم تنفيذا لرأى العلماء فاذا أمسكوا بمدخن أجبروه على مضغه ·

وفى عام ١٧١١ جاء أحد الدعاة يدعى ـ واعظ الروم ـ واتخذ مكانه للوعظ فى مسجد المؤيد ، وأقبل عليه المستمعون واكتظ المسجد بهم وأفتى بتحريم التضرع الى قبور الأولياء وتذييل المشاهد بقطع من القماش ، أو حتى اقامة مشاهد للموتى ، أو تقديم النذور من المآكل أو غيرها ، ورأى بعض شيوخ الأزهر منعه ، وأصدر الباشا أمره بذلك وأن يمنع من الوعظ فى القاهرة رغم التفاف الجماهير حوله واحتجاجهم على منعه ·

ولم يكن لهؤلاء الجامدين من العلماء دور فى تجديد بناء الأزهر فى العقد الأخير من القرن السادس عشر ، وتم تجديده · وزيدت كميات الطعام التى توزع على الطلاب والمعوزين وفيما بين عامى ١٦٠٥ و ١٦٠٧ ، قام الباشا ببناء مقام السادة الحنفية على أحسن ما يكون بهاء ورونقا ·

شيخ الأزهر :

ومن المحتمل أن يكون تعيين شيخ للأزهر قد تم فى نهاية القرن السابع عشر ، وتدل المصادر المدونة أن الشيخ عبد الله القرشى كان أول المرشحين للمنصب ، ولم يكن مما يشترط لتعيينه أن يكون من العلماء ، حتى اذا صدر القرار بانشائه أصبح الأمر فيه للعلماء ·

ويقرر ـ المؤرخ محمد عبد الله عنان ـ أن منصب شيخ الأزهر قد أنشىء خلال حكم السلطان سليمان القانونى ، فمن المصادر العديدة المحفوظة

ما يدل على أن ـ الشيخ محمد عبد الله القرشى كان أول المرشحين لمل‌ء المنصب · ولم يكن يشترط في اختياره أن يكون من العلماء ، فلما أنشىء المنصب كان مما يشترط في اختياره أن يكون من العلماء ، وباختيار العلماء · فعندما يعقد الباشا إجتماعاته ، كان من حضورها شيخ الأزهر ، وان شاغله كان الشيخ ابراهيم محمد البرماوى المتوفى سنة ١٦٠٤ قبل الشيخ القرشى ، وان لم يكن هناك ما يدل على ذلك من المصادر المعروفة ·

فعندما توفى الشيخ القرشى سنة ١٦٨٩ أو ١٦٩٠ ، شغل هذا المنصب الشيخ محمد النشرتى خلفا له ، بعد ذلك بثمانية عشر عاما وكان شيخا للمذهب المالكى ، وحدث جدل عنيف حول من يخلف الشيخ النشرتى · وقامت معارك عنيفة بين أصحاب النفوذ فى القاهرة والمتعصبين من طلبة الأزهر ، ففريق تشيع للشيخ أحمد النفراوى ، وآخر تعصب للشيخ عبد الباقى الكيلانى ـ كما يروى الجبرتى ـ واشتد الخلاف وكان ان جاء أنصار النفراوى مسلحين بالبنادق ، قادمين من مدرسة أقبغا وأثاروا شغبا عنيفا جرح فيه عدد وقتل عشرة طلاب وقد حطموا بعض قناديله حتى تدخلت قوات الأمن فأجلتهم عن المسجد وحملت المعتدين الى السجن ، وحددت اقامة الشيخ النفراوى ببيته · ثم اختير الشيخ عبد الباقى الكيلانى شيخا للأزهر ·

وخلف الشيخ الكيلانى شيخان اختيرا لثرائهما ، وكان ذلك استثناء مما يتبع : أولهما : الشيخ محمد شنن ، وكان أعظم رجال عصره ثراء وجاها يمتلك العديد من الذهب والفضة والضياع الى جانب تجارته الواسعة واستثماراته الكبيرة ، يقيم وأسرته فى قصر منيف واسع الارجاء يطل على النيل في بولاق يحرسه عدد من المماليك ويقوم على خدمته عدد من الأرقاء ، وثانيهما : الشيخ عبد الله الشبراوى ، لا يقل عنه ثراء · وقد اتخذ لنفسه قصرا أقامه فى الأزبكية لا يقل عن قصر صنوه سعة وفخامة ·

وعلى النقيض منهما كان أحد علماء الأزهر القائمين بالتدريس ، يغدو الى حلقة دروسه راكبا حمارا ، فلما مات الحمار لم يكن يملك ثمنا لآخر ، فكان يقطع الطريق من بيته الى الأزهر مسافة ميلين ونصف الميل كل يوم · ذهابا ومثلهما ايابا ·

وكان أكثر علماء الأزهر من هذا القبيل فقرا وزهدا ، وهبوا انفسهم للعلم والتعليم ، وقد غلبت نزعة صوفية سادت حينذاك · وكان لها تأثيرها البالغ على حياة الأزهر لا يفوتنا أن نشير ونعرض لذكرها · فى صدد الحديث عن الأزهر ·

تاثير حركة التصوف :

عندما يسود الظلم والفقر وتعصف الأوبئة والمجاعات بالناس ، فانهم يلوذون بالآخرة عوضا عن الدنيا ، ويجدون من الراحة والصفاء ما يغنيهم عن لغب الحياة وأوضار الظلم ، ويذهب آخرون فى الدراسة والتفقه فى الدين ما يضفى عليهم الراحة والهدوء والتأمل قربى الى الله ، مؤمنين بأن القسوة والظلم قدر مكتوب ، وعليهم أن يدينوا بالطاعة لمن قدر لهم أن يحكموهم ، مما جعلهم آكثر قربى منهم وظفروا بحدبهم ورعايتهم وبرهم طالما دان الناس لهم ايمانا بما يفتون ٠

وقد ذهب كثير من الصوفية الى أن الخلاص رهن بالزهد وحياة العزلة فى الزوايا عاكفين على الصلاة والعبادة مؤمنين بأنهم ظفروا بالحظوة عند الله ٠

وهو ما يشير اليه الدكتور توفيق الطويل فى حديثه عن عدد من المتصوفة ونفوذ شيوخ الطرق ، فيقول :

(حفلت مصر ابان العصر العثمانى بفرق المتصوفة وطوائف الفقراء ، واكتظت الشـــوارع بمواكبهم ، والبيوت بولائمهم والمســـاجد والزوايا باجتماعاتهم ، وانتشر الشـــيوخ والأتباع فى الريف والحضر ، وتغلغل نفوذهم فى المدن ٠ وشاع فى الأقاليم والقرى وامتد سلطانهم الى مختلف طبقات الشعب ، وأقام فى صدورها عرشه وتسرب الى قصور الحكام فعبث واستهان بالرأى العام فتخطى أبسط مبادىء العرف ، واستعلى على الدين فاستباح الخروج على قواعده وتعاليمه ، وبذلك أضحى الفقراء فى مصر ابان هذا العصر فوق قواعد الدين ومقتضيات العرف وقوانين الدولة ، وكانت مصر دولتهم فى الحياة الدنيا ، وان ادعوا بأن الفقراء لا يملكون فى هذه الحياة الفانية كثيرا ولا قليلا) ٠

وبصدد العلاقة بالأزهر ــ يقول الدكتور الطويل :

(كان بعض المتصوفة فى رأى الكثيرين من العلماء موضع حب وتقدير ، وكثيرا ما احتفى الأزهر بعلمائه وطلبته بأهل التصوف الذين يفدون لزيارة مصر ، من امثال مصطفى البكرى وعبد الغنى النابلسى ، وقد أشار هذا فى رحلته الى مظاهر الحفاوة التى كان يستقبل بها بين العلماء وطلاب الأزهر ، وكثيرا ما كانوا يتوافدون على دار زين العابدين للتيمن به ويرحبون بزيارته لهم ، وانه ليصف موقفا رائعا ينطق بهذا الحب ، فيقول انه زار الجامع الأزهر فأقبل عليه العلماء والمدرسون وطلبوا اليه درسا تبركا وتيمنا ٠٠

وقال يصف مبارحته للأزهر ـ انكبت علينا جميع الطلبة والمجاورين هناك يقبلون يدنا ويطلبون الدعاء) ٠٠٠ (١) ٠

ويشير الى عدد (من المتصوفة كانوا يقيمون فى المساجد ، أو يتخذونها مقرا لتلاوة الأوراد وذكر الله ٠ وقد كان محمد المنير (٢) يعتكف كل سنة فى رمضان بالجامع الأزهر ويجتمع عنده الفقراء يقرءون كل يوم ختمة بالنهار وأخرى بالليل ، وثمة متصوف آخر اتخذ مقامه قريبا من بوابة الأزهر ، ليجد كل رعاية واكبار من كبار العلماء ايمانا منهم بولايته ٠ وكان الشيخ الحفناوى وغيره من العلماء يرحبون بأولئك المتصوفة عندما يؤمون الجامع الأزهر ، وقيل ان أحد هؤلاء المتصوفة ، فى زيارته للأزهر طلب اليه العلماء أن يلقى دروسه فى الأزهر تيمنا وبركة) ٠

ويذكر ما كان يلقاه من ترحيب ٠ فينشدون منه البركة والدعاء والشفاعة ، وعندما غادر الأزهر ، يقول :

(انكبت علينـــا جميع الطلبـــة والمجاورين يقبلون يدنا ، ويطلبون الدعاء مع زيادة الاعتقاد ، فأخذتنا هيبة ذلك الحال ، فصرنا نبكى وهم يبكون ، وندعو لهم حتى خرجنا من الجامع) (٣) ٠

وكان لبعض شيوخ الأزهر سمة من القداسة أضفاها عليهم البعض ونسبوا اليهم الكثير من المعجزات ٠ كما ذكر الجبرتى عن ـ الشيخ محمد الكيلانى الأشعرى من أنه : كان رجلا على سجايا رفيعة وفضائل جمة ، ينفق عن سعة ، ولا يدرى أحد مم ينفق ، فلم يكن يملك دخلا من مـال أو ضياع ٠ ولا يقبل عطاء من أحد يغنيه ، وكان اذا مضى الى السوق التف حوله الفقراء والمعوزون فيغدق عليهم المال من ذهب أو فضة ، فاذا مضى الى حمام قام بأداء كل ما يطلب منهم ٠

ولا ريب أن حب الناس له وما عرف عنه من تقوى قد أضفى عليه ما شاع عنه ، وأدانها شيوخ الأزهر وأنكروها علنا ، وأفتوا بضلالهـا كتابة ٠ وكان أكثر المتصوفة من النســاك الزاهدين ، متعصبين لكل ما يمارسون من طقوس وأكثرهم من المجاذيب المشـوشين فى أذكارهم وصراخهم وتمايلهم فى نشوة يفقدون فيها العقل والسلوك السوى ٠ ولعل ما كان منها لا يعود الى التسليم بصدقها قدر ما يعود الى فساد أقطابها وضلال شيخ الطريقة ومدى سلطانه على أتباعه وسيطرته عليهم حتى

(١) التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ص ١٨٠ ٠
(٢) المتوفى سنة ١٥٢٥ م (٩٣١ هـ) ٠
(٣) الطويل : المصدر السابق : ص ١٨٠ نقلا عن الحقيقة والمجاز للنابلسى ص ١١٣ ٠

ليجلدهم أو يشدهم بالفلقة ليضرب أقدامهم · وكان بين شيوخ الطرق من الحسد والتنافس والمعارك مما أدانها الأزهر وأفتى شيوخه بضلالها ، وانكروا عليهم تفسيرهم للقرآن ، وكل ما يخالف شريعة الاسلام ·

وان كان من الصوفية من نهجوا طريقا سويا في دراستهم للاسلام والأخذ بتعاليمه وكان منهم من تلقى دراسته بالأزهر فخلطوا دراستهم بتعاليمه مما حمل شيوخ الأزهر على نهج سوى فى احياء معالم الفقه والدراسات الاسلامية الجادة ، وان كان ذلك على حساب العلم والدراسات العلمية الجادة · وان بقى لهم فضلهم فى الحفاظ على الاسلام ودراساته السوية ·

السنوات الأخيرة من الحكم العثمانى :

بدأ الأمير عثمان كتخدا ـ عثمان كتخدا الجاويش القازدغلى ـ وكان على قدر كبير من الثراء والأريحية ، بدأ باقامة ثلاثة أروقة فى الأزهر ، فأفسح من سعة رواق الأتراك ، لاقامتهم ، وكان السلطان قايتباى هو الذى أقام بناءه من قبل · وقام ببناء رواق السليمانية لأبناء الأفغان وخراسان كما أقام زاوية للعميان الى الشمال الشرقى من حائط المسجد ، وزودها جميعا بحاجتها من المياه وأدوات الطهى ، وخلوة للعبادة ، وأربع حلقات للدراسة ، وأقام أعلاها ثلاث غرف لسكنى الطلاب ، وأجرى عليهم الرواتب والجراية اليومية ·

وتوفى عثمان كتخدا سنة ١٧٣٦ ، وخلفه ابنه عبد الرحمن فى عنايته بالأزهر ورعايته ، وكان يقيم بالجزيرة العربية لرعاية الحاج ما بين سنة ١٧٤٢ و ١٧٤٨ · وعاد الى القاهرة ليشغل مركز نائب الباشا التركى · وأوقف دخله الكبير على بناء المساجد للعبادة فى مصر وفى الجزيرة العربية، حتى دعى ـ صاحب الخيرات والأمير صاحب العمائر فى مصر والشام والروم ـ وكان له من حب الناس واكبارهم ما أثار حقد ـ على بك الكبير ، شيخ البلد · وكان يتطلع الى الاستقلال بمصر عن الباب العالى وحقق ذلك خلال الحرب التركية الروسية (١٧٦٨ م ـ ١١٨٢ هـ) فأعلن الاستقلال وقطع الجزية عن الباب العالى (١٧٦٩ م ـ ١١٨٣ هـ) · وحتى يتخلص على بك الكبير من الأمير عبد الرحمن كتخدا ، اعاده الى الجزيرة العربية وظل بها حتى سنة ١٧٧٦ ، وتوفى بعد عودته الى القاهرة بقليل ودفن فى المقبرة التى ابتناها لنفسه بالأزهر ·

وتعد توسعته للأزهر أعظم أعماله · وانتهى منها قبل عودته الى الجزيرة العربية منفيا فزاد فى عدد الأروقة خلف المحراب ، واشتملت على خمسين عمودا من الرخام تقو عليها خمسون بائكة وكلها منحوتة من

الحجر . أما أسقفها فمن الخشب الجيد ، وأقام محرابا ومنبرا جديدين وبابا فسيحا ، وفى رحبة أقام قبره تعلوه قبة معقودة ، وتركيبة من الرخام نقش عليها أسماء المبشرين بالجنة ، وأجرى على الطلاب حاجتهم من الأرز والدقيق ، واللحوم والدسم لطهيها . ومد منه الفقراء خلال شهر رمضان بحاجتهم منها . وان توزع عليهم حلوى الهريسة يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع .

والى اليمين من المحراب الجديد الذى ابتناه ، أقام منـــارة جديدة وصحنا صغيرا وزوده بحاجته من الماء وسقاية الناس ، وألحق به فصـلا لتحفيظ اليتامى القرآن ، والى جانب هذا الصحن كانت مقبرته ، وعلى امتدادها جنوبا بشرق من حائط المسجد الأمامى من رواق الصعايدة ، ليستقبل أبناء الوجه القبلى من مصر ، يضم كغيره حاجته من لوازم الماء ، والطهى ومكتبة وغرف الاقامة للطلاب بكل لوازمها من صناديق للثياب ، وعرصات للنوم تقيهم برد الشتاء .

وامتدت انشاءاته لتسع واجهة المسجد لتبدو فى رونقها قميئة بمدخله، أعاد بناء المدرسة الطيبرسية وعلى امتدادها المدرسة الأقبغاوية ، فغدا من البهجة وحسن الرواء . واتصل ما بين المدرستين على امتداد درب زانته مئذنة ثالثة تهدمت سنة ١٨٩٦ لتفسح المكان لتجديدات أخرى ، والى جوار المدرسة الطيبرسية أنشأ ميضأة ومدها بساقية ، ومن فوقها أقـام رواقا لطلاب العراق والهند ، كما جدد رواق السودانيين .

والى جانب ما أوقفه من مال لامداد الطـلاب بالطعـام ، وخصص لهم من المال لابتياع ما يعوز الاضـاة من زيت ، وزاوية أئمـة المذهب الشافعى والمذهب المالكى مثلهم فى ذلك مثل غيرهم فى محاريبهم الجديدة .

وغدا سخاؤه وما أنفق من مال ملحمة فريدة من ملاحـم هذا العصر الوسيط أضفت على الأزهر ما هو جدير به من مكانة . وحثت غيره من الأغنياء والموسرين على احتذائه فى الاغداق على الأزهر .

ومن قبيل ذلك أن الباشا التركى ، وقد اتخذ من الامير عبد الرحمن كتخدا مثلا وقدوة ، ففى ٢٤ ابريل سنة ١٧٨٠ قام بدهان جدران الأزهر وطلائها بالجص والحجـر المنحوت ، وجـرى على ذلك سـلاطين الشمال الافريقى وتركيا فأغدقوا على الأزهر أيما اغداق ، وعندما وقعت الحرب بين الروس والأتراك سنة ١٧٨٩ ، سأل الباشا العثمانى شيوخ الأزهر بقراءة الأوراد وأحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ابتغاء مرضاة الله ، وعندما بعثت استامبول بعض المال ليوزع على طلاب الأزهر ، أرسل شيوخ الأزهر تسجيلا كاملا بأسماء الطلاب الى الباشا ، فضاعف منحته .

وفى الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، غدت السيطرة فى مصر والسلطان لاثنين من المماليك الشراكسة : ابراهيم بك شيخ البلد ومراد بك أمير الحج . فاستبدا بالسلطة وسادت الفوضى وعصف البؤس بالناس ولم تر مصر أسوأ منهما استبدادا أو تنافسا ، وأسوأ ما كان أن التنافس والعراك امتد الى ساحة الأزهر بصورة مؤسية .

وفى سنة ١٧٧٨ بعد وفاة الشيخ أحمد الدمنهورى نشب الصراع على من يلى المنصب بين الشيخ العريشى والشيخ العروسى ، وانقسم الحكام والعلماء والطلاب شقين فاختار المجاورون من السوريين جانب الشيخ العريشى . والأتراك جانب الشيخ العروسى ، فلما حمى التنافس بين الفريقين وانقلب صراعا حادا بين الفريقين ، فقتل أحد مجاورى الترك ، وبعث الحاكم بالشرطة للقضاء على الفتنة ، وقبض على السوريين ، وأغلق رواقهم ، ومنعت عنهم الجراية ، ومنحت للأتراك تعويضا عما نالهم ، وحددت اقامة العريشى بداره ، داعين العروسى شيخا للأزهر ، وبقى التوتر قائما لسبعة شهور تالية لتعود الأمور الى مجراها الطبيعى .

وثمة حدث آخر ، سمة على ما ناش مصر من فوضى الاستبداد المملوكى ، اذ رأى أحد الأمراء المماليك أن يحرم مجاورى الشمال الافريقى من حقوقهم ، وحاول أن يقبض على شيخ تصدى للدفاع عن حقوقهم ، وأمر بسجن شيخين آخرين ، بعث بهما شيخ الأزهر ليفاوضاه فيما كان منه . وما كان من شيخ الأزهر الا أن أوقف الدراسة بالأزهر ، وأغلق أبوابه ، وأغلقت الحوانيت المجاورة هى الأخرى أبوابها . واعتلى الطلاب مآذن المسجد هاتفين غاضبين ، وفشل المماليك فى القضاء على الهياج واقرار النظام رغم قتل ثلاثة طلاب . حتى تدخل الشيخ السادات والباشا التركى وأخذا فى مفاوضة المماليك ، لوقف العدوان واقرار السلام .

ومن حسن الطالع أن أكثر ما كان من هذه الخصومة قد جرى بعيدا عن رحبة الأزهر وصحونه ، وان اتخذت صورة هياج ضد مظالم الحكام ، ومرة بعد أخرى كان شيوخ الأزهر يتصدون للدفاع عن حقوق المصريين ويقومون بالوساطة لدى أمراء المماليك لاحقاق مطالب المصريين .

وحدث سنة ١٧٧٠ ما ورى بهذه الصورة من الانفعال الذى يعرو الناس وغالبا ما يثيرها عندما اجتاح أحد نواب الحاكم ويدعى حسين باى على رأس قواته بيعا لأحد الدراويش ونهب كل فراشه واستولى على مجوهرات النساء ، وانثال الناس لانقاذ هذه الأسرة المنكوبة ، وانثالوا

رجالا ونسوة وأطفالا الى رحاب الأزهر واعتلوا مآذنه وهم يدقون طبولهم ، صارخين ، لاغاثتهم ، وادان أحد الشيوخ ما يحدث وصرخ قائلا :

« غدا صباحا نحشد الناس والجماهير فى بولاق ومصر القديمة وغيرهما من الأحياء ، لنغير على بيوت الأمراء لننهبها كما نهبوا بيوتنا ، لنموت شهداء أو ينصرنا الله » ٠

وفى مثل هذه الملمات ، كما يحدث عادة ، عندما يجمع الشيوخ والجماهير على أمر ، فان الأمراء ينحنون ويسلمون بالأمر الواقع ، ويناشدون الجماهير والعامة الهدوء والسكينة ٠ وكان على رأس الثائرين ، الدرويش ـ سالم الجزار ـ شيخ الطريقة البيومية اللائذ بمقام الحسين القريب من الأزهر ٠

ولم يكن غريبا أن يضج عامة الناس بالغضب ، حين يرون المماليك يعيشون فى قصور باذخة حوت كل ثمين مما يجلبونه من الخارج ، ويحتازون الذهب الوافر ، ويغدقون على أحفادهم بسخاء بالغ ٠

وكان ابراهيم ومراد قد غدت لهما قيادة المماليك فى مصر وأصبحا ولهما الأمر والنهى فى البلاد ٠ بعد أن وهن أمر الدولة العثمانية ، فى حاجة ملحة الى المال ، فقاما بفرض ضرائب جديدة ، واحتكار التجارة وابتزاز التجار ، واغتصبوا حقوق الفرنجة فى ممارسة التجارة الخارجية فبارت ، هذا الى جانب الفوضى التى ضربت أطنابها ، والمجاعات والأوبئة ، وبوار التجارة الخارجية بعد تحولها الى رأس الرجاء الصالح ، وخلل الأمن الذى عصف بالفلاحين ٠

ولم يجد الناس والمقهورون ملاذا لهم غير الأزهر ، وبقى رغم ما حل بالناس من تعاسة ، وما كان من معارك دامية بين المتصارعين من المماليك ، واحة العالم والمعرفة ، والدراسات الرفيعة حتى أواخر القرن الثامن عشر ٠ والمنارة الرفيعة فى مصر ٠

الحياة الثقافية فى مصر أواخر القرن الثامن عشر :

كان فى القاهرة خلال العصر المملوكى أكثر من سبعين معهدا تتراوح ما بين الكتاتيب الصغرى التى يقوم عليها فقيه أو اثنان وقلة من الطلاب يحفظون القرآن ويتعلمون القراءة والكتابة ، والمعاهد والكليات الكبرى التى يغمرها السلاطين بالهبات وما تحتاجه من انفاق ٠ الى جانب الحلقات فى المساجد العديدة للدراسة ، وقد نمت وازدهرت عندما كانت الدولة العثمانية فى أوج قوتها وثرائها ٠ ما لبثت أن انتابها البوار وانقطعت عنها الهبات والمعونة ٠ ولم يبق غير القليل منها عند نهاية القرن الثامن عشر ٠

يوالى دراساته العليا • وهو ما يقرره ـ سير هاملتون جب ـ والأستاذ ـ بوين Professor Bowen فيما يلى :

« كان الأزهر بلا ريب أبرزها واهمها ، (لموارده الكبيرة) في كافة البلاد العربية • ولعله كان أكثرها مددا ، واحفلهـا بالعلماء والفقهاء والطـلاب لا من أبناء القـاهرة ، وأقاليم مصر الأخرى فحسب ، بل من كافة البلاد الاسلامية ، لما كان له من مكانة رفيعة وغدت المعاهد الأخرى والمدارس ، توابع له وان تمتعت بنوع من الاستقلال الذاتى ، فيما تتلقاه من معونات ، الا أن شـــيوخها والقائمين بالتدريس فيها كانوا تابعين فى مناصبهم لتعاليم شيخ الأزهر ، وكان هناك حوالى عشرين مدينة من مدن مصر ، لها معاهدها الخاصة الملحقة بالمساجد تتباين فى عددها ما بين مدينة واخرى ، وكان شيوخها والقائمون بالتدريس فيها من أبناء الاقليم ، وان تلقوا دراساتهم بالأزهر ، اهمها معهد رشيد ومعهد دمياط ، ومعاهد دسوق ، والمحلة والمنصورة وطنطا فى الوجـه البحرى ومعهد طهطا فى الوجـه القبلى •

ولم يكن من شيوخ الأزهر خلال القرن الثامن عشر ، من ابناء القاهرة اصلا » •

وقد قل عدد المنح الدراسية أواخر العهد العثمانى عما كانت عليه فى بدايته ، ومما يشير اليه ـ ستانلى لين بول ـ أن الدراسة كانت قاصرة على النحو واللغة والخطابة ، وكان أكثرها حفاوة بالاهتمام الفقه والشريعة الى جانب قلة أقبلت على دراسة تاريخ مصر التى ينتمون اليها من غيرهم ، وأقل منهم عددا من أقبلوا على دراسة الطب والدواء والكيمياء والرياضيات والفلك • ومن قال منهم بأن الأرض تدور حول الشمس عد مارقا واتهم بالالحاد •

وغدت المنح الدراسية فى القاهرة اقليمية ، فلم يكن من أبناء مصر من يطلب العلم فى الخارج ، وكان كل ما يحظون به من معرفة ممن يصادفهم من أربابه فى حجهم الى مكة ، وكانوا قلة حفلت بدراسة العلم الغربى كما نرى من دراسة سيرهم ، وكانوا ممن ولدوا عام ١٦٨٩ ، أحدهم ـ أحمد ابن عبد المنعم الدمنهورى ، وقد نشأ طفلا فى احدى مدن الدلتا ، وبدأ دراسته بالأزهر صبيا ، وأبدى اهتماما بالغا بدراسة العلوم الاسلامية وأصبح حجة فى دراسة المذاهب الأربعة • وغدا وله حلقته الدراسية الى جوار المشهد الحسينى القريب من الأزهر ، وفى سنة ١٧٧٨ قام بالحج

واختير شيخا للأزهر بعد ذلك بخمس سنوات وشغل هذا المنصب حتى وفاته سنة ١٧٧٨ ، أقبل على دراسة علوم الحيوان والنبات والمعادن ، الى جانب بعض الدراسات العملية ، كتخزين المياه فى الآبار وأعراض المرض ومسبباته ، ومداواة لدغة العقرب ، وعلاج البواسير • وغير ذلك من وسائل العلاج الطبية • ومن كتبه الأثيرة : ــ حلية اللب المصون بشرح الجوهر المكنون ــ و ــ نهاية التعريف بأقسام الحديث •

وآخر من هؤلاء العلماء الأجلاء ــ الشيخ حسن الجبرتى ، والد المؤرخ المعروف عبد الرحمن الجبرتى ، تتلمذ على الشيخ محمد النشرتى شيخ الأزهر ودرس عليه المذاهب الأربعة • وألم بالفكر اليونانى على يد عالم من علماء الهند ، وألم ببعض العلوم الطبية والهندسية قبل وفاته سنة ١٧٧٤ ، ولعل أبرزها ما نلم به من حياته أنه آخر ولسنوات طوال فيما بعد ، من ألم بالفلسفة وعلم الفلك والهندسة ، وان قفاه ابنه المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى فى الحفاظ عليها من بعده فى شغفه بعلم الفلك •

وقد آمن أكثر الدارسين فى تلك الفترة ، بضرورة نقل ما درسوه من قبل الى من جاء بعدهم • فكانوا مقلدين أكثر منهم مبدعين ، لا يعنيهم غير اللفظ دون المعنى ، وكل ما كانوا يدورون حوله النص وشروحه والتعليق عليه ، دون التجديد والخلوص الى أفكار جديدة •

وظل مدارهم فى ذلك العصر الوسيط حول المتن ، ثم التعليق عليه وشرحه على الحواشى • وكان على الدارسين والطلاب أن يحفظوه ظهرا عن قلب • دون استيعاب للمدلول أو المعنى المراد •

تعمير المسجد الأزهر وتوسعته :

ازدحم ميدان الأزهر عند نهاية الحكم العثمانى بالحوارى الضيقة والحوانيت الصغيرة من حواليه والبيوت العالية التى يطلق عليها اسم ــ الربع ــ تطل عليه وتحجبه • وحول المسجد من الخارج حوائط عالية من الحجر تلف به وتفصل ما بين صحنه وأروقته عن زحمة الحوانيت وضجيجها •

وقد سميت البوابة الرئيسية التى أقامها كتخدا ــ بوابة المزينين ــ حيث درج الطلاب على حلاقة شعرهم لدى المزينين الذين يجلسون فى الممر الذى يفصل بين الباب الخارجى والباب القديم •

وفى خواتيم القرن الثامن عشر كان للأزهر ست مآذن انهارت احداها سنة ١٨٩٦ ، يصعد الأذان منها جميعا فى آن واحد وقد ازدانت جميعا بالفوانيس التى تزدهى بالأنوار فى الأعياد وطوال شهر رمضان •

وكان هناك سبع مزاول ، أربع منها على الجانب الأيمن من مدخل الصحن ، لتحديد موعد الصلاة ظهرا ، وثلاث لتحديد موعد صلاة العصر فى حينها · ومازالت مزولة منها قائمة وهى التى أهداها أحمد باشا سنة ١٧٨٤ ، وحين سأل شيخ الأزهر عما يدرس من علم الفلك والرياضيات ، أجاب بأن الشيوخ لا يملكون ما يبتاعون به تلك الأدوات ، وان كانوا يقومون بتدريس ما يكفى لتحديد مواعيد الصلاة والفصل فى المواريث · وكان أن منحهم الباشا مزولته ليثير لديهم الاهتمام بدراسة الفلك ، وكان شيخ الأزهر حينذاك هو الشيخ عبد الله الشبراوى ·

ومع ما كان من زلازل توالت ، فان الصحن الأساسى للمسجد لم يحظ بأى تجديد منذ العهد الفاطمى ، لا يحميه عريش عن السماء ، ويحيط به من جانبيه صف من الأعمدة الغائرة فى الأرض ، حتى كانت الاصلاحات والتوسعة فى البناء التى قام بها كتخدا ، مما سبق تناوله ·

وكانت اضاءة المسجد أمرا عويصا قبل أن يضـاء بالكهرباء ، وباستثناء المحراب ، يبقى صحن المسجد مكشوفا طوال الليل ، وفيما عدا شهر رمضان حين يحفى بالانارة ، يظلم المسجد بعد صلاة العشاء ، وكانت الفوانيس تعلق ما بين الأعمدة ، وزودها عبد الرحمن كتخدا بالفوانيس التى تنير المسجد طوال الليل ·

ومن معالم الأزهر البارزة ما كان من نظام الأروقة وهى جمع رواق ، وكل رواق مخصص لطائفة من المجاورين ، وعلى خلاف ما عليه نظام الأروقة السائد حتى اليوم فى النجف الأشرف ، وبعض الأماكن الأخرى ، كان الرواق فى الأزهر غرفا تعلو الصحن مزودة بكل ما يحتاجه المقيم · لكل طائفة رواقها الخاص بها تقيم كل أفرادها وكل من ينتمى اليها سواء كان مقيما بالرواق أو غير مقيم ، اذ أن انتماءه يضمن له الجراية المقررة من الخبز وغيره فضلا عن الأمن وكفالة الحماية ·

وكأن الشيخ الذى يشرف على الرواق ، من قبيل من يشرف عليهم من الطلاب ، يعاونه نائبه ــ النقيب ــ كما يدعى ، ويلتحق به أحيانا بعض للعلمين ، ويلحق بالرواق الكبير مكتبة يشرف عليها أمين ، وما يحتاجه الرواق من عمال وخدم يقومون بنظافة الغرف وادارة أنابيب المياه فضلا عن بواب يقوم على بابه ·

وفى الحوارى ، كما فى الطرقات الممتدة تقوم بعض الأروقة الصغيرة ، وتقف على الاقامة وحدها دون التعليم ، وأحيانا تخصص لخزن حوائج المجاورين دون اقامتهم ·

واذا كان المجاور أو الطالب ممن يقيمون بالمسجد ، فان هذه الأروقة

الصغيرة تخصص لحفظ حاجياتهم كصناديق الملابس ، وأغلب ما تكون اقامتهم في صحن المسجد ، حيث ينامون ليلا ، فاذا اشتد البرد لجأوا الى الرواق ، أو فى ركن من المحراب · على حصير يستعيرونه من المسجد · وعند صلاة الفجر يعيدون الحصير الى مكانه ، فاذا كان ممن يملكون فراء من صوف الغنم ، أو سجادة صغيرة ، فانه ينقلها الى الصندوق المخصص لحوائجه ·

وحيث يوجد في الأروقة الفسيحة موقد للطهى ، فانهم يقومون بطهى طعامهم على مواقد تستخدم الفحم النباتى ، فى أركان معينة من المسجد تبدو أشبه ما تكون بصالة الطعام ــ أو المطعم ــ كما تزود هذه الأروقة غالبا بأدنجانة ومغسلة للثياب ، أما الأروقة الصغيرة ، فانها تزود بمغسلة عامة ــ تسمى ــ الميضأة ــ خلف صحن المسجد من جانبه الأيسر ، وكان هناك ستة فناطيس تزودها بالمياه الجارية للاغتسال والوضوء · ومما يشترط على الطالب فى هذه الحالة حتى يكون له الحق فى الجراية أن يقضى بضع سنوات فى الدراسة ، وأن يجتاز الامتحانات المقررة · ويقوم بتوزيع الجراية من الخبز المسئول عن اقامة الطلاب · ويتم ذلك ما بين صلاة الفجر والضحى · أى حوالى الساعة العاشرة صباحا ·

وغدا المسجد لهذا موئلا للدراسة ــ معهدا ، أو مدرسة ــ ومكانا للتجمع ، وملجأ للعامة ، وغدت له مكانته الأثيرة فى تلك الفترة من أخريات القرن الثامن عشر ، بأدائه لتلك الخدمات النافعة ·

حياة الطلاب :

كان على الصبى الذى يلتحق بالأزهر خلال الحقبة الأخيرة من الحكم العثمانى أن يلم بالقراءة والكتابة وأن يحفظ على الأقل جزءا من أجزاء القرآن الكريم فى الكتاب أو فى غيره من الكتاتيب ــ جمع كتاب ــ الخاصة ، كما تتاح له فرصة الالمام بمبادىء الحساب على يد القبانى أو المساح ، فاذا اقترب من العاشرة حمله أبوه ، أو أخوه الأكبر الى الأزهر حيث يلتحق بحلقة من الصبية يقاربونه سنا ، هــذا اذا كان مقيما بالقاهرة ، فاذا كان من أبناء الأقاليم حمله أبوه على حمار ، أو مركب ومعه صرة ملابسه وسلة لزاده ، فاذا كان من أبناء شيوخ الأزهر ، فان أول ما يرنو اليه أن يخلف أباه فى منصبه ، بينما ينشد غيره من التعليم أن يكسب ما يقيم أوده فى وظيفة أو عمل ، أو للخلاص من التجنيد أو السخرة ·

ولم يكن السواد الأعظم من الطلاب غير أفراد عاديين قادرين على اثارة الشغب للحصول على الجراية ، وان كان هناك ما يبهج فى حياة

الأزهر ، وانه حافل بمن يشرفون عليه من أرباب الفكر النير والقوى الروحية ، مما طبع الطلاب بطابع الجد والعمل الدائب والسلوك القويم .

وكان لكثرة من الطلاب أقرباء في القاهرة ، أو من أهلها . فاتيح لهم أن يعيشوا حياة رضية ويقيموا في بيوت مريحة ، فاذا كان الصبى من غير أهلهـا ، وليس في قدرته اكتراء سكن فانه يعيش في تقشف أشبه ما يكون بالنساك ورهبان الأديرة ما لم يزوده أهله بالمال والطعام ، أو كان قادرا على نسخ الكتب ، أو لجأ الى الدروس الخاصة لمن ينشدها ، والا ما وجد غير الرواق يقيم فيه والجراية التى تجرى له ولأمثاله .

وكان بعض الطلاب يملك فروة من فراء الغنم يقتعدها نهارا وينام عليها ليلا ، ولما كان كثرة من الصبية ـ الطلاب ـ من الفقر بما لا يتيح لهم فراشا أو غطاء ، فانهم يفترشون حصيرا ، ويلتحفون بعباءاتهم فاذا كان الطقس حارا ، اختاروا النوم في الصحن دون العنابر أو الأروقة وكان الصحن هو المكان الذى يطهون فيه طعامهم ، ويقمرون خبزهم ، وعادة ما يكون الخبز مقددا ، فلا يأكلونه الا بعد بله بالماء ليطرى ، فيغمسونه في الخل ويأكلونه بالفجل والكرات ، وأنواع الخضر الأخرى كالسريس .

ويعانى الفقراء من الطـلاب من قلة التغـذية ، فينتـابهم الجرب والالتهابات الجلدية . ومن سقط الكلام أن نقول انه كان عليه أن يرقع ثوبه وأن يصلح مركوبه ، وأن يصـون رداءه من القمل ، وأن يغسله بنفسه ، وأن يطهو طعامه في المطهى المعد لذلك ، أو في مطهى الجناح الذى يؤويه ، أو على موقد الفحم النباتي في الصحن الخارجي ، وكانت الحياة لمثل هذا الطالب الذى ينحدر من أسرة فقيرة ، لاغبة مليئة بالرهق والمتاعب .

أما أبناء الأسر القادرة فانهم يمضون حياتهم في راحة ولين ، الى جانب ما كان يمده به أهله من حاجيات الحياة ، وكان من اليسير عليه أن يبتاع الحلوى والفاكهة من الحوانيت المجاورة ، فاذا لم يكن مقيما مع أهله ، فانه يكترى بيتا مزودا بالتدفئة وأدوات الطهى ، والغرف الكاسية بالسجاد وأسرة النوم المريحة . ويرتدى الملابس النظيفة ، ويشترى بعض الكتب ، وأدوات التدفئة .

وفي زيارة ـ الأستاذ أرمنجون ـ Arminjon ـ لطالب من هؤلاء في بيته ، شهد لديه سريرا من جريد النخل ، وصوانا لحفظ ملابسه واثنى عشر كتابا ، من المراجع ، وفراء خروف ، وزيرا للماء ، ومصباحا وحاجته من زيت الاضاءة ، ويتاح للطالب المقيم قريبا من القاهرة ، أن يأتيه زاده كل شهر ، فاذا كان من أبناء الصعيد ، يوافيه زاده كل ستة أشهر ، من الخبز الجاف (العيش الشمسى) والسمن والدقيق والجبن ،

والكشك والعدس والبصل · وزيت الاضاءة ، وآنية الماء ، ومقلاة اذا دعت الضرورة ·

ويجاز الطلاب خلال شهر رمضان ، ويمضى الطلاب ، الى منازلهم وأسرهم ، وحتى أولئك الذين يقيمون بالقاهرة ، فانهم يحتفلون بالمناسبات الدينية كمولد النبى (صلى الله عليه وسلم) فى بيوتهم ، وغالبا ما يعقدون قرانهم خلال تلك الفترة ، فاذا عادوا الى دراستهم بالأزهر ، تركوا زوجاتهم فى رحاب أهليهم ·

أما الطلاب الأجانب فان الطالب منهم يبقى فى الرواق الخاص بوطنه ، اذ يتعسر عليه أن يمضى الى وطنه ، فاذا انتهى من دراسته ، وهى أهم ما يحفى به فى حياته ، فانه يحتفى بها بدعوة زملائه الى حفل توقد فيه الشموع ، ويتطارحون الشعر ويحتسون القهوة ·

ويرتدى الطلاب العباءة والعمامة البيضاء ، أما سلالة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيضعون العمامة الخضراء ، ومساء الخميس من كل أسبوع يقصد الجميع حى بولاق فيمارسون ألعابهم وهواياتهم فى السباحة والمبارزة ويؤمون الضواحى لحضور الولائم التى تقام وفاء لنذورهم ·

وعندما يقضون صلاة الجمعة ، يمضى البعض لزيارة أصدقائهم ، أو يقصدون المقابر للترحم على موتاهم ·

واذا توفى أحد الطلاب ، فان أصدقاءه وأقاربه يضيئون الشموع فى السرادق المقام للعزاء ، فاذا توفى أحد الشيوخ عطلت الدراسة خلال أيام العزاء الثلاثة ، وأعلنت وفاته فى أرجاء المدينة ، ويشيع جنازته ائمة الأزهر ، ورجال الدولة ، ويؤم شيخ الأزهر صلاة الجنازة ، ويرثيه الشعراء وقوفا أمام جثمانه المسجى فى نعشه ، ويمضى الشيوخ والطلاب الى حيث كان يجلس فى حلقته لاحياء ذكراه · ويأخذون فى تلاوة القرآن بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع لأربعة أسابيع تالية ·

المعلمون وفصول الدراسة :

مما جاء فى الموسوعة الفرنسية ـ وصف مصر ـ فى خواتيم القرن الثامن عشر ما يلى :

> « أن الصبية الذين يتمون دراسة المرحلة الابتدائية وينشدون تكملة تعليمهم ، بعد أن الموا بالكتب المقررة وقصدوا الأزهر ذلك المسجد الكبير ، ليستمعوا الى محاضرات الشيوخ وشروحهم ، وقد غدا الجامعة الفريدة فى مصر يضم حوالى

اربعين أو خمسين عالما منهم خمسة او ستة من الاعلام المشهورين » .

ولم يكن هناك ما يجيز للطالب الالتحاق بالأزهر فان الطالب ما أن يلم بالقراءة والكتابة ويحفظ على الأقل بعض سور القرآن فى أحد الكتاتيب فى قريته أو اقليمه ، ليقضى سنة أو سنتين ليلم بتفسير القرآن واللغة العربية حتى يجاز له الالتحاق بدراسة عليا .

وغالبا ، ما يختار الطالب ، خلال هذا العصر الوسيط ، الدراسة التى تروقه حتى اذا بدأ القرن الثامن عشر ، كان للطالب أن يؤم دراستين أو أكثر من فصول الدراسة كل يوم ، وكان النابه من الطلاب يوافى دراسته اليومية على الصورة التالية :

الساعة الثالثة والنصف حتى الرابعة صباحا :

الوضوء وأداء صلاة الفجر .

الساعة الرابعة بعد الظهر :

دراسة الفقه ، والحديث والتفسير ، يتناول بعدها حصته من الجراية .

الساعة السادسة مساء :

تتأخر شتاء عنها صيفا مع اختلاف ساعات النهار . دراسة : الفقه ومذاهبه .

الساعة العاشرة مساء :

المذاكرة والعشاء المكون من الفول المدمس والكرات والخبز . وأحيانا ما تعقد دراسات للخط وتحسينه . أو بعض الموضوعات الاضافية فى بواكير الصبح .

الساعة الثانية عشرة ظهرا :

صلاة الظهر ، يتلوها دراسة للنحو أو الخطابة ، أو أصول الشريعة .

الساعة الثالثة والنصف :

صلاة العصر ، وراحة القيلولة ، وتحضير الدروس ثم تناول العشاء من الخبز والجبن والحلوى وأطعمة أخرى .

الساعة السادسة والربع مساء :

صلاة المغرب ، يتلوها دراسة لموضوعات اضافية كالمنطق والفلسفة .

٣ - الساعة الثامنة والربع مساء :
صلاة العشاء - ومناقشة مع الفقهاء من المعلمين وبعض الأصدقاء قبل النوم ·

وللطالب ، خلال دراسته بالأزهر أن يختار ما يقوم بدراسته من المواد المختلفة وأن يحضر ما يشاء من دروس كل عام ، فاذا رأى انه استوفى دراسته وأن شيوخه قد رأوا أنه استوفى من الدراسة ما يؤهله للبحث عن وظيفة ، فى بعض المعاهد ، أو المصالح الحكومية ، أو المسجد ، أو المحاكم الشرعية ، وان كانت حلقات الدروس تقام عادة فى محاريب الأزهر ، وأعمدته ، وتضيق بالعدد الكثير من طلابه فليس هناك ما يحول دون اللقاء فى مساجد أخرى ، ولهذا يقول - ارمنجون Arminjon : ان أكثر المساجد التى تقع فى قلب الأحياء العربية ، تغدو ملتقى الدارسين ممن تحول كثرتهم عن اللقاء فى الأزهر ·

واذا كان الطالب من العميان ، أو دون المستوى الدراسى المنشود ، فانه بعد أن يمضى ثلاث سنوات فى الأزهر دارسا للنحو ، وتجويد القرآن ليصبح قارئا من قرائه · وهى وظيفة تحظى بالاقبال لا من جانب المستمعين فى المساجد ، ولكن للقراءة والتجويد فى المآدب وحفلات القرآن ، والحفلات العامة ، والبيوت ·

وهناك كثرة من الطلاب يمضون ست سنوات بالأزهر ، يؤهلون بعدها للتدريس فى المعاهد كعرفاء ، أو لبعض الوظائف الصغرى ، أما الطالب الطموح فانه يمضى فى دراسته بالأزهر لمدة أطول يلم خلالها بما يؤهله لما ينبغى من مناصب : القضاء ، أو الافتاء أو الأستاذية ، أو أن يكون شيخا للأزهر ·

ولم تكن ادارة الأزهر خلال القرن الثامن عشر على شىء من المركزية ، فشيخ الأزهر يستعين بمساعديه فى ادارته ، كتحديد أوقات الصلاة ، والاشراف على ماليته وأبنيته · وكل شيخ من شيوخ الحلقات الدراسية يقوم بتسجيل قوائم الطلاب (*) ، ونظم الدراسة ، كما يقوم رئيس الحلقة ، بالاشراف على كل ما يتصل بحلقته ، والطالب هو الذى يختار أساتذته ويحدد دراسته ، ولم تكن ثمة حاجة لتحديد شروط الالتحاق أو مواعيد الاختبارات ، أو قواعد الادارة ، أو الغياب والحضور ، لذلك كانت الادارة والاشراف فى غاية البساطة خالية من أى تعقيدات فالطالب يختار ما يشاء من دراسات كما يختار من يتلقى عليه العلم ومن يقوم على الحلقة التى يختارها ·

(*) هذا العمل كانت تقوم به ادارة الأزهر ذاتها ، وكان للطالب اختيار الجلوس فى الحلقة دون اختيار الشيخ نفسه ·

والأستاذ ، هو العالم ، وقد استوى على نهجه بعد سنوات طوال من الدراسة والاجتهاد ، ليتخذ مكانه فوق مقعده ويتحلق حوله الطلاب جلوسا أمامه ، ليبدأ درسه بالبسملة ويصلى على الرسول (صلى الله عليه وسلم) قبل أن يبدأ محاضراته ، حتى اذا انتهى نهض الطلاب لتقبيل يده · ومن يخطىء من الطلاب ، وهم غالبا من صغار السن أو المراهقين فان جزاءه الضرب أو الفصل ، أما الواعون من الطلاب ، وهم عادة من كبار السن ، فان حب العلم والمعرفة يحملهم على الاقبال على شيوخهم والافادة من علمهم ، فاذا أتموا دراسة النص المقرر ، احتفوا بشيخهم ودعوه لتناول الشاى معهم ·

ولما كانت الطباعة العربية باهظة التكاليف ، فان الطلبة يعدون ملخصات لها ، ولم تكن هناك خلال هذا القرن الثامن عشر مكتبة عامة تمد الطلاب بما يحتاجونه منها ، وان وجدوا بعض المراجع فى الأروقة التى يقيمون فيها · وغالبا ما يعد الطالب ليخلف أباه فى منصبه بالأزهر ، فيعمل مساعدا له ـ أو ما يسمى (المعيد) (*) فى حلقة أبيه ، باملاء المذكرات ، ويقوم بشرحها ليكون على يقين من أنهم قد وعوها تماما · فاذا توفى الشيخ ، لم يكن هناك ما يحول بينه وبين اتخاذ مقعد أبيه فى حلقته ·

ولم تكن نظم الحلقات على حد سواء ، فالأزهر يفتح أبوابه لكل قاصد من الصبية أو البالغين مادام مسلما رشيدا ، فالتعليم فيه يبدأ من المرحلة الأولى للتعليم حتى المراحل العليا ، وما من زائر الا ويرى الصبية فى جانب والمسنين فى جانب آخر ، وتبدأ الدراسة عادة بحفظ القرآن للصغار ، لتنتهى بنظام الحلقات والتفقه فى العلم ·

وتبدأ الدراسة بعد نهاية رمضان بأسبوعين ، وتستمر حتى الشهر السابق على رمضان العام التالى ، الى جانب اجازة عشرين يوما لمناسبة عيد الأضحى ، وأخرى لمدة شهر احتفاء بمولد السيد البدوى حيث مشهده بمدينة طنطا ، واجازة أخرى أطول فى مولد النبى (صلى الله عليه وسلم) ولا تستغرق الدراسة بعد ذلك أكثر من سبعة شهور فى السنة ·

ويتبع الشيوخ الذين يقومون بتعليم الصبية الأزهر مباشرة ، ويعتمدون فى تعليمهم على حفظ النصوص دون مناقشتها ، وعادة ما تقف الدراسة كقاعدة عامة على كتاب واحد فى حلقة واحدة ، وان احتوى بعضها

(*) المعيد فى الحلقة كان يتم اختياره على أساس التفوق فى العلم والخلق وليس عن طريق التوارث ·

على مختصرات وشروح تعينهم على فهمها ، ولا يسمح بها لغير المتقدمين في دراستهم ، وان كانت في الواقع مما يثير التشوش · وتقوم الدراسة على حفظ النصوص بما فيها ما يمليه الشيخ على طلابه ، وان كانت الطريقة التي يقوم عليها التدريس على النهج القديم ، الا أنها كانت متكاملة تماما ، فالطالب مثلا يلم بكل المراجع الأساسية طوال عشر سنوات ، وقد يعاد دراستها على يد شيوخ آخرين وقد تتطلب دراسة النص عامين بدلا من عام واحد لصعوبتها ·

ولم يكن الأزهر خلال العصر العثماني يجيز المنتهين من الدراسة ، وان كانوا يجازون من شيوخهم حين يكملون دراستهم على يديه ، وتصبح هذه الاجازات التي يشهد بها العلماء عونا للطالب في العثور على عمل حين يترك الأزهر · كان الأزهر في الواقع ملاذا للعلم والعلماء · وكان له أثره البالغ خلال تلك الفترة من العصر الوسيط ، فالعلماء في اجتهادهم ودأبهم على توسيع معارفهم ، غدا ولهم بالغ الأثر على طلابهم ، كما كانت لهم مواقفهم في الوقوف الى جانب الشعب وأصبحوا موضع تقديره واكباره · وكان لهم أعظم الأثر فيما حظى به الأزهر من مكانة رفيعة في العالم وكان أكثرهم من أبناء مصر ، ولدوا ونشأوا في رحابها ، وان كانت القلة ممن وفدوا اليه من الحبشة والحجاز ومراكش وتونس وسوريا وتركيا واليمن ، وكان منهم من أقبل على دراسة العلم اليوناني ، كما كان منهم الكتاب ، والشعراء كالشاعر حسن البدري الحجازي ·

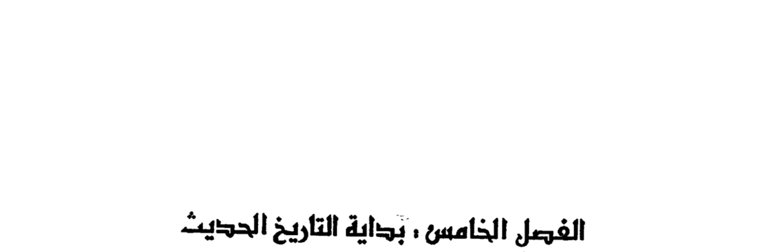
ويقدم ــ ستانلي لين بول ــ صورة ممتعة مرحة عن تلك الفترة وما كان لشيوخ الأزهر خلالها من مكانة واكبار ، فيقول :

« كان التعليم في القاهرة قد جاوز المدى من الرعاية والانتعاش ، قبل الغزو الفرنسي ، فقد عانت الكثير من مساوئهم ، ما لم تلق من قبل ، لا من جراء المقاومة التي واجهها الفرنسيون في غزوهم لمصر ، ولكن لما أثاروه من فزع ورعب طارئ واضطراب فمن قبل ، كان لشيخ يقوم بالتعليم في الأزهر طالبان من أبناء فلاح ثري ، وكانا يتبعانه أينما حل أو ارتحل ، ينظفان بيته ويطهيان طعامه ، ويشاركانه أكله ، فاذا طرق المسجد ، أخذا مركوبه ، وبدا وكأنه أمير قمين بالاكبار والتوقير ، في ثوبه الفضفاض الكاسي وعمامته الكاسية ، وعندما يمضي في الطريق ماشيا ، أو ممتطيا حمارا أو بغلا فان الناس يتكأكأون حوله ملتمسين البركة والدعاء(*) ،

(*) انظر ابن كثير البداية والنهاية ١٠/١٧٤ طبعة مكتبة المعارف بيروت ١٩٨٠ م والجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ٢/٥٢ ط بولاق ١٨٨٠ م ·

مؤمنين بقربه من الله ، فاذا مر بقريب أو أجنبى فانه يترجل لتحيته ، واذا مضى الى الجزار ليبتاع اللحم - لأنه يرى أن يبتاعه بنفسه فلا يوكل به غيره ، فان الجزار يأبى أن يقتضيه الثمـن ، ويقبل يـده ، وانهـا لنعمـة كبرى أن يمنحه ما يشاء .. » .

وفى غمار هذا المنحى من ثقافة هذا العصر الوسيط ، بكل ما حفل به من مظالم وقسوة وخرافة وتصوف كان من معالم الثقافة فى ذلك العصر الوسيط أن انبجست حمله نابليون بونابرت فكانت بداية تاريخ مصر الحديث ، وفصل جديد حافل فى تاريخ الأزهر .



الفصل الخامس : بداية التاريخ الحديث

الحملة الفرنسية :

قررت حكومة الادارة عام ١٧٩٨ تكليف نابليون بونابرت اعداد حملة بحرية ضخمة لغزو مصر والقضاء على التجارة البريطانية فى البحر المتوسط تمهيدا لغزو بريطانيا فى عقر دارها ، وقد غادر الأسطول الفرنسى ميناء طولون فى بواكير الصيف ، وتزود بمعداته من ايطاليا واحتل مالطة فى شهر يونيو ، ووصل مصر أول يوليو واحتل الاسكندرية ، وكان نلسون قد جاءها بقواته للقضاء على الفرنسيين قبل ذلك بيوم وغادرها قبل وصول نابليون بقواته ٠

وعهد بونابرت الى أساليب الحرب النفسية ، فأرسل الى الباشا التركى يخبره انه ما جاء الا لانقاذه من سطوة المماليك وتأييد الحكم العثمانى ، كما أذاع بيانا على المصريين يعلن فيه أنه ما جاء لعقاب المماليك فى تصديهم لتجارة فرنسا ٠ ولكن ليقيم حكما عادلا بدل حكم المماليك الجائر ٠

ومع ما لقيه نابليون من متاعب ، فقد نجح بما عرف عنه من موهبة القتال ، استطاع أن يقضى على كل مقاومة من جانب المماليك والباشا العثمانى فى معركة الأهرام فى الحادى والعشرين من شهر يوليو ، وراح رجال الأزهر وشيوخه خلال الأزمة يقرءون أحاديث البخارى ، ويدعون الله أن يدفع عن مصر السوء ، وما أن هزم المماليك ، حتى أرسلوا الى نابليون يسألونه المسالمة ، فكان رده طيبا فسمحوا له بدخول القاهرة فى الخامس والعشرين من يوليو دون مقاومة تذكر ٠

وكان على نابليون أن يحكم سيطرته على المماليك ، ومنهم من احتمى بالأزهر ، ولم يكن يعنيه أكثر من كسب رضاء المصريين ومن يدينون لهم بالولاء من زعمائهم ، وهم شيوخ الأزهر ٠ وكان أن أنشأ الديوان برئاسة الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر ٠ كما رأى لصالح مصر أن ينشىء – المعهد العلمى – Institut d'Egypt حتى يتيح لمن صحبوه من العلماء الفرنسيين البحث والدراسة ، وهؤلاء النخبة هم الذين أبدعوا هذا الأثر

العظيم المسمى ـ وصف مصر ـ وقد تم طبعه ونشره فى باريس (١) كما أبدى اهتماما كبيرا بمشاهدة الاحتفال بمولد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان يعنى بمجادلة العلماء حول المسائل الاسلامية ، ومع ما بذله بونابرت من جهود لكسب ثقة المصريين ، فانه لم يتسن له أن يكسب ولاءهم العاطفى ، شأنهم شأن الجماعات الكهنوتية فى أية ديانة أخرى ، حين يتباين ايمانهم مع ما تؤمن به الطوائف المخالفة ، فلما أخذ الفرنسيون فى استخدام المسيحيين لمراجعة قوائم الضرائب انقلب الخلاف الى عـداء سافر ، ودعـا الشيخ السادات الى اجتماع بالأزهر لاثارة الأهالى والمقاومة ، وأخذ الهياج يمتد الى مناحى القاهرة ، وبينما كان الناس يجتازون تلك الحالة من التوتر العقلى والنفسى ، برح نابليون القاهرة وأقام الجنرال ديبوى نائبا عنه فلم يحسن معاملة الغوغاء ، فاغتالوه فى داره ، حتى اذا عاد نابليون الى القاهرة ، وطلب الى شيوخ الأزهر اقرار النظام ، لم يلق منهم استجابة أو حتى ردا ، فقصف جوانب الأزهر وما حواليه بالمدفعية وأشاع فيها الخراب والدمار .

وان كان الثوار خارج الأزهر أذعنوا وسلموا فان اللاجئين اليه أبوا أن يسلموا ، فانهالت قنابل الفرنسيين عليهم ، مما حمل شيوخ الأزهر على التسليم وطلبوا المهادنة ، واحتلت مشاة الفرنسيين وفرسانهم ساحة الأزهـر . وربطوا خيـولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأوانى ، والقصـاع والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات ودشتوا الكتب والمصاحف ، وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها ، وأحدثوا فيه وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب ، وكسروا أوانيه ، وكسروها بصحنه ونواحيه وكل من صادفوه عروه ، ومن ثيابه أخرجوه (٢) .

كان ذلك فى ليلة الثلاثاء ٢٢ ـ ٢٣ من أكتوبر ـ وباتت القاهرة فى هذه الليلة الدهماء فى لجة من الظلام ولجة من الفزع .

ووقف جماعة من الجند على عتبة المسجد ، فاذا جاء المصلون ورأوهم أسرعوا بالابتعاد .

---

(١) يشير الأستاذ المفكر الكبير المرحوم ـ أحمد حسين ـ فى موسوعته التاريخية ص ٩٠٥ الى (أن الحملة الفرنسية التى استغرقت ثلاث سنوات وثلاثة اشهر وخمسة عشر يوما . وأشبهت أن تكون اعصارا وزلزالا أو ثورة بركانية مزقت الجمود والهمود الذى كان قد ران على العالم الاسلامى ، وأشعرته أن الدنيا قد تغيرت وظهرت فيها عدالة جديدة ، وحياة جديدة وعلوم جديدة وصناعات ونظم حكم جديدة وبالجملة حضارة جديدة) .

(٢) الجبرتى ج ٣ ص ٢٩ .

وبعد أربع وعشرين ساعة قصــد عدد كبير من الشيوخ نابليون فوعدهم بسحب جنوده من الأزهر ، على أن يظل الباب الخارجي للأزهر تحت حراستهم ، وفى نفس الوقت أسرع أبناء الحى بالفرار عندما رأوا الجنود تجتاح دورهم وتقتلهم وتنهبها ٠

وتم القــاء القبض على الشيخ أحمد الشرقاوى من شيوخ الأزهر وأربعة من رفاقه وقد تمكن الخامس من الفرار قبل القاء القبض عليه ٠ ومع ذلك فان الشيخ السادات وجماعة من رفاقه ذهبوا لمقابلة نابليون وفى شيء من التحدى طالبوه بالافراج عن المحبوسين ، فأمر باطلاق النار عليهم بالقلعة ، وألقيت جثثهم فى النيل ٠

الا أن الفرنسيين اذا كانوا قد استطاعوا أن يخمدوا ثورة القاهرة ، فان الثورة بقيت تجتاح الأقاليم حيث قام المواطنـون بتدمـير المراكب الفرنسية ، ورفضـــوا أن يمدوهم بالمرشدين أو بحاجتهم من المؤن ، وانضموا الى صفوف المماليك بقيادة مراد بك ٠

وفى أغسطس دهم الأسطول البريطاني بقيــادة نلسون الأسطول الفرنسى ودمره فى موقعة ــ أبوقير ــ البحرية وانقطعت سبل المواصلات بين الفرنسيين وبلدهم ٠

وكان حريا برجل آخر غير نابليون أن يسلم بالهزيمة ويعترف بضعفه وفشله فى كسب المصريين الى جانبه ، ولكنه بدلا من ذلك ، بما أوتى من قدرة استطاع أن يحمل العلماء على اصدار بيان يلزم المصريين بالطاعة وأداء ما يفرض عليهم من التزامات وضرائب ، وكلف الجنرال ديزييه بمطاردة المماليك فى الصعيد ، وأعاد تشكيل الديوان ، ومضى فى مشروعاته للتعمير والبنــاء فأقام الكبارى وانشأ المستشفيــات والورش والطواحين الهوائيــة ، وطلب الى علمــاء الحملة باصدار صحيفتين (١) ــ وأمتعوا المصريين بدراســاتهم فى شــتي ألـوان الفن ، وأفســحوا لهم مجـــال المعرفة بكل ما هو جديد وحديث من نواحى المعرفة الحديثة والمخترعات الجديدة والكيماويات ، ويقول الجبرتى انه عرف منهم الكثير عن العلوم الأوربية ، ويقول الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر ما بين عام ١٨٣٠ وعام ١٨٣٤ ، انه ألم باللغــة الفرنسية ليدرك معـــالم الثقافة الأوربية ويفسرها للمصريين ، وعمل على تشجيع التبادل الثقافى بين الجانبين ٠

وفى ســــنة ١٧٩٠ قام نابليون بحملته على فلســطين ليحول بين العثمانيين وغزو مصر ، وعندما احتل العريش أرسل بعض ما استولى عليه من بيارق وأعلام الى القاهرة ، وأمر برفعها على مآذن الأزهر ، وعندما

(١) Le courrier d'Egypte — and La Decade Egyptienne.

استولى على يافا أرسل ثلاثة عشر بيرقا وأمر برفعها على بابى الأزهر

وقضى نابليون ربيع عام ١٧٩٩ ، وهو يحاول دفع العثمانيين عن عكا الا أن محاولاته انتهت بالفشل اذ أن الأسطول البريطانى كان يوافيها بالامدادات عن طريق البحر الى جانب امدادات العثمانيين العسكرية برا • حتى اذا كان مايو عام استدعته حكومته للعودة وقبل أن يغادر مصر استطاع أن يوقع الهزيمة بحملة عثمانية انجليزية مشتركة ، غادر بعدها مصر عائدا الى فرنسا صيف عام ١٧٩٩ ، وعهد الى كليبر بالأمر من بعده •

وفى العشرين من مارس ١٨٠٠ أوقع كليبر الهزيمة بحملة عثمانيه من عشرين ألف جندى فى عين شمس ، لجأ منهم حوالى ثمانية آلاف جندى على الأقل الى القاهرة وفى أحيائها الوطنية • وعندما اشتركوا مع المصريين فى بولاق فى نهب مستودعات الفرنسيين ، وكانت بداية الثورة من جديد ضد الفرنسيين ، وبعد عشرة أيام من المقاومة العنيفة لجأ الفرنسيون الى شيوخ الأزهر لاقرار السلام ، الا أن عامة الشعب أبوا المهادنة ورفضوا الاستسلام ، ولم يجد كليبر بدا من قصف حى بولاق وما حواليه بالمدفعية فضلا عن حى الأزهر لمدة ستة أيام بلياليها حتى استسلم الأهالى واستولى على ما لديهم من ذخائر وأسلحة وفرضوا على الأهالى غرامات فادحة وكذلك على شيوخ الأزهر وجماعات الحرفيين حتى يواجهوا نفقاتهم ، ولما أبى الشيخ السادات وتلكأ فى اطاعة ما فرضه كليبر ، ألقى به فى السجن وحكم عليه بالجلد فكان يجلد مرتين فى اليوم •

وفى هذا الوقت جاء القاهرة طالب كان من قبل طالبا بالأزهر يسمى ـ سليمان الحلبى ـ وبعد شهر من قدومه الى القاهرة قضاه فى الأزهر ، قصد مقر الجنرال كليبر ، وقتله ، واتهم أربعة من المقرئين بالتورط فى الجريمة وفر أحدهم وقبض على الآخرين وقضى عليهم بقطع رقابهم فى مكان عام على مرأى من الناس ، وفى نفس الوقت حكم على سليمان الحلبى بحرق يده التى طعن بها كليبر ثم اعدامه على الخازوق ، وتركت جثته ليأكلها الطير •

ومنعا لأى اجراء آخر ، قام الشيخ الشرقاوى باغلاق الأزهر أول يونيو سنة ١٨٠٠ ، وبعد اغتيال كليبر ، تولى الجنرال البارون دى مينو الحكم ، ولم يشفع له اعتناقه الاسلام من كراهية المصريين •

وفى مارس ١٨٠١ ، اشترك اسطول بريطانى مع جيش عثمانى فى غزو مصر ، ولم يكن مينو من القدرة والمهارة ما كان نابليون وهزم هزيمة ساحقة ، تم بعدها جلاء الفرنسيين عن مصر ، وبقى الأسطول البريطانى فى المياه المصرية عاما ونصف العام ، وقرر الانجليز عودة السيادة العثمانية على مصر ، وقبل أن يتم جلاء الانجليز بعث السلطان بالصدر الأعظم ليعلن

عودة الحكم العثمانى والسيادة العثمانية على مصر وفى الثانى من يونيو ١٨٠١ ، قصد الأزهر لأداء صلاة الجمعة تعزيزا واعلاء لشأنه .

محمد على :

ما أن تم جلاء الفرنسيين والانجليز عن القاهرة ، وخفق العلم العثمانى فوق القلعة ، حتى واجهت مصر نوعا من الفوضى ، وظهر عجز الباشا العثمانى فى السيطرة على الحكم ، وراح المماليك ينشدون استعادة سلطانهم بعد أن سلبهم اياه الفرنسيون ، وفى خلال تلك الفوضى الضاربة أطنابها لم يكن للشعب بشتى طوائفه غير الأزهر منجاة لهم مما يعانون ، وكان أنقام قائد القوات الألبانية تقربا من الأزهر بمنح طلاب الأزهر هبة من الدقيق ، وحمل الضنى والبؤس عددا من النسوة الى الأزهر نائحات صارخات ينشدن المعونة ، وطغت أصواتهن على سير الدراسة فتوقفت ، ومرة أخرى لم يجد مائتان وخمسون من الانكشارية منجاة لأنفسهم غير اللجوء الى الأزهر مطالبين بصرف مرتباتهم .

وفى غمار تلك الفوضى الضارية التف الجند الألبان حول أحد قادتهم لاعادة النظام والقضاء على الفوضى ، وكان محمد على هو القائد الذى وقع عليه الاختيار ليعيد اليها النظام ، وكان محمد على حينذاك من الموالين للسلطان العثمانى ، فكان عونا للباشا العثمانى على الاقامة بالقلعة ، وكان من اليسير أن يمضى كل شىء على ما يرام ، غير أن الباشا قد صحب معه ثلاثة آلاف من القبائل الكردية المعروفين باسم ــ الدلاه ــ وكانوا من القسوة والسوء مما أضنى سكان القاهرة وحملهم على الشكوى .

وفى مايو ١٨٠٥ كان السوء قد بلغ بالناس حدا لا يطاق مما دفع شيوخ الأزهر الى تعطيل الدراسة واغلاق الفصول ، وقصدوا محمد على سائلين عزل الباشا التركى ، فسألهم : ومن تختارون ليخلفه ؟ فأجابوا :

ــ نختارك أنت لتحكمنا وفقا للشريعة ، فاننا نرى فى ملامحك أنك قد أوتيت الطيبة والعدالة .

ومع ما كان من اختيار شيوخ الأزهر أن يلى محمد على الحكم ، فانه لم يقدم على عزل الباشا التركى وطرده من القلعة الا بعد شهرين من هذا اللقاء ، لم يجد الناس خلالها ملاذا لهم غير الأزهر من الظلم الواقع عليهم ، وأبى كثير من المماليك أن يخضعوا لأجنبى كمحمد على ، فقتل من لجأ منهم الى مسجد السلطان برقوق أما من لجأوا الى الأزهر فقد نجوا من القتل .

وفى أول مارس ١٩١١ ، كان محمد على قد ظفر بثقة المماليك فاطمأنوا اليه ، ولبوا دعوته الى القلعة للاحتفال بتقليد ابنه الأمير طوسون قيادة

الحملة الى الجزيرة العربية لاخضاع الوهابيين وطردهم من مكة ، وما ان اكتمل جمعهم حتى أغلق عليهم أبواب القلعة ، وقضى عليهم وكان من قتل منهم ٤٧٠ ، وأصبح محمد على بعد هذه المجزرة السيد المطاع فى مصر وقد قضى على المماليك فى القاهرة والأقاليم على حد سواء ٠

وكان من أحداث الأزهر خلال تلك الفترة ما نم عن الخروج على القانون والتشوش الفكرى ، ففى عام ١٨١٠ ، اتهم بعض الطلاب بتزييف النقود وممارسة البغاء سواء داخل المسجد أو خارجه من الأماكن القريبة وبعد سنتين من هذا التاريخ سطا لصان على أروقة الطلاب وسرقا حاجياتهم فقبض عليهما وقطعت أيديهما عملا بما جاء فى القرآن ٠

ومع ما كان من تكاليف الحملة على الوهابيين فى نجد ، استباح الملكية العامة ، وأوقاف الأزهر ، وفرض على الملاك من الضرائب ما تقرره الحكومة ، بدلا من العوائد التى تتناسب مع الدخل ٠٠

وفى تلك الآونة التى فرضت فيها تلك العوائد الثقيلة ، أخذ الشيوخ فى قراءة أحاديث فى البخارى من قبيل الاحتجاج ٠ وفى مناسبة أخرى نرى محمد على يطلب أن يقوم الشيوخ بقراءة البخارى وأحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) عند وفاة ابنه طوسون فى الحرب سائلين الله أن يشمله برحمته وأن يرعى ابنه الأصغر ابراهيم برحمته وقد أخذ مكان أخيه طوسون على الحملة ٠

والى جانب حرب الوهابيين قام محمد على بعدد من الحملات العسكرية الأخرى ، ففى عام ١٨٢٠ بدأ فتح السودان ، وبعد ذلك بأربع سنوات قام بمعاونة السلطان العثمانى محمود الثانى فى اخماد ثورة اليونان وفى عام ١٨٣١ كانت حربه الرابعة بقيادة ابنه ابراهيم ليزيح الحكم العثمانى عن سوريا وفلسطين ٠

ومع ما نال محمد على من شهرة فى حملاته العسكرية ، فانها لا تعدل ما كان من سياسته بما كان لها من أثر بالغ على الأزهر ، فالى جانب ما عرف عنه من نزعة الى الاستبداد ، فقد أشرك شيوخ الأزهر فيما كان من سياسته تجاهه ٠ وقد انطوت على اصلاح نظام التعليم وادخال العلوم الحديثة على مناهجه وانشاء العديد من المدارس والمعاهد الفنية الى جانب ارسال البعوث الى أوربا للدراسة ، من بين طلاب الأزهر ، فلم يكن سواه ما يزوده بحاجته منها ، وأنشأ دارا للطباعة ، وكان أول ما قام به اختيار مائة طالب من طلابه لدراسة الطب بناء على اقتراح كلوت بك ، وآخرين للهندسة ٠

وأرسل البعوث الى فرنسا ، ومن رجالها الشيخ رفاعة الطهطاوى وكان من مآثره ، فيما بعد انشاء مدرسة الألسن للترجمة وكان لها تاريخها الحافل فى نهضة مصر العلمية والثقافية .

وقد أضفى محمد على على الأزهر رعايته ، ولكنه ظل يحكم ادارته واتجاهاته ، فعندما اختار العلماء الشيخ محمد المهدى شيخا للأزهر اختار هو الشيخ محمد الشنوانى وأصر على اختياره .

وخلال حكمه قام باصلاح مليون فدان للزراعة ، وتضاعف عدد السكان من مليونين الى أربعة ملايين ونصف المليون ، ونمت تبعا لذلك موارد الدولة .

وكانت بداية عهد جديد فى تاريخ مصر فقد حل محمد على محل الباشا التركى ، ولم يعد للمماليك ما كان لهم من قبل من نفوذ وسلطان ، وبدلا من العزلة التى رانت على مصر من قبل ، بدأت اليقظة ، والتحام الشرق بالغرب فى خلق جديد وان بقى للثقافة الاسلامية قوامها الأصيل تحت رعاية الأزهر ، والتقى الشرق والغرب على يد أبنائه ومبعوثيه على وفاق .

خلفاء محمد على :

وفى عام ١٨٤٨ تنازل محمد على عن الولاية لابنه ابراهيم باشا ، الا أن المنية عاجلته قبل أبيه بعد شهور قليلة من ولايته ، وخلفه عباس حلمى الأول ، وقد امتد حكمه من سنة ١٨٤٨ الى سنة ١٨٥٤ ، وكان اختياره بوصفه أكبر رجال الأسرة ، رغم وجود محمد سعيد بن محمد على ، وعباس هو ابن طوسون بن محمد على .

ولكن لم يكن عباس من رواد الثقافة الأوربية ، أو محبيها ، فاتسم حكمه بالردة والجمود ، وقتل فى ظروف غامضة ، وخلفه عمه سعيد باشا وامتد حكمه حتى عام ١٨٦٣ ، ولقى الأزهر من الرعاية خلال حكمهما ما لقى من قبل أو بعض ما لقى وان لم يتعد الهبات المالية فكانا يزوران الأزهر ويمنحان طلابه الهبات المالية لا يعدوانها الى غيرها .

وفى العام التالى لوفاة سعيد باشا أرسل شيوخ الأزهر تقريرا الى مصر من باريس ، تضمن فيما تضمنه عرضا لمناهج التعليم بالأزهر ، ومنها دراسة المنطق والرياضيات والجبر ، وان كانت من الدراسات الاضافية ، اذ غلبت عليها المناهج التى كانت سائدة فى العصر العثمانى .

وفى أواسط القرن التاسع عشر ، أخذت طوائف الصوفية تؤم الأزهر ، وشابها نوع من العنف الذى الم بها من قبل أواخر الحكم

العثماني ، ففي سنة ١٨٥٣ ، تظاهر طلبة الشمال الأفريقي لنقص الجراية التي ينالونها ، ولم تهدأ ثورتهم الا بوصول الجند وفصل أربعة طلاب . وبعد ذلك بقليل شجرت خصومة عنيفة بين طلاب الصعيد والسوريين ، ولم يهدأ أوارها الا عندما جاء الجند بطبولهم وبنادقهم ، وألقى القبض على ثلاثة من المدرسين وثلاثين طالبا .

وفي سنة ١٨٥٥ ، أبيح التصوير ، وأبيح للأوربيين لأول مرة ولوج الأزهر ، والدخول الى أروقته ، وثمة تغيير آخر في تقاليد الأزهر بتعيين أربعة شيوخ للقيام بشئون الأزهر ، عندما حل المرض بالشيخ ابراهيم البهجوري شيخ الأزهر فأقعده عن العمل وقد توفي سنة ١٨٦٠ ، وكان موضع التقدير والاكبار حتى كان الوالي عباس حلمي يؤم محاضراته .

وكان اصدار اللائحة السعيدية سنة ١٨٥٨ ، التي أباحت الملكية الخاصة للأطيان ، والغاء الاحتكار الذي فرضه محمد علي على الأراضي الزراعية ذا فائدة كبرى للأزهر اذ أباح له الانتفاع بالأوقاف الخيرية التي كانت له من قبل . وكان من بينها ما أوقفته الأميرة زينب ابنة محمد علي وآخر يدعى سليم باشا ، وعائد كل منهما سبعة آلاف جنيه سنويا .

وفي عام ١٨٥٦ ، أبرم سعيد اتفاقية حفر قناة السويس ، الا أنه توفي سنة ١٨٦٣ قبل أن تتم اجراءات التنفيذ ، وخلفه اسماعيل بن ابراهيم ، على الحكم ، ليتم مشروع حفر القناة على يديه (١) .

---

(١) يرى الرافعي — عصر اسماعيل الجزء الأول ص ٥١ — (أن حفر القناة — اذا كان قد عاد بأعظم الفوائد على التجارة الأوربية والاستعمار الأوربي ، فانها كانت شؤما على البلاد واستقلالها ، لأنها أطمعت فيها دول الاستعمار ، وجعلتها تسعى حثيثا للاستيلاء على مصر ... تلك حقيقة واقعة يجب ألا تفوت سعيد باشا عندما منح امتياز القناة ، وأن يفطن اليها اسماعيل باشا عندما بدأ تأييده للمشروع بعد اعتلائه العرش حتى وصل به الى غايته) .

أما الدكتور هيكل — تراجم مصرية وغربية — (اسماعيل باشا) فيرى أنه (لم يوافق على الاستمرار في اتفاقية القناة التي عقدت في عهد سلفه سعيد باشا ... لأنه رأى شروطها قاسية بالنسبة لمصر وبالنسبة للعمال المصريين الذين كانوا يرهقون في حفر القناة أشد ارهاق ، يسامون الخسف ، ويضربون بالكرابيج ، ويطعمون الزقوم ويكادون لا يقتضون على عملهم أجرا ، ولما استمر الخلاف بين اسماعيل وشركة القنال ارتضى الطرفان تحكيم نابليون الثالث ، ولسنا نستطيع أن نفهم الا على أنه نوع من الكبرياء والغرور ، فنابليون الثالث امبراطور فرنسا . وشركة القنال على صفتها الدولية كانت ما تزال في كل مظاهرها شركة فرنسية تعنى امبراطور فرنسا حمايتها ، فتحكيمه مع ذلك نوع من الكبرياء والغرور معناه أنه لا يجوز لغير رأس من اكبر الرؤوس المتوجة أن تنظر في خلاف بين اسماعيل والشركة الدولية العالمية ، وانتهى التحكيم بالزام مصر بأن تدفع للشركة تعويضا عن عدم تنفيذ شروط الاتفاق أربعة وثمانين مليونا من الفرنكات ، أي ثلاثة ملايين وثلاثمائة وستين ألفا =

وكان اسماعيل بعيد الطموح يحلم بتحديث مصر ثقافيا واجتماعيا لتكون ـ قطعة من أوربا ، فأعاد ما بدأه محمد على من مشروعات أغفلها عباس حلمى الأول ، فشجع الارساليات البروتستانتية والكاثوليكية على افتتاح المدارس ، ونشر برامجهم التعليمية ، حتى بلغ عددهـا سبعين مدرسة ، وهو رقم لم تبلغه من قبل ، وسوى بين البنين والبنات فى التعليم وقام بالعديد من الاصلاحات الحكومية واقامة المنشآت العامة ، والمعاهد التعليمية العديدة والمؤسسات الثقافية العامة ، وغدت القاهرة منارة العلم والثقافة والتقدم .

ومما يستحق التنويه من مآثر اسماعيل ، انشاؤه مدرسة ـ دار العلوم ـ وقد أنشئت أساسا عونا للأزهر على استكمال رسالته بتدريس علومه ومناهجه بصورة أكثر حيوية ، بالاضافة الى المواد والدراسات التى لا تحظى باهتمام كبير من الأزهر ، كالرياضيات ، والتاريخ والجغرافيا والطبيعة والكيمياء ، وتحسين الخط ، وما زال الأزهر حتى وقتنا هذا يفيد من انشاء مدرسة دار العلوم لاعداد طلابه للتدريس ، ويرجعون الى مكتبتها فى دراساتهم وأبحاثهم .

ومضى الأزهر على عهد اسماعيل ، ليصبح هيئة لها كيانها النامى فى تعليم الصبية ، كما هو دوره الآن ، وكان موضع اهتمام اسماعيل وعنايته ، وقد شجع الشيوخ على تدريس الهندسة والتاريخ والموسيقى وغيرها من المواد على سبيل الاختيار لا الجبر ، كما قام بتجديد مبنى كلية أكبغا ، وأعاد بناء بواكى المدخل الجنوبى الشرقى ، وقام بتجديد باب الصعايدة . كما وزعت على الناس فى الطرقات قصيدة كتبت بماء الذهب لقراءتهـا ، ولم يكن ذلك بجديد على الحـكام فى اقترابهم من الأزهر والتمسح به .

وفى سنة ١٨٧٠ أصبح الشيخ محمد العباس المهدى الحنفى ، مفتى الحنفية شيخا للأزهر ، وكان لهمن المكانة والاعتبار ما مكنه من الحصول على هبات وافرة ، كانت سندا لمركزه المالى ، وأعاد للأزهر كل الأوقاف والمخصصات التى سلبت منه لينفقها على مستحقيها . وقد أدرك كيف

= من الجنيهات ، فاذا أضيفت نفقات الدعوى وما قامت به الحكومة المصرية من أعمال النشر والاذاعة وما كان يتقاضاه القائمون بهذه الأعمال من باهظ النفقات لم يكن غلوا تقدير ما خسرته مصر فى هذه الحركة بأربعة ملايين من الجنيهات) .

وهو ما أشرت اليه فى كتابى ـ أحمد عرابى : مصر للمصريين ، بما يلى :

« وكان اتمام هذه الصفقة الخاسرة على يد حكومة مصطفى رياض ، مما يدل على صدق ما وصفته به من عمالة وجاسوسية خفية فى محيط من الأغبياء ، وكان قمة هذا الغباء ـ خديو مصر ـ المعظم أو الفاضل ـ اسماعيل » ـ المترجم .

تجرى الدراسة والاجازات العلمية دون نظام مقرر (١) ، فالشيخ هو الذى يشهد بها لطلابه ، ولم يكن ثمة نظام لاختيار الشيوخ للمنصب ، حتى صــدر قانون الثالث من فبراير ١٨٧٢ بسن قاعدة لاختيار المرشحين للتدريس ، تقضى على الطالب بالتقدم الى شيخ الأزهر بطلبه لأداء الامتحان المطلوب ، على أن يثبت انه استكمل دراســة المواد المقررة ، وحتى يتم الاختيار وفقا للسنن المقررة فقد تم انشاء لجنة تمثل كليــات الشريعــة الثلاث كل منها باثنين من العلماء ، ولا يزيد عدد المتقدمين عن ستة فى العام الواحــد أو أقل ، وكانت الامتحانات تعقد فى أماكن خاصة ، ويمنح الناجح شهادة يوقع عليها الرئيس بنفسه ٠

والناجحون ثلاثة مستويات ، فأصحاب المستوى الأول يمنحون عباءة يخلعها عليهم الرئيس ، ويجاز برحلة فى مصر ، ويكون من حقه التدريس بالأزهر ٠ فاذا كان دون هذا المستوى فمن حقه أن يعيد الكرة بعد أن يستكمل الدراسة فيما ينقصه منها ٠

وكان هذا التشريع هو البداية فى سلسلة من الاصلاحات انتقلت بالأزهر الى مرحلة جديدة راعيا للعلم والثقافة العربية والاسلامية منارة للعرفان فى عالم جديد ، كما هو الآن ٠

جمال الدين الأفغانى :

ومع ما كان من جهود الخديو اسماعيل الثقافية والتعليمية وما خلفته من أثر عصف بعقول المصريين ، وما قام به من اصلاحات جديدة ، فانها لم تحرك مشاعر المصريين كما حركها وألهب أوارها محمد جمال الدين الأفغانى خلال تلك الفترة القصيرة التى قضاها فى القاهرة ما بين سنة ١٨٧١ وسنة ١٨٧٩ ، كان يتقاضى خلالها عشرة جنيهات فى الشهر منحة من الحكومة ٠

كان جمال الدين الأفغانى رائد ثورة سياسية وفكرية لتحرير الاسلام والمسلمين من طغيان النفوذ الغربى فى حمى ــ جامعة اسلامية ٠ وخليفة يدين له المسلمون بالولاء ٠ ومع ما كان من خشية المحافظين من رجال الأزهر اتجاهاته الراديكالية ، فان العديد من طلابه هرعوا الى مجلســه يستمعون ويسألون وقد ناشتهم اتجاهات الخديو اسماعيل الحضـــارية وما نجم عنها من رهق واعنات وما ترددت فيه من ديون ، بالحيرة فسعوا اليه ينشدون الحقيقة ٠ ويتحرون المعرفة ٠ فراح يسوقهم الى اجتلائها ٠

---

(١) انظر ملحق رقم ٣ ٠

وذهب يؤكد قبل أى شىء آخر حقيقة الاسلام فلم يكن نبى الاسلام ـ محمد صلى الله عليه وسلم ـ يكتفى بأن يبعث الايمان الروحى برسالة السماء فحسب ، بل كان يقيم عالما جديدا من الحرية والتكافل الاجتماعى والاخاء الاسلامى **تتلاحم معا تلاحما** روحيا خالصا • فى اطار من الرخاء الاجتماعى والعدالة الانسانية ، وكان ذلك أساس ثورته الدينية • وعلى كل مسلم أمين ـ كما يقول ـ أن يحرر الاسلام والمسلمين من قهر واعنات النظـام الاستعمارى ، ومن العسير أن نعى أو ندرك ما يجتاح آسـيا وأفريقيا ما لم نع فى حاضرنا أن الغرس الذى زرعـه الأفغـانى قد آتى أكله مائة فى المائة •

وكانت خطوته التالية فى تعاليمه أن يوفق بين الدين والعلم ، فحين سأله طلابه : لماذا لم يأت القرآن بخبر عن المخترعات الحديثة ؟ ، كان شرحه ، أن القرآن لو جاء على ذكر البخار والكهرباء لهؤلاء البدو أبناء القرن السابع ، لما صدقوه ، ولما سألوه عن دوران الأرض حول الشمس ، قال ذلك ما جاء به القرآن الكريم فى (سورة يس) الآية ٩٣ بقوله تعالى :

(وآية لهم الليل نسـلخ منه النهار فاذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغى لهـا أن تدرك القمر ولا الليل سـابق النهـار وكل فلك يسبحون) •

وحينذاك أخذت موجة التحديث تصدم العقول الجامدة ، ولم يكن لهذه التأويلات التى جاءت بها الكتب المقدسة أن تجد سندا من العلم ، فان التكريس بهـا نوع من المبادرة • وكانت جرأة الأفغانى وشجاعته وتحرره ، وان صدمت العقول الجامدة ، فقد وجدت صداها لدى الشباب الحائر الذى ينشد المعرفة واليقين ، هـذا الى جانب ما بدا من التدخل الأوربى فى شئون مصر ، وكانت دعوته السياسية صدى لما تجيش به ضمائر الشباب الحائر الذى ينشد التحرر وأن يستعيد الاسلام مجده كما ينشد التحرر من الطغيان الأوربى •

ولم يكن الأفغانى كلفا بالتدريس بقدر ما كان داعيا ينشد الحرية والتحرر من أوضار الطغيان الذى يعوق تقدم الاسلام والمسلمين ، وفى انتمائه الى الماسونية حين اتخذت شعارها • حرية ، اخاء ، مساواة لم يكن ينشد غير ذلك حتى عزف عنها حين رآها تدور حول نفسها ولا تحقق ما تعلن عنه ، وراح يكون الحزب الوطنى داعيا الى الحرية والعدالة •

وكره الأجانب من العاملين فى السياسة المصرية اتجاهات الأفغانى ودعوته الى التحرر ومقاومة النفوذ الاستعمارى ، ولم يكن بعض شيوخ

الأزهر على وفاق معه لأسباب ثلاثة أولها ، دعوته الى دراسة الفلسفة الغربية ، ثم تحرره مما ساد بعض رجال الأزهر من جمود لا يتفق مع روح الاسلام وتعاليمه القويمة • ثم اتهامهم له بانه استقطب عددا من الطلاب والشيوخ الى تعاليمه • ولم يكن غريبا أن يجتمع مجلس الوزراء ويقرر ابعاده عن مصر ، عام ١٨٧٩ ، الى حيدر أباد بالهند ، حتى غادرها الى لندن ثم قصد باريس حيث بقي بها من سنة ١٨٨٢ حتى سنة ١٨٨٤ (١) • قام خلالها بتكوين جمعية ثورية ، دعاها ـ العروة الوثقى ـ وكان أكثر أعضائها من المسلمين المقيمين فى فرنسا ، مرماها مقاومة الأستعمار وخاصة في مصر والسودان • وفيما بين الثالث عشر من مارس ، والسادس عشر من أكتوبر ١٨٨٤ ، أصدر صحيفته ـ العروة الوثقى ـ لسان حال الجمعية ، ودعا تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده ليوافيه بها من منفاه في بيروت • ليحرر أكثر صفحاتها ، وتناولت الاحتلال البريطانى لوادى النيل ، وشئون الهند ، والعثمانيين والاستعمار الفرنسي ، كما أخذت تدعو الى وحدة المسلمين ، وغير ذلك من الموضوعات الضافية ، وكان آخر ما نشرت من مقالات ، مقالا بعنوان ـ الزلزال البريطانى فى السودان (٢) • ومع مصادرة أعدادها فى مصر ، فان الكثير من أعدادها وجد طريقه الى القاهرة • حيث حفى بها الشباب وأيقظت الحماس في نفوسهم • وعندما صودرت أعدادها في الهند كانت نهايتها •

---

(١) يصف الرافعى ـ عصر اسماعيل الجزء الثانى ـ ص ١٦١ ـ ابعاده بقوله : (اصدر توفيق بقرار من مجلس النظار أمره بنفيه ، وكان نفيه غاية فى القسوة والغدر ، اذ قبض عليه ليلة الاحد سادس رمضان سنة ١٢٩٦ هـ ـ ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ ، وهو ذاهب الى بيته هو وخادمه الامين ـ أبو تراب ـ وحجز فى الضبطية ، ولم يمكن حتى من اخذ ثيابه ، وحمل فى الصباح فى عربة مستقلة الى محطة السكة الحديدية ومنها نقل تحت المراقبة الشديدة الى السويس ، وأنزل منها الى باخرة أقلته الى الهند ، وسارت به الى بمباى ، ولم تتورع الحكومة عن نشر بلاغ رسمى من ادارة المطبوعات بتاريخ ٨ رمضان سنة ١٢٩٦ (٢٦ اغسطس سنة ١٨٧٩) ذكرت فيه نفى السيد بعبارات جارحة ملؤها الكذب والافتراء ، مما لا يجدر بحكومة تشعر بشيء من الكرامة والحياء أن تسف اليه ، فهى قد نسبت اليه السعى فى الأرض بالفساد ويعلم الله انه لم يكن يسعى الا الى يقظة الأمة وتحريرها من ربقة الذل والعبودية) ـ ٢٤ •

(٢) وتشير هذه العبارة الى ما كان من ثورة المهدى فى السودان ، ولم يعرض لها ممن تناولوا حياة الأفغانى غير قلة ، وان جاء ما يشير اليها فى كتاب ابراهيم باشا فوزى ـ السودان بين يدى غردون وكتشنر ـ اذ أصدر المهدى ـ تعليمات مشددة الى قواد جنسه لكى يأسروا غردون حيا وصرح لهم بقصده ، وهو مفاداة عرابى ، ولكن قواد جيشه لم ينفذوا أمره فقتلوا هذا الانجليزى الكبير ، ولما بلغ الخبر الى المهدى غضب غضبا شديدا ، لأن جزءا مهما من سياسته قد هدم ••• وكان جمال الدين قد رأى أن يوفد ثقة خبيرا لينظم حكومة الخرطوم ويقودها حتى تتمكن من فتح مصر ••• ومن غير محمد عبده يندب لهذا العمل ، وسافر محمد عبده وتمكن من دخول مصر متنكرا ، ومتأهبا للرحيل الى السودان ••• ويقول محمد عبده فى احدى رسائله :

وغادر الأفغانى فرنسا فى جولة الى بلاد وأقطار عديدة ، حتى استقر به المقام أخيرا فى استانبول ٠

وكان السلطان عبد الحميد قد أمر له بمحظية تؤنسه الا أنه ردها ورفض قبولها فقد نذر نفسه للعزوبة والتصوف ، ثم أصيب بالسرطان وأجريت له ثلاث عمليات لم تنجح ، أدركته الوفاة فى استانبول وقد بلغ الثامنة والخمسين من عمره ، ودفن باستانبول (١) ، وكانت حياته الحافلة زادا للقومية المصرية ، وكان وراء منح فارس دستور ١٩٠٦ وحركة تركيا الفتاة ونهضة الاسلام فى عصره الحديث ٠

= (فتلقيت من الامر الجديد أن أكون على مقربة من الضوضاء ومسمع من النداء ، ولعل الله ينهض بالقول هما ، ويكشف بالبيان جهالات فتعرف انفس ما ادخر لها من العمل ، وتلحظ بأبصارها ما دنا من الأمل ، وتنبعث عزائم لتتناول ما حضر لديها وابراز ما كمن فيها ، فعناية الله باسطة اكفها اليهم رافعة صوتها وهم فى غشية من الجهل لا يصافحونها وغطيط من الغفلة لا يسمعونها) ٠

وقد ذكر رشيد رضا فى تاريخه أن جمال الدين كان يريد اللحاق بمحمد عبده الى الخرطوم اذا نجحت مساعيه ٠٠٠

ولكن القدر لم يكن يدبر أمره على هوى الشيخين فقد وقع حدث مفاجىء قلب الخطط كلها ، وهو وفاة محمد أحمد المهدى ، وتولية التعايشى مكانه ، وهنا أدرك محمد عبده أن مشاريعه قد انهارت كلها ، اذ أنه لا يستطيع مطلقا أن يتعامل مع التعايشى ، أو يصوغ سياسته على يديه ، وكان صادقا فى حسه ، فقد انهارت ثورة السودان بعد ذهاب صاحبها وتولية الأمر من لا يصلحه ، فقرر العودة الى بيروت) انظر محمد صبيح كتاب الشهر محمد عبده ٠

(١) تواترت الروايات ـ كما يذكر الرافعى ـ عصر اسماعيل ج ٢ ـ ان جمال الدين مات شبه مقتول ، وتدل الملابسات والقرائن على ترجيح هذه الرواية فان اتهامه بالتحريض على قتل الشاه وتغير السلطان عليه وحبسه فى قصره ووشايات الى المهدى الصيادى مما يقرب الى الذهن فكرة التخلص منه بأيه وسيلة ٠ هذا الى أن الغدر والاغتيال كانا من الأمور المألوفة فى الاستانة ٠

وأصدق الروايات وأحقها بالثقة ما ذكره الأمير شكيب أرسلان فى كتاب ـ حاضر العالم الاسلامى ـ وقال ما خلاصته : انه لما اشتد التضييق على السيد جمال الدين أرسل الى مستشار السفارة الانجليزية يطلب منه ايصاله الى باخرة يخرج بها من الاستانة ، فجاءه المستشار وتعهد له بذلك ، فلما بلغ السلطان الخبر أرسل اليه أحد حجابه يستعطفه أن لا يمس كرامته الى هذا الحد ، ولا يلتمس حماية أجنبية فثارت فى نفسه الحمية والأنفة وأخبر مستشار السفارة بأنه عدل عن السفر ـ ومهما كان فليكن ـ ولكن الرقابة عليه بقيت كما كانت ، وبعد أشهر من هذه الحادثة ظهر فى فمه مرض السرطان ، فصدرت الارادة السلطانية باجراء عملية جراحية يتولاها الدكتور قمبو زادة اسكندر باشا كبير جراحى القصر السلطانى ، ولم تنجح الجراحة ، وما لبث الا أياما قلائل حتى فاضت روحه ٠٠٠٠ وقيل أن العملية الجراحية لم تعمل على الوجه اللازم لها عمدا ، وقيل لم تلدق بالتطهيرات الواجبة فنا ، بحيث انتهت بموت المريض ٠٠ وكانت وفاته صبيحة =

يذكره حافظ ابراهيم بقوله : (قبل الأفغاني كان الناس لا يدركون من الدين غير الشكل · وكل ما عداه هرطقة ، وقد قضى كل ذلك وانتهى أمره حين جاء الأفغاني ليلقي باشعاعة فكره ، لينقل الناس من ظلام العصور الوسطى · كما قيل انه بعث في الأزهر روح التجديد ، وجرت في شرايينهم حياة جديدة زاهية ، وكانت هذه الصحوة الدينية التي يقودها الأزهر ، وبقيت اشعاعتها تغمره حتى وقتنا هذا ·

الاحتلال البريطاني :

وما لبثت الأحداث أن ناشت هذه اليقظة الفكرية التي جاشت بها مصر ، ففي نوفمبر ١٨٦٩ افتتحت قناة السويس للملاحة في صورة باهرة من العرض والحفاوة بالمدعوين ، وأرهقت تكاليف القناة ومظهرية اسماعيل البلاد بأثقال الديون ، وفي عام ١٨٧٣ كانت ديون اسماعيل قد تضاعفت فقد أنفق أموالا طائلة في الآستانة ارضاء للسلطان لينال منه اعترافا بنوع من الحكم الذاتي ، وان يمنحه لقب ــ خديو ــ كما قام اسماعيل بحملة على السودان لضمه الى مصر ، كما أنفق ٢٦٤٫٠٠٠ر٤٦ جنيه استرليني للقيام بمشروعات عامة ، مما اضطره الى الاقتراض من ــ البنوك ــ المصارف الأوربية قروضا باهظة ، وقدرت ديونه لدى بنك أوبنهايم وحده ٨٠٠٫٠٠٠ر٤٣ جنيه ·

وخلال عام ١٨٧٦ بدا واضحا أن اسماعيل على وشك الافلاس مالم يحكمها الخبراء الأوربيون ، فاتخذ من الاجراءات العنيفة ما ظنه قمينا بارضاء الدائنين ، بينما راح في الوقت نفسه يتخذ الوسائل لجمع الضرائب وتمويل الميزانية بما يفرضه على الشعب من وسائل لجمع المال ، الا أن ما جد من مطالب العسكريين ، وما كان من رفض الدائنين لاتجاهاته لم يترك له مجالا لمواجهة المشكلات المتكالبة ، وتصحه الانجليز والفرنسيون بالتخلي عن الحكم حتى كان أمر السلطان العثماني بعزله وولاية ابنه توفيق ، وفي شهر يونيو ١٨٧٩ ، أبحر الخديو العاثر الحظ على ظهر المحروسة من الأسكندرية ، ليلي توفيق المنصب من بعده ·

= الثلاثاء ٩ مارس سنة ١٨٩٧ ، وما أن بلغ لحكومة العثمانية نعيه حتى أمرت بضبط أوراقه وكل ما كان باقيا عنده وأمرت بدفنه من غير رعاية أو احتفال في مقبرة المشايخ بالقرب من نشان طاش ، فدفن كما يدفن أقل الناس شأنا في تركيا ولا يزال قبره هناك) ·

(١) حاضر العالم الاسلامي ج ١ ص ٢٠٤ تأليف لوثروب ستودارد ــ وتعليق شكيب أرسلان ــ اضافات وحواشي ــ المترجم ·

وألمت بطلاب الأزهر وشيوخه غاشية من الأسى ، وقد أيقظ فيهم الأفغانى أمانيهم وأحلامهم فى الحرية والاستقلال ، ليروا حاكمهم يعزل منفيا بأمر السلطان الطاغية ، والدائنين الأجانب ·

وجاء الخديو توفيق ليواجه مشكلة الديون ، وكان تكوين لجنة التصفية فقدمت تقريرها ، الا أن الأحداث قد فجأتهم بما لم يتوقعوا · ففى عام ١٨٨١ عصف الغضب بالضباط المصريين فى الجيش لتسريح ألوف من الجند ومئات من الضباط فى أواخر عهد اسماعيل ، فان تنفيذ قانون التصفية قد أدى الى خفض مرتباتهم دون زملائهم من الجركس وقد أغدق عليهم دون المصريين أكثر مما كان من قبل ، مما حمل ضابطين برتبة القائمقام ـ عقيد ـ هما أحمد عرابى ، وعلى فهمى على التقدم بالتماس الى ناظر النظار يلتمسان المساواة بأندادهم من الأتراك ، فألقى القبض عليهم ، وثار الضباط المصريون ، وانتهى أخيرا بتعيين عرابى وزيرا للحربية ، فزاد من قوة الجيش ، ورفع مرتباتهم (١) ·

وقد أدت الملابسات الى اصدار عرابى أمرا بنفى أربعين ضابطا من الأتراك ، مما أدى الى سخط العثمانيين ، والمموليين الأوربيين ، فضلا عن ولاء المصريين لعرابى مما ضاعف سخطهم على توفيق والتدخل الأوربى · وهو ما تناولته صحيفة محلية بالشرح والبيان ، بقولها :

« ادعى البعض أن التعصب مدمر للتقدم ، وقد تناسوا أن أمجد أيامنا كانت يوم سدنا العالم بعقيدتنا من الايمان ، اما وقد عزفنا عنها ونضب ايماننا ، وأصبح مصيرنا بيد الغرباء ، فقد حل بنا سوء الطالع جزاء خطيئتنا ، وانتم يا علماء الأزهر وانتم حماة العقيدة ، ماذا يكون من امركم يوم تسألون ، عما صنعتم لمقاومة هذا التدهور الدينى ، وماذا يكون جوابكم يوم الحشر ، ويعلم الله تعالى من امركم ما تخفى الصدور» (١)

وليس فى هذا القول ما يمكن أن ينسب الى شيوخ الأزهر ، فقد كانوا على الدوام حملة الأعلام ، أول من يدقون أجراس الخطر دفاعا عن الاتجاه القومى والحركات الوطنية ، ومن قبيل ذلك ما كان من استقالة الوزراء تحت الضغط الأجنبى حين جاء الأسطول البريطانى الاسكندرية ، كان شيوخ الأزهر هم الذين حملوا الخديو على اعادة عرابى ناظرا للجهادية ·

---

(١) وقد جاء كرومر على هذه المقولة فى كتابه ـ مصر الحديثة Modern Egypt ص ٢١١ · واوردها دكتور بايارد دودج عاشق الأزهر ـ كما اسميه ـ ليثبت مين الاستعمار ـ وكرومر من عمده الكبار ـ وفندها بالرد عليه ـ المترجم ·

وعندما طعن مالطى حمارا بالاسكندرية فقتله فى ١١ يونيو ١٨٨٢ ، وبلغ التوتر مداه ، وقام الدهماء على اختلاف أجناســهم باثارة الشغب وقتل خمسون أوربيا ، وهرب أربعة عشر ألف مسيحى أجنبى من مصر ، وعقدت الدول مؤتمر الأستانة لبحث ما كان من هذه الأزمــة ، بعيدا عن السيطرة الأوربية ، اختار الخديو راغب باشا رئيسا للنظار وعرابى ناظرا للجهادية ، وما كان بعد ذلك من انذار الانجليز بضرب الاســـكندرية ، ورفض المصريون الانذار ، فقصف الانجليز الاسكندرية ٠ وكان حريق الاسكندرية وانسحاب الحامية المصرية ، واحتلها الانجليز حتى تتم لهم السيطرة عليها ٠

وما أن عزف الأتـراك والفرنسيون عن المشاركة فى احتلال مصر اضطلع الانجليز بالأمر وحدهم فاحتلوا الاسكندرية ، ثم أوقعوا الهزيمة بعرابى فى ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ فى التل الكبير ثم زحفـوا الى القـــاهرة واحتلوها ٠

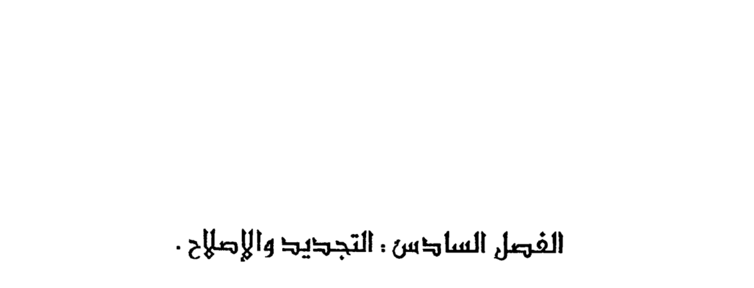
وفى الكتابة عما كان حينذاك ، نرى لورد كرومر يقول : ــ ان علماء الأزهر وشيوخه على قلتهم ، كانوا أصحاب الأثر الأكبر فى التأثير على الرأى العام وقيادته بين المصريين ٠

ومع ما كان من جهدهم وجهــادهم فقد قدر للأزهر أن يبقى فوق أرض يحكمها الأجانب والخارجون على الملة ٠

العصر الحديث

١٨٧٩ ـ ١٨٩٢	الخديو توفيق
١٨٨٢	الاحتلال البريطانى
١٨٨٨ ـ ١٨٨٩	اعادة بناء مدرسة أقبغا
١٨٩٢	الشيخ محمد عبده ـ المفتى الأكبر تجديد الأزهر
١٨٩٢ ـ ١٩١٤	الخديو عباس حلمى الثانى
١٨٩٥ ـ ١٨٩٦	تشريعات باصلاح الأزهر
١٨٩٦ ـ ١٨٩٧	تجديدات عديدة ـ انشاء مكتبة الأزهر
١٩٠١	بناء الرواق العباسى
١٩٠٣	الانتهاء من بناء خزان أسوان
١٩١١	تشريع اعادة تنظيم الأزهر
١٩١٤	بداية الحرب العالمية الأولى
١٩١٤ ـ ١٩١٧	السلطان حسين كامل
١٩١٧ ـ ١٩٣٦	الحماية البريطانية محل السيادة العثمانية فؤاد الأول
١٩١٩	ثورة ١٩١٩ تعم مصر
١٩٢٢	مصر مملكة مستقلة
١٩٣٠ ـ ١٩٣٦	قوانين بتحويل الأزهر الى جامعة

١٩٣٦	بناء ادارة للأزهر ـ المعهد الدينى ـ المستشفى والعيادة الخارجية
١٩٣٦ ـ ١٩٥٢	الملك فاروق
١٩٣٩ ـ ١٩٤٥	الحرب العالمية الثانية
١٩٥٠ ـ ١٩٥١	اقامة مربع لجامعة الأزهر
١٩٥٢	الثورة ، وعزل فاروق
١٩٥٣	مصر جمهورية
١٩٥٩	استكمال بناء دار المغتربين



الفصل السادس : التجديد والإصلاح .

عندما احتل الانجليز مصر ، كانت تابعة للدولة العثمانية ولكنها كانت تبعية اسمية لاتتعدى أداء الجزية (*) السنوية للسلطان العثمانى ، وكان الخديو ممثله فى حكم مصر يعاونه مجموعة من الأفراد والمجالس الاقليمية ، وقد ترك الخديو توفيق كامل الحرية فى حكم مصر ، وتقبل كل ما قاموا به من تغيير أو اصلاحات ٠

وكان المعتمد البريطانى فى الواقع هو السلطة التى تحكم من وراء الخديو ، وهو السير أفلين بارنج ، وقد ظل متربعا على قمة السلطة من سنة ١٨٨٢ حتى سنة ١٩٠٧ وقد أصبح لورد كرومر « Earl of Cremer » ولما كان السفير البريطانى مقيما بالآستانة ، فان لقب كرومر هو ــ القنصل العام ــ وقد غدا وله السلطان الأوفى فى مصر حين نجح عام ١٨٨٤ فى تسوية ديون مصر بصورة مرضية عادت على مصر بنوع من الاستقرار المالى ٠

وفى عام ١٨٩٢ خلف الخديو عباس حلمى الثانى توفيق ، وأهم أحداث حكمه اعادة فتح السودان على يد كتشنر سردار الجيش المصرى سنة ١٨٩٨ ، وتكملة انشاء خزان أسوان سنة ١٩٠٣ الى جانب انشاء قناطر أسيوط وزفتى ، وأخيرا ابرام الاتفاق الودى عام ١٩٠٤ ، بالاعتراف لفرنسا بنفوذها فى مراكش ولانجلترا فى مصر ٠ ولم يكن من اليسير صيانة الأبنية الكبرى لما تتطلبه من نفقات باهظة ، لا بسبب الديون التى أثقلت مصر فى تلك الفترة ، ولكن بسبب ما واجهت من خطوب سياسية ٠

وحين اعتلى توفيق أريكة الخديوية ، كان بناء الأزهر فى حاجة الى التجديد ويشير ــ الأستاذ كرزويل ــ الى تقرير يرجع الى سنة ١٨٨٣ حول صيانة مبانى الأزهر ، يتضمن الاشارة التالية :

(*) ما تدفعه مصر للدولة العثمانية لم يكن جزية ، فان الجزية تؤخذ من أهل الكتاب ٠

(مـــع ما تم من اصـــلاحات عديدة لمبنى الأزهـــر فان الكثيرين لم يلحظوها لكبر حجم الجامع وسعة مساحته فالأجزاء الرئيسة فى هذا الصرح قد تصوحت وفى حاجة الى تجديد .. ويسجل الأستاذ كرزويل أيضا ـ ان صورة تضمها مجموعته قام بتصويرها ـ جيونتينى Giuntini ـ منذ زمن يرجع الى ثمانينات القرن الغابر للواجهة الشمالية الغربية من صحن الأزهر تستند الى دعامة ، هذا بالاضافة الى أن المسافة بين الأعمدة تستر النصف الخارجى منها ولا يبدو منها غيره) .

ويزيد على ذلك أن على مبـارك يذكر مدرسـة أقبغا ، ويقول انها بقيت على حالها لاتمس حتى قوضها ديوان الأوقاف ، وأخذ يعيد بناءها على ما كانت عليه من قبـل ، ومع ذلك لم يتم بنـاؤها ، وكان ما قاله عام ١٨٨٨ أو عام ١٨٨٩ بينما أعيد بناء الحوائط الخارجية فى الشمال الشرقى والشـمال الغربى من الواجهـة والسقف والأعمدة التى تقـوم عليها من جديد .

كما أضفى عليها الخديو توفيق الستائر الخشبية التى أقام دعائمها من قبل السلطان قايتباى ليفصـل ما بين الصحن وبهو الأعمدة ، ومن يمن الطالع أن ما قام به الخديو توفيق لم ينل من جمال وروعة الصورة التى كانت عليها فى بنائهـا المملوكى الأصيل ، وفى نفس الوقت اعاد الخديو بنـاء البواكى التى أقامهـا كتخدا حـول المحراب الجديد الذى شاده ، وأعاد بناء الحوائط الخارجية للحوانيت التى تفصل بين المحراب والطريق الخلفى .

وعند ولى الخديو عباس حلمى الثانى المنصب عام ١٨٩٢ قام بزيارة الأزهر ليرى كيف يجرى البناء فيما أمر به ، وكانت الأعمدة والبواكى التى تحيط بصحن المسجد قد أعيد بناؤها على الصورة التى تقوم عليها الآن . ما عدا سقيفة الباب التى بناها الخليفة الحافظ ، فقد بقيت على حالهـا دون تغيير يذكر .

كما تم تحسين الميضأة ، وأعيد بناء حوائط الأروقة التى تطل على الطريق من ناحيته الجنوبية .

وبعد سـنوات أربـع بدأت ازالة الحوانيت ، والمراحيض والمخازن التى تمتد فى الطريق المحاذى للمبنى جنوبا وتشوه صورته ، كما تم هدم حجرة الدراسة التى تعلو المدخل الأساسى للمبنى ، وكذلك حافة السطح من الجانب الأيسر للواجهة .

وفي سنة ١٩٠١ أكمل الخديو بناء ما عرف باسم ـ الرواق العباسي ـ من ثلاثة أدوار ، وذلك في الجانب الغربي من السياج المحيط بالمسجد ، وعندما اكتمل البناء بدا على صورة رائعة من البهاء وجمال المنظر ٠

ويضم الطابق الأول ـ أو الدور الأرضي ـ حجـــرة فسيحة ممتدة الأرجاء ، أعدت للامتحانات والمحاضرات التي يلقيهـــا شيخ الأزهـــر أو النابهون من العلماء والمفكرين أمثال الشيخ محمد عبده ٠

وأعدت الأدوار سكنا للطلاب وحفظ حوائجهم الى جانب الدراســة والمذاكرة ٠ كما أضيف الى المدرسة الطيبرسية عدد من الغرف يفصــل بينها وبين الرواق العباسي طرقة تنتهي ببوابة صغيرة تطل على الشارع الأمامي ، وتم تسقيف الجوانب الأساسية من مبنى المسجد خــلال تلك الفترة ٠

وأدى سوء الحالة الصحية وانتشار القذارة والاهمال بين الطــلاب الى الاهتمام بالنواحي الصحية والوعي الصحي بين الطلاب ـ ففي سنة ١٨٩٨ تم تعيين طبيب لرعاية الطلاب وعلاجهـــم ، فقام بتحديد أعداد الطلاب في غرف السكن ، أو أي مكان آخر يؤمه الطلاب للنوم ، وأمر بعمال للنظافة وكنس الأفنية والأروقة ، وأنشأ عيـــادة وصيدلية في الرواق العباسي وأمر بعزل المرضى من المقيمين بأمراض معدية بعيدا عن المسجد ، وفي سنة ١٩٠٤ تم بناء مستشفى حكومي قريبا من الأزهر ، وان لم تكتمل الرعاية الصحية للطلاب حتى سنة ١٩٢٩ ٠

وفي نفس الوقت زيدت الجراية من خمسة آلاف رغيف الى خمسة عشر ألف رغيف في اليوم ، وكان توزيع أرغفة الجراية في بداية القرن العشرين يتم ما بين الفجر حتى الساعة العاشرة صباحا ٠ وذلك في الجانب الأيسر من الصحن المفتوح ، وبمرور الوقت نقل الى مبنى خلف المسجد ٠ ويقوم المسئول عن الرواق بتوزيع أرغفة الجراية على الطلاب ٠

وحينذاك كان المعسرون من الطلاب يبيعون رغيفين من الأرغفة الأربعة ويكتفون برغيفين لطعامهم ٠

ورأى الشيوخ أن يتسلم الطلاب جرايتهم عينا بدلا من ثمنها لقدا فلا يتسنى للطلاب ممن تنقصهم الدراية بانفاقهـا ، ويتضـورون جوعا بعد انفاقهم ثمنها ٠ الا أنه في سنة ١٩٢٩ ، تم ابدال الجراية بما يعدلها من الثمن كل ستة شهور ٠

ومن صور الانجازات القويمـــة انشـــاء مكتبـة مركزية للجامعة الأزهرية ، ففي عام ١٨٥٣ قامت ادارة الأوقاف باعداد قائمـة للكتب للمعاهد الأزهرية ، بالقاهرة ، ضمت ١٨٥٦١ كتابا ومخطوطا ، الا أنها

وزعت على الأروقة وأهملت ، كما كان هناك العديد من المخطوطات الثمينة تم حفظها بمكان قريب من الأزهر ، دون مسئولية محددة للحفاظ عليها وصيانتها • حتى كان عام ١٨٩٦ وعام ١٨٩٧ ، وقرر شيخ الأزهر الحفاظ عليها وصيانتها بمعهدى أقبغا ، وطيبرس • فى خزانات وصناديق واتخذت الخطوات لانشاء مكتبة مركزية للأزهر •

وفى البداية ، كانت تضم ٧٧٠٣ مجلدات للعديد من ألوان المعرفة قيل انها تعرض لسبعة وعشرين منحى من مناحى المعرفة ، حملت اليها من مخازن الأروقة والمعاهد المجاورة ، وقد تباطأت بعض الأروقة فى تسليم ما لديها الى المكتبة الجديدة ، فان تفويض أمين مكتبة الأزهر الجديدة بالهيمنة على انشائها ، قد مكنه من حصر عدد الكتب بالمسجد وأروقته ، وفى عام ١٩٠٩ شكلت لجنة لاختيار وابتياع الكتب الجديدة ، ومع ما بذلته من جهد ، فان بطء الاجراءات لم يمكنها من انجاز ما تراه ، وكان العوض خير العوض فى الهدايا التى انثالت عليها من المتبرعين بكمتباتهم ومؤلفاتهم لمكتبة الأزهر •

ومع ما كان من تحسينات أخرى قليلة ، كالاضاءة الكهربائية ومواسير المياه ، لم يكن هناك ما يذكر من تغيير فى بناء الأزهر ذاته ، فيما عدا ما تناوله الأستاذ كرزويل من تفاصيل مسهبة عن عمارة الأزهر فى المجلد الأول من كتابه الأثير عن العمارة الاسلامية فى مصر •

الامام محمد عبده :

وفى الوقت الذى بدأ فيه غرس الأزهر يؤتى أكله من الناحية المادية ، حلت به اثارة فى اتجاهاته الفكرية والأكاديمية ، يرجع الفضل فيها الى الامام الشيخ محمد عبده ، فقد كانت حياته اشعاعة ضوء أضفت أنوارها على الأزهر — كما يقول — الدكتور عثمان أمين فى كتابه — (رائد الفكر المصرى الامام محمد عبده) •

وقد ولد الشيخ محمد عبده سنة ١٨٤٩ ، وما أن ألم بالقراءة والكتابة فى داره ، التحق بكتاب القرية حيث حفظ القرآن الكريم قبل أن يبلغ الحادية عشرة من عمره ، التحق بعدها بالمعهد الأحمدى بطنطا لعامين ألم خلالهما بقراءة القرآن وتجويده ، حتى اذا بدأ دراسة النحو لم ير فيه ما ينشده ، فغادر المعهد ، وحين أجبره أبوه على العودة اليه أبى ، وقصد بيت عم أبيه الشيخ درويش ، وكان من المتصوفة ، فأخذ عنه نزعته الصوفية ونصحه بأن يستكمل دراسته فعاد الى المعهد الدينى بطنطا من جديد • وانتقل الى الأزهر عام ١٨٦٦ حيث عاف الجمود والادعاء ونزع عنهما الى التصوف ، وحين آب الى زيارة عمه مرة ثانية

سـنة ١٨٧١ نصحه بأن يستكمل دراسته ليتزود بالمعرفة والنظرة الصائبة للأمور ، وفى نفس السنة التقى بجمال الدين الأفغانى ليأخذ عنه المعرفة بحقائق الاسلام ، وجدوى العلم الحديث · وأشعل فى نفسه الرغبة فى الكتابة وكان أن بدأ الشيخ محمد عبده يكتب للصحف · وكان أول مقال له بعنوان ـ رسالة الواردات ، وغضب منهـا بعض شيوخ الأزهر عند ظهورها سنة ١٨٧٤ · لانتقادها صورا معينة من الاتجاهات التقليدية ، وكان منه مازاد نفورهم منه ، ولولا تدخل شيخ الأزهر ما فاز بدرجة العالمية وأن أجيز بها دون الامتياز ، بينما تعلو على درجة الامتياز ·

وما أن حصل على العالمية سنة ١٨٧٧ أخذ يحاضر فى الأزهر عن التوحيد والمنطق وعلم الأخلاق ، هذا الى جانب حلقات الدرس فى بيته والدروس التى يندب لالقائها بالمدارس الأميرية ، وقد اتصـل بالمحافل الماسونية ، واتجه بكل اهتمامه الى النواحى الاجتماعية والمشكلات القومية التى تعتور المجتمع الذى يعيش فى رحابه ·

وفى سنة ١٨٧٩ عندما طرد الأفغـانى من مصر قال : (لقد تركت فيكم الشيخ محمد عبده وفى حكمته الكفاية لمصر) ولصداقته بالأفغانى رأى أن يعتزل فغادر القاهرة الى قريته ، ولم يمض به الوقت طويلا حتى دعاه رياض باشا ناظر النظار ليشرف على المطبوعات الحكومية بما فيها الوقائع المصرية الجريدة الرسمية ، التى تـوزع على كافة المصـالح فى القطر ·

وكان من المثير أن يرى الناس شيخا من الأزهر ، بجبته وعمامته البيضاء يتبنى اصلاح التعليم ، ويدعو لتحقيق العدالة ، وتحسين وسائل الرى ، وكل ما يعنى المصريين من أعمال وانشـاءات ، وفى هذا يقول الشيخ رشيد رضا : أية عمامة كانت ، انها تشرف بالرأس التى تقعى فوقها ، وتثير حسد أصحاب الطرابيش ، وتحظى بالكبار لابسى القبعات ·

وقد حمل الشيخ محمد عبده ومضى فيها داعيـا بالاقناع والمسالمة دون العنف والمصاولة أو الثورة ، وقد أبعد عن مصر منفيا بعد الاحتلال البريطانى وفشل الثورة العرابية لمناصرته لها ، واختـار بيروت مثوى ومقاما ، حتى دعاه الأفغانى ليوافيه فى باريس وأصـدرا مجلة العروة الوثقى وغير بعض أرديته فلبس الطربوش بدلا من العمامة ·

وفى سنة ١٨٨٥ عاد الى بيروت حيث قام بتدريس العلوم الاسلامية بالمدرسة السلطانية ، وهى مدرسة حكومية ، وفى أوقات الفراغ يعكف على تدوين كتاباته التى خلفها من بعده ، وأخيرا يعود الى مصر سنة ١٨٨٨، حيث عين قاضيا فى الأقاليم يعود بعدها فى نفس منصبه بالقاهرة وفى

العام التالى اختير عضوا فى مجلس شورى القوانين حتى اختير لمنصب الافتاء فى مصر • وكان من فتاواه ما خلد وخلد بها ذكره فى عالم الاسلام ومنها فتواه بتحليل مدخرات صندوق التوفير وايداعات البنوك ، كما كانت فتواه الأخرى ما حمل شهرته الى كافة بلاد الاسلام وهى تحليل ما يذبح اليهود والنصارى لأكلهم ، كما حلل اقامة التماثيل والصور والتصوير طالما لم يعد ثمة حذر من عبادتها أو تأليهها كما كانت الوثنية قبل الاسلام •

وكان لصحبته بالأفغانى واتصاله بالثقافة الأوربية الرفيعة ما أدى به الى دعوة المسلمين الى الصحوة والنهوض لمسايرة العالم المتقدم لا فى مصر وحدها بل فى كافة أنحاء العالم الاسلامى ، فكان من دعاة اليقظة الاسلامية والدعوة الى التجديد •

وكان يدرك تماما أن الأزهر هو المنارة التى تشع بنورها على كافة أنحاء العالم الاسلامى ، فوضع كل آماله فيه وفى احيائه والنهوض برسالته وكانت سياسته تجاه الأزهر تتسم بالطابع العلمى ، وكانت خطوته الأولى فى هذا السبيل ، أن توضع مقررات ثابتة تحل محل المقررات العشوائية التى تقوم على الاتجاه الفردى للتعليم ، وثانيا أن يمتحن الطلاب سنويا فيما يدرسون للحصول على الدرجات العلمية المقررة والمعتمدة ، وثالثا أن يزود الطلاب بالموسوعات الأصلية لأعلام الفكر الاسلامى بدلا من الشروح التى يقوم بها العلماء من وحى أفكارهم وتفسيرهم لها دون أفكار السابقين الأثيرة ، ورابعا أن تزود المناهج بالبحوث الحديثة ، مهما كانت حداثتها واتجاهاتها العلمانية ـ Secular (١) ـ وخامسا أن تكون للأزهر مكتبة مركزية جامعة

(١) هناك خطأ يقع فيه أكثر مفكرى العرب فى ترجمتهم لكلمة ـ Secular ـ فمرة بلفظ ـ العلمانية ـ وأخرى ـ بالعالمانية ، وتعنى فى المفهوم الأوربى ـ أو الغربى عامة ـ الثورة على العلم فى تناقضه مع تعاليم الكنيسة وما جاء به الكتاب المقدس • (انظر سفر التكوين) وهو ما يخالف الواقع الاسلامى ، فلم يكن ثمة خلاف بين العلم والدين فى الاسلام ، وبينما كانت الثورة على الكنيسة فيما عرف بعصر النهضة ـ Renoussanc ـ والردة الى الفكر الاغريقى ، خروجا على تعاليم الكنيسة ، كانت اليقظة الاسلامية حركة سلفية ترمى الى احياء تعاليم الاسلام المجيدة ، فلم يكن ثمة خلاف بين العلم والدين فى الاسلام ثم ان كلمة ـ Secular ـ بمعناها الدقيق ـ تعنى الدنيوى ـ وكان العقاد عملاق الفكر كما دعوته فى كتابى عنه ـ العقاد عملاق الفكر ـ أول من ترجمها الترجمة الصحيحة بلفظ ـ الدنيوية ـ فاذا أطلقت على الفكر الاسلامى بهذا المعنى فانها تعنى ألا خلاف بين الدين والعلم فى الاسلام ـ على خلاف ما تعنيه فى الفكر الأوربى ، وما كان من خلاف بين الدين والعلم ، وما كان من خصومة بين رجال العلم ورجال الكنيسة فى عصر النهضة الأوربية ، وهو ما أدى فى النهاية الى حركة مارتن لوثر فى انكاره للكاثوليكية ، وهى الحركة التى افرزت المذاهب البروتستانتية على تعدد مذاهبها ـ المترجم •

تحل محل المكتبات الملحقة بالأروقة ، وأخيرا نراه يصر على تحسين واصلاح المرافق الصحية للأزهر جامعا وجامعة ٠

ومع ما كان من أعباء ثقال على الشيخ الامام محمد عبده في وظائفه الحكومية فقد كان حريصا على دروسه في الجامع الأزهر ، حيث يتسنى له أن يزود الطلاب بالمعرفة الواسعة الفياضة فيما يعرض له من دراسات ، وأن يضفى على الطلاب من رقته واستجابته لكل ما يعرضون له من صنوف المعرفة ، وقدرته على تفسير القـــرآن بما يتفق مع العــلم النامى ، وقد أخذ بنهج الأفغانى فى تفسير ما يعرض له من مشاكل العلم ٠

ففى محاضرة من محاضرات الامام محمد عبده ســـأله الطلاب عن مكتشفات باستير ونظرية دارون في التطور ، وفي سعة معارفه وادراكه لمعانى القرآن الكريم ، رجع بهم الى ـ سورة الفيل ـ وذلك حين أغـار ابرهة على الكعبة ليهدمها خلال القرن السادس ، وان الله أرسل عليهـم طيرا أبابيل ، ولم يهتد المفسرون الى ما تعنيه ـ الطير الأبابيل ٠ وكان من اليســير على الامــام محمــد عبــده أن يقول انهــا لابد وأن تكون نوعا من الجراثيم ٠

وفى سورة أخرى هى سورة البقرة الآية الثلاثون نراه يفسر آية :

(واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفـة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم ما لا تعلمون) ٠

وقال الشيخ الامام : ان كلمة خليفة تعنى هذا المخلوق الذى سبق وجوده على الأرض وجود الانسان ٠ وكان أقرب الى القردة (١) ٠

وقد أعد محمد عبده طلابه لادراك خفايا العلم الحديث ومعضلاته فكتب ـ رسالة التوحيد ـ وغيرها من البحوث ، ليثير فيهم الايمان الواعى بروح الاســـلام ٠

وقد فكر ووضع مشروع انشاء جامعة وطنية ، الا أن الأجل وافاه قبل أن يحقق حلمه وكان ذلك سنة ١٩٠٥ ، وان ترك معالم فكره لتثرى العالم الاســلامى من أقصى المغــرب فى مراكش الى أبعــد المشرق فى أندونيسيا ، وكان لشجاعته واستنارته ، وقدرته أن بعث فى الأزهر من اليقظة والقدرة ما واجه به العالم الجديد فى تقدمه ٠

---

(١) ثبت علميا أن انسان جاوة ، أو الانسان القرد قد سبق وجود الانسان من ولد آدم على الأرض ، وهو ما تشير اليه الآية ، فسبحان الخالق ، وفوق كل ذى علم عليم ، ومعجزة القرآن أن لم يأت فى العلم ما ينكر أو ينفى ما جاء به ، وما زال فى آياته ما لم تدرك فحواها بعد ـ المترجم ٠

اصلاح الأزهر :

أشرنا الى ما كان من اصلاح الأزهر ، وأن أول قانون صدر بذلك كان عام ١٨٧٢ ، باصلاح نظام الامتحانات واختيار الشيوخ وتعيينهم ، ثم كان قانون ٢٤ مارس سنة ١٨٨٥ مؤكدا لنظام الامتحانات مع تعديلات طفيفة ، بينما جاء قانون ١٥ أكتوبر من نفس السنة معززا لقيد الطلاب فى أروقتهم بصورة أكثر نفاذا مما كان من قبل ، فقد قرر ألا يتسلم الطالب الجديد نصيبه من الجراية مالم يتم دراسة كتابين من كتب الفقه ، وان يتم دراسة منهجين من العلوم الحديثة خلال عامين ليسجل بين طلاب الرواق • ولا يسمح لطالب الالتحاق بالأزهر ، مالم يتسن له ذلك •

وبعد ثلاث سنوات صدر قانون ١٩ يناير ١٨٨٨ ، مؤكدا لنظام الامتحانات ، ولم يكن من اليسير نفاذهما قبل نهاية القرن التاسع عشر •

وخلال سنة ١٨٨٨ عمت الرغبة فى أن تتناول المناهج دراسات حديثة ، وتقدم الكثيرون الى شيخ الأزهر بأن يصدر قراره بأن تتضمن مناهج الأزهر تلك الدراسات ، وبعد أن استشار دار الافتاء والجهات الرسمية ، أعلن : (أنه يوافق على تدريس الرياضيات كالحساب والهندسة والجغرافيا مادامت تنشد الحقيقة والواقع فكل ما تتضمنه مما يقوى الايمان والاتجاه الروحى ، كالحاجة الى الطب والدواء تماما ، فأجيزت العلوم الطبيعية مادامت لاتتعارض مع ما جاءت به الشريعة ، فاذا تناولنا ما وراء الطبيعة كالسحر والشعوذة لانجاز) •

ورغم اتخاذ هذا القرار ، فان هذه الدراسات الجديدة بقيت تحتل المرتبة الثانية ، بالنسبة لغيرها من المناهج التقليدية التى بقيت • ولها الغلبة • وبقيتالكتب القديمة التي تحتويها هى السائدة ككتاب الجبرتى الذى كتبه فى القرن الثامن عشر عن الفلك ، وظل كتاب ـ ابن الهيتم ، فى الرياضيات • وقد توفى سنة ١٠٥٩ مرجعا أصيلا ومن قبيل ذلك العديد من الكتب الأخرى التى بقيت مرجعا للمواد التى تحتويها • فى الوقت الذى صودر فيه كتاب ـ ابن خلدون ـ فى فلسفة التاريخ ويرجع الى القرن الرابع عشر ، رغم اصرار الشيخ محمد عبده على تدريسه •

وفضلا عن ذلك فان المناهج وقفت دون تناول موضوعات معينة منها على سبيل المثال سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفلسفة الأخلاق فى الاسلام ، وعلم الكلام ، ولم تلق بالا الى تدريس الانشاء أو تحسين الخط ، وطرق الحوار والحساب ، وكان الاعتقاد السائد أن الطالب اذا تزود بالمعرفة القديمة والدراسات التقليدية ، فاذا أتم الدراسة كان من القدرة على القيام بما يكلف به من مهام الوظيفة التى يشغلها ؛

وفى هذا الوقت ، نقل شـــيخ الأزهر مقره الى المسجد الأزهر ، ولم تكن ادارة الأزهر قد استكملت قوامها الأصيل بعد ، ولم يكن للشيوخ دور أصيل فى ادارته وكانت مرتباتهم دون المستوى المنشود ، ولم تكن ميزانيته كافية ، فلم تتعـد ســـنة ١٨٩٢ مبلغ ٤٣٧٨ جنيهـا ، وكان ما يتقاضاه الطالب فى المرحلة النهائية لايزيد عن مائة وخمسين قرشا فى الشهر ، ومن هم دونه مائة قرش ، والمدرس البادىء خمسة وسبعين قرشـــا (*) ، ولم يكن هناك نظام للتقاعد والمعاش ، وكان المدرس عند تعيينه يفضل الجراية من الخبز بدلا من النقود ، حتى يخلو مكان فى سلك التدريس بوفاة صاحبه ، ليحل محله ويتقاضى مرتبه ، وكان الخريج حينذاك يفضل أن يترك زوجه بين أهله لاعالتها ، أو يلجأ الى الدروس الخاصة أو أى عمل يكسب منه معاشه فى ميدانه الدراسى (١) .

وفى خواتيم القرن التاسع عشر ، صدرت بعض القوانين لتحسين حال خريجى الأزهر وكان الفضل فيها للشيخ محمـد عبده ، والشيخ حسونة النواوى شيخ الأزهر . وفى عهده صدر قانون شامل باصـــلاح الأزهر نظمت بمقتضاه ادارته وأجهزته ، وساعده الشيخ محمد عبده فى كل محاولات الاصلاح ، وأنشئت مكتبة جامعة للأزهر حلت محل المكتبات المتفرقة .

وبمقتضى قانون الثـالث من ينـــاير ١٨٩٥ أنشىء مجلس ادارة للأزهر ، يتكون من شيخ الأزهر ، وممثلى المذاهب السنية الأربعـــة : الشيخ حسونة النواوى ممثلا للمذهب الحنفى ، والشيخ سليم البشرى ، للمالكى ، والشيخ حسن المرصفى للشافعى ، والشيخ يوسف النابلسى للحنبلى ، ويمثل الحـكومة الشـــيخ محمد عبده ، والشـــيخ عبد الكريم سلمان . وكانت الغاية منه أن تكون ادارة الأزهر أكثر ديمقراطية مما كان من قبل عندما كان شيخ الأزهر لايشاركه أحد فى أمر ، أكثر الأحايين . ولم يكن قانون ١٧ يناير سنة ١٨٩٥ الا توكيدا لما تقرر فى أمر الامتحانات دون تغيير يذكر ، الا أن قانون ٢٢ يونيو من نفس السنة ، كان خطوة أثيرة نحو التقدم ، فقـد نص على تنظيم الرواتب والهبـــات التى تمنح للشيوخ والطلاب ، وتقرير معاش من يتوفى لورثته .

وفى تلك الفترة صـــدرت عـدة تشريفات أضفتعلى الأزهر تلك الأهمية البالغة وهذا الأثر العظيم الذى ترك معالمه على دنيا الاسلام الى

(*) ليس من المعقول أن يكون نصيب الطالب أكبر من نصيب المدرس الذى لا يتقلد هذا المنصب الا بعد التخرج والحصول على المؤهل الذى لا يزال الطالب يسعى اليه .

(١) كان ذلك فى بداية الاحتلال الانجليزى وكانت من أسوأ الفترات فى تاريخ الأزهر ، فان النزعة الصليبية ما زالت تسيطر على نوازع المستعمرين ـ المترجم .

وقتنا هذا وقد غدت مساجد طنطا ودسـوق ودمياط من توابعه وتحت اشرافه ، وصدر قانون أول فبراير سنة ١٨٩٦ بصـورة العباءة التى يرتديها الشيوخ وفقا لدرجاتهم العلمية فى المناسبات الأكاديمية (١) وعدد الشيوخ الذين يرتدون عباءة ذوى الامتياز من الخريجين لا يجـاوز عادة خمسة عشر شيخا وعدد من يلونهم فى الدرجة العلميـة خمسة وثلاثون خريجا ، ويزيد عدد الخريجين من الدرجة الثالثـة ليصل الى خمسين خريجا ، وتزدان العباءة باللون الأرجوانى يحيط بأطرافها شريط باللون الأصفر المذهب •

وكان لتشريع أول يوليو سنة ١٨٩٦ أهميته البالغة ، مع أن الكثير مما نص عليه قد تم تعديله منذ اشهاره ، فقد تم توكيد وضـع شيخ الأزهر رئيسا لمجلس ادارته والسلطة العليا القائمة على تنفيذ قراراته وتعزيزها فى اجتماعاته الدورية ، بل ويتم الاتفاق عليها مقدما فلا تكون موضعا لخلاف ، وكان مما تم الاتفاق عليه ألا يلتحق الصبى بالأزهر قبل بلـوغه الخامسـة عشرة من عمره ، وان يكون حافظا على الأقل لنصف سور القرآن بجانب المامه بالقراءة والكتابة ، فاذا كان من العميان فان عليه أن يكون حافظا للقرآن بأكمله •

وفى هذا التشريع ــ أو القـانون ــ تم وضع المستويات الدراسية لفروع الدراسة على الصورة التالية :

أولا : مواد الدراسـة أو (المقاصد) وتضم الفقه ، والأخلاق ، والشريعة وأصول التشريع ، والتفسير ، والحديث •

ثانيا : والمستوى الثانى ويتناول الوسـائل ، ويتضـمن النحو والصرف ، الى جانب علوم البلاغة وهى المعانى والبيان والبديع ، والمنطق ويتوخى المصطلحات الأصولية لعلم الحديث ، ونعنى ــ مصطلحات الحديث ــ والحسـاب والجبر ، والنظم أو ــ علم العروض والقوافى ، الى جانب دراسات أخرى يلتزم الطلاب بدراستها كالتاريخ الاسلامى ، والانشاء ، والتربية ــ التهذيب ــ واللغة والأدب ، ومبادىء الهندسة •

وخلال السنوات الأربع الأولى ، لا يجوز للطلاب أن يقوموا باعداد أية تقريرات ، أو شروح من قبيل (الحواشى) الا بعد أربع سنوات من

---

(١) ان ما تسير عليه الجامعات الاوربية والامريكية فى مسميات أساتذتها وفى حفلات التخرج والأزياء التى يرتدونها فيها ، قد أخذته جميعا عن الأزهر وشيخ الحلقة هو أستاذ الكرسى ، والروب الذى يرتديه الخريج فى حفل تخرجـه هو العبـاءة الأزهرية ، بل ان القبعة التى يضعها الطالب فى حفل تخرجه أشبه برداء الرأس بعمامته عند شيوخ الأزهر ــ المترجم •

الدراسة ، وبعد أن يأذن لهم بذلك مجلس الأزهر ، فلا يتسنى للطالب الذى تنقصه الموهبة أو النضج العقلى فلا يغشى تفكيرهم هرطقة أو أفكار ضالة ·

والعطلات الدراسية فى الأزهر خلال شهر رمضان وعيد الفطر وعيد الأضحى ، الى جانب الاحتفال بمولد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحفيده الحسين وولى الله سيدى أحمد البدوى ، كما كانت هناك اجازة وفاء النيل ، وسفر المحمل فى الحج الى مكة ·

كما قرر القانون نفسه ـ ١٨٩٦ ـ اجراء امتحان بعد ثمانى سنوات من الدراسة ، ودراسة ثمانيـة مقررات · وتتكون لجنة الامتحان من شيخ الأزهر وثلاثة من مشايخ العلماء ، ويمنح الطالب الناجح شـهادة تدعى ـ الشهادة **التاهيلية** (*) ، تعده لامامة مسجد والقاء خطبة الجمعة ، أما الشهادة العليا ـ وتدعى ـ العالمية ـ فقد بقيت على ما كانت عليه دون تغيير وتمنح لصاحبها بعد دراسة اثنى عشر عاما فى الأزهر ، وهى نفس السنوات التى يدرس فيها الطالب لدرجـة الدكتوراه فى النظام الحديث ·

وقرر القانون أيضا قواعد وجزاءات صارمة تضمنتها لائحته لتنظيم العلاقة بينه وبين المعاهد التابعة ·

وخلال سنة ١٨٩٧ ، قرر ديوان الأوقاف ، وهو الهيئة الحكومية المسئولة انشاء المكتبة العامة للأزهر ، واتخذ مقرا لها ذلك المبنى الرائع الذى أقامه طيبرس وأقبغا على الجانبين الأيمن والأيسر لبوابة الأزهر ـ المسجد ـ وتدل ميزانية ديوان الاوقاف حينذاك على ما كان من اصلاحات حققت ما تناولته قوانين ١٨٩٥ و ١٨٩٦ ، وانشـــاء المكتبة المركزية للأزهر · وهو ما يشير الى الجهد الكبير أيضا لجذب طلاب الأزهر الى العلوم الحديثة بتقرير المنح والهبات للطلاب الفائزين فى الامتحانات ، ففى عام ١٨٩٦ كانت ميزانية ديوان الأوقاف للمعاهد التابعة فى طنطا ودسوق ودمياط والاسكندرية على الوجه التالى :

٥٥١٦ جنيها لمعاهد طنطا ودسوق ودمياط والاسكندرية ·

٢٠٠٠ لتعزيز المرتبات ·

قرارات لديـــوان الأوقاف لتعزيز قرارات قانـون ١٨٩٦ على الوجه التالى :

(*) يمنح الطالب الناجح شهادة تدعى الشهادة الأهلية ·

٦٠٠ زيادة فى مرتبات ٢٤ مدرسا ٠

٦٠٠ جوائز وهبات للطلاب ٠

٦٠٠ مرتبات للأعمال الاضافية فى الاشراف ٠

٣٦٠ مكافآت لتشجيع الطلاب على دراسة الرياضيات والتاريخ -

١٥٠ نفقات ادارية عامة ٠

٤٦٢ لمكتبة الأزهر ٠

بداية القرن العشرين :

وكان لما تم من اصلاحات جدواها فيما أصبح عليه الأزهر فى بداية القرن العشرين ٠

ففى سنة ١٩٠٢ كان هناك تسعة وخمسون مدرسا لا يحملون مؤهلا و ٢٥١ آخرون اجتازوا الامتحان وحصلوا على مؤهل ، منهم ٧٤ حصلوا على المؤهل من المستوى الأول ، وهو ما يجيز لهم تدريس المواد الصعبة بالطريقة التى يجيدونها ، ومائة وثلاثة حصلوا على المؤهل من المستوى الثالث ، وهو ما يجيز لهم تدريس مواد أقل مستوى ، كما كان هناك عشرون مدرسا أجيز لهم تدريس مواد حديثة كالجغرافيا ، والحساب والانشاء ، منهم مائة من اتباع المذهب الشافعى وسبعة وسبعون من المالكية ، واثنان وسبعون من الحنفية ، واثنان من الحنبلى ٠

وعندما زادت الميزانية الى أربعة عشر الفا من الجنيهات ، زادت مرتبات الشيوخ عما كانت من قبل ، فأصبح مرتب شيخ الأزهر واحدا وسبعين جنيها شهريا بالاضافة الى ايراد أربعمائة فدان من الأراضى وخمسة وسبعين رغيفا جراية يومية توزع على مريديه ، كما منح الخديو مائة من الشيوخ مرتبا شهريا يتراوح ما بين ٢٠ و ٣٠ جنيها ، الى جانب هدية لكل منهم عباءة مزدانة بلونها الأرجوانى علامة على التشريف ٠

وبقى العديد من المشكلات فى انتظار الحل ، ومما يرويه الدكتور طه حسين أنه كان هناك فى قريته ثلاثة من الشيوخ ، يمتلك أحدهما حمارا يعمل عليه ، وكان الثانى أميا ، وأما الثالث فكان مقرئا لا يعى ما يقرأ عندما يلقيه على الفلاحين ، فاذا شيوخ القرية على هذا المستوى من الجهل فان علينا أن نتصور ما يمكن أن يكون عليه أبناء الفلاحين من أهل الريف ٠

وثمة كتاب كتبه سنة ١٩٠٤ الشيخ الأحمدى الظواهرى بعنوان (العلم والعلماء) دون فيه ــ وان كان فيه شىء من المبالغة ــ حقائق

مثيرة عما كان حينذاك ، يقول فيه ان الولد الفقير النازح من قريته الى الأزهر لفقره ولأنه لا يجد ما يقيته فينزح الى الأزهر ويعيش داخل المسجد فريسة للفقر ، والهوام القاتلة ، ولما كان الشيخ لا يتابع دراساته ، وما عليه الا أن يلتحق بحلقة تفوق استعداده ومستواه ليكون قريبا ممن فيها من أهل قريته ، فلا يعي مما يقال شيئا ، ويدرك أخيرا أنه يعيش فى تسيب لا يعيه ، فلا يفيد مما يلقيه الشيخ شيئا ويصبح أسير الكسل والتراخي ، وليس فى قدرته قراءة الصحف ، ولا أن يصادق أحدا خارج الأزهر ، ويمضى به الوقت فلا يرى من معالم القاهرة ولا يدرك شيئا عن العالم الخارجي ، ويصبح فى حالة يرثى لها . فلا يدرى ما أمامه أو ما وراءه وما عن يمينه أو شماله ، أو فوقه أو تحته .

وعندما يتحدث الشيخ الظواهرى فى هذا الكتاب الذى سطره فى بواكير حياته ، عن المسجد ، يقول : (لا أستطيع أن أتصور أن يوجد ثمة مكان في العالم في حالة تدعو الى الاحباط والمرارة بل والتشوش كهذا التشوش القائم فى أعظم معاهد الدنيا اجلالا واكبارا ، الأزهر العظيم) . ويمضى قائلا ان العلماء على قدر كبير من الحصافة ، ولكن تعوزهم روح الايمان . وان كانت هناك قلة ضئيلة تقبل على معرفة كل ما هو جديد ، وتؤمن بما للناس من قدرة على استيعاب الفضائل ومعنى الخلق الرفيع ، أما الكثرة فلا تلقى بالا الا لما كان تراث الماضى وتقليد الأقدمين ، وقد أصابهم الركود ، وقلة الاكتراث بحاجة المجتمع والمطالب الاجتماعية .

وكان على الطالب أن يقضى اثنتى عشرة سنة ، للتمكن من أداء الامتحان بينما نراه مع التوجيه والرعاية العلمية والنظام يكتفى بسنوات ثمان لتحقيق المستوى المنشود لأداء الامتحان ، وان كان يضم أكثر من سبعة آلاف طالب من صغار السن وكبارهم فان قلة ضئيلة هى التى تجتاز الامتحان فى تلك السنوات ، وكان أكثرهم يهجر الدراسة سعيا وراء القوت ، ومنهم من يلوذ به حتى يوافيه الأجل .

هذا وان كان فى هذا الوصف شيء من المغالاة ، فان من اليسير ادراك ما كان سنة ١٨٩٥ حين قام الطلاب السوريون بأعمال عنف ، وبعد سنوات من ذلك التاريخ كان موقف الطلاب من بعض الزوار الغرباء ، مما حمل لورد كرومر على منع الغرباء من زيارة المسجد فى الدورة التالية ، مما يفسر ما كان من معارك بين المحافظين الذين وقفوا ضد أى تغيير فى المناهج وطرق الدراسة ، والمجددين الذين يطالبون بتدريس العلوم الحديثة واللغات الأجنبية وتطبيق طرق التعليم الحديثة .

وحين ولى الشيخ سليم البشرى مشيخة الأزهر سنة ١٨٩٩ حتى سنة ١٩٠٢ ، دفع بعجلة التقدم الى الأمام ، فحمل عليه الجامدون من

المدرسين والطلاب والصحفيين والأعيان وتصدوا لمعارضته مما حمل الخديو على اعفائه من المنصب ، ووقع الاختيار على الشيخ على الببلاوى ليكون شيخا للأزهر ، الا أن الخديو لسوء الطالع قد أخذ يتدخل فى شئون الأزهر أكثر مما يطيق الشيخ الببلاوى فاستقال ، ولم يرض أن يجامل الخديو ، أو يأخذ جانبه ضد الشيخ محمد عبده ، وكان أن استقال الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده بدوره من مجلس ادارة الأزهر ، وخلف الشيخ الببلاوى على مشيخة الأزهر الشيخ عبد الرحمن الشربينى فأخذ جانب الجامدين وجعل يدلى بتصريحات للصحفيين حمل فيها على دعاة الاصلاح والتقدم واتهمهم بأنهم حولوا الأزهر الى مدرسة للفلسفة ودراسة الآداب ، وأغفل الدراسات الاسلامية والدينية فخبت شعلته التى بقيت تضىء بلادنا هذه ويغشى نورها كافة بلاد الاسلام (١) ٠

الا أن ارتكاسته ما لبثت أن قضت حين تولى الشيخ حسونه النواوى مشيخة الأزهر للمرة الثانية ، فأصدر قانون الخامس من مارس ١٩٠٨ ، بانشاء المجلس الأعلى للأزهر يشرف على ميزانيته والنواحى الادارية الأخرى للمعاهد الدينية التابعة ، وكان من أعضائه الى جانب رئيسه شيخ الأزهر ، المفتى الأكبر ، من اتباع المذهب الحنفى ، ورؤساء المذاهب الأخرى ، ورئيس مكتب الخديو للشئون العربية ومدير عام الأوقاف ٠ وللمرة الثانية يقع النزاع بين شيخ الأزهر والخديو لتدخله فى سياسة الأزهر ، فيستقيل ويخلفه الشيخ سليم البشرى الذى لا يحب الطفرة ، ولكنه فى اعتزازه برأيه ، وتقديره لما يجرى به القانون ، أخذ فى تنفيذ ما اقتضاه قانون فبراير ١٩٠٩ فى السنة السابقة ولم تمض شهور حتى أخذت حركة التجديد تمضى على طريقها القويم ٠ وتصبح ولها اليد العليا ٠

ومضت حركة الاصلاح والتطوير قدما الى الأمام ، اذ جاء قانون ١٥ أكتوبر ١٩٠٩ ، وهو يقضى بتطوير المناهج التى قررت سنة ١٩٠٨ ، وفى العام التالى شكلت لجنة قامت بوضع (مشروع الاصلاح) وقدمته الى مجلس الوزراء ، وجاء قانون ٢٧ سبتمبر ١٩١٠ ، ايذانا باصدار لائحة البرامج الجديدة ، كما جاء على تفصيلها قانون ١٣ مايو ١٩١١ ، وقد اعتمده الخديو عباس حلمى الثانى ، بعد أن صدق عليه مجلس الوزراء ، برئاسة محمد سعيد باشا ، وقد تضمن عدة مواد ادارية ، وأولها أن

---

(١) ومما يذكر خلال توليه المنصب ، أن الشيخ الظواهرى – وقد أصبح فيما بعد – شيخا للأزهر ، ألف كتابا أسماه – العلم والعلماء – دعا فيه الى اصلاح الأزهر ، فقام الشيخ الشربينى بادانته وأمر بجمع نسخه واحراقها ، فاذا وجدت نسخة منه لدى أحد الشيوخ أمر بعزله ، وكذلك عزل كل من يسمع عنه انه اقتناه ، مما حمل الشيخ محمد عبده على التصدى له ، على صفحات الصحف والمجلات ، وكان الشيخ محمد عبده قد ضاق بتدخل الخديو ، وقيل انه رفض أن يكون من اتباعه أو مؤيديه – كما هو معروف – المترجم ٠

الأزهر هو الجامعة الكبرى التى تتبعها وتتفرع منها المعاهد الدينية فى طنطا ودسوق ودمياط والاسكندرية أو أى معهد آخر جديد · كما تبعته مدرسة القضاء الشرعى ، وان سبق قيامها التنظيم الجديد اذ أنشئت عام ١٩٠٧ · واصبح شيخ الأزهر هو الرئيس الأعلى لها جميعا ، وهو المسئول عن الاشراف عليها وادارتها ·

وتقرر أن يكون لكل مذهب من مذاهب الشريعة ، ولكل معهد دينى أقيم أو يقام شيخه المسئول ، ولكل قسم من أقسامه أستاذه المشرف ·

وأصبح المجلس الأعلى للأزهر فى قوامه الجديد يضم شيخ الأزهر رئيسا ، وإمام الحنفية وكيلا ، وضم الى عضويته أئمة المذاهب الأخرى ، والمدير العام للأوقاف الى جانب ثلاثة أعضاء آخرين يعينهم مجلس الوزراء ، وأعيد تنظيم مجلس الادارة ، وسكرتارية الأزهر ، ومجالس المعـــاهد التابعة ، وكل ما يتم فيها من تعيينات للوظائف أو شغلها ·

كما تضمن القانون الجديد مدة الدراسة فى كل مرحلة وحددهـا بأربع سنوات ، للابتدائى والثانوى والعالى ·

وتم تطوير المناهج لمراحل الدراسة على الصورة التالية

١ ـ **التعليم الابتدائى :** حفظ القرآن وتجويده ، التفسير ، الحديث ، الفقه ، سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، النحو ، الانشاء ، تحسين الخط ، الامـلاء ، المطالعة ، الحســاب ، الهندسة ، الرسم ، التاريخ ، الجغرافيا ، التاريخ الطبيعى ، الصحة وعلم وظائف الأعضاء ·

وتتم دراسة هذه المواد موزعة على السنوات الأربع المقررة للمرحلة وفقا للمستوى والسن المقررة ·

٢ ـ **التعليم الثانوى (المرحلة الثانية) :** الفقه ، السلوك والأخلاق ، فلسفة التشريع (الشريعة) · النحو والصرف ـ التفسير ـ الحديث ـ الجبر ، تقويم البلدان ـ الصحة ووظائف الأعضاء ـ التاريخ الطبيعى ·

٣ ـ **التعليم العالى :** (أ) الدين ـ الشريعة ـ فلسفة التشريع ـ الفقه : التفسير الحديث ومصطلحاته ـ العقود والمرافعات ·

(ب) اللغويات ـ الخطابة ـ العروض والقوافى ـ الأدب العربى ·

(ج) المنطق ـ نظم التشريع والادارة ـ الأوقاف ـ المواريث ـ المحاكم الشرعية ، مناهج التربية ، نظريا وعمليا ·

ومما تناوله قانون ١٩١١ تحـــديد مواعيـــد العطلات الدراســية ، فالعطلة الصيفية خلال شهرى يوليو وأغسطس ، واجازة رمضان وتبدأ قبله بثلاثة أسابيع وتنتهى بعد الافطار بعشرة أيام · ثم اجازة عيد الأضحى

ومدتها عشرة أيام وقد تقرر فيما بعد شرط للالتحاق بالدراسة الابتدائية ، الا يقل سن التلميذ عن عشر سنوات وان يلم بالقراءة والكتابة ، وأن يحفظ على الأقل نصف القرآن ، وأن يشهد له بحسن السلوك والأخلاق ، وتمام الصحة ، كما أجيز لمن يتم دراسته الابتدائية بجانب حقه في الالتحاق بالمرحلة الثانوية ، أو السماح له بتعليم الصبية · ولمن يتم دراسته الثانوية أن يلتحق بالدراسات العليا · أو يؤذن له بتعليم القراءة والكتابة ، أو يقوم بامامة مسجد ووعظ المصلين أو يعمل مأذونا لعقد الزواج والطلاق · ولمن أتم دراسته العليا الحق في التدريس ، أو ولاية منصب في المحاكم الشرعية ، ولا يؤذن للمدرسين والطلاب في الأزهر بالاشتراك في المظاهرات السياسية ، ولمن يتكرر غيابه أن يلاقي جزاءه ، ولا يسمح لمدرسي الأزهر أن يقوموا بعمل آخر دون اذن ، واذا ما تكرر غيابه يلاقي جزاءه ، وعقاب الطالب اما الزجر علنا أو مواجهة ، والحرمان من الحضور ، أو الانذار ، أو وقف الجراية ، أما المدرس فعقابه الخصم من المرتب ، أو خفض درجته المالية ، وقد يحاكم أمام المجلس الأعلى ومما هو جدير بالذكر في قانون ١٩١١ انشاء هيئة كبار العلماء من ثلاثين عالما ، منهم احد عشر عالما من أتباع المذهب الحنفي ، الى تسعة من أتباع المذهب الشافعي ، ومثلهم من أتباع المذهب المالكي وواحد حنبلي ·

وقد تضمن قانون ١٩١١ عديدا من المسائل المتنوعة التي تتناول العديد من وجوه الاصلاح منها تكليف لجنة لدراسة الكتب المقررة للدراسة وتقرر مكافأة خمسمائة جنيه للمؤلف الذي يضع كتابا مقررا في المنهج الدراسي ، ولا يعتمد ما لم يقره المجلس الأعلى ويراجع أسانيده ومراجعه

وفي سنة ١٩١٦ صدر قرار بأن كل ما يتناول المعاهد الثابتة لابد وأن يعرض على المجلس الأعلى قبل اقراره ، وعلى شيخ الأزهرأن يدعو شيخ المعهد التابع لحضور الاجتماع ، فان لم يتسن له الحضور فان عليه أن ينيب من يمثله في الاجتماع ·

وكان لهذه القرارات والقوانين المتلاحقة أثرها الفعال في كيان الأزهر واعلاء شأنه ، وان كان الملاحظ أن العدد الأكبر من الأساتذة والعلماء ، ظل بمنأى عن الدراسات الحديثة التي أخذت تقتحم دراسات الأزهر في تلك الفترة ·

ولم يكن لبناء الأزهر القديم رغم سعته وبهائه ، من الرعاية ما يزيد على ما كان له من قبل ، وكان ما أضيف اليه فحسب الرواق العباسي في الركن الجنوبي الغربي من سياج الأزهر ·

والى ما قبل الحرب العالمية الأولى بقى الأزهر مدرسة جامعة مما دعا الى تغيير اسمه من **الجامع الأزهر الى جامعة الأزهر** . وان عزف بعض المسئولين من رجال الحكم عن الموافقة على هذه الخطوة .

وان كان الأزهر فى واقع الأمر قد غدا وله القيادة الفكرية والثقافية حينذاك ، حتى ان بعض الطلبة من المسيحيين قد التحقوا به بادعائهم الاسلام ، ليفوزوا بهذا المنصب الأوفر من التعليم فى رحابه (١) .

وحين أنشئت الجامعة المصرية سنة ١٩٠٨ ، وهى التى تعرف الآن باسم - جامعة القاهرة - لم يعد الأزهر وحده مركز التعليم العالى .

وتتضمن لائحة اصلاح الأزهر ما كان عليه قبيل الحرب العالمية قبل سنوات قلائل من بداية الحرب العالمية الأولى : ففى سنة ١٩١٠ بلغ عدد طلاب الأزهر من كافة الأعمار ٨٢٤٨ طالبا ، بالاضافة الى ١٥٨٩ من الطلاب الجدد ، وكان تعدادهم جميعا ٩٨٣٧ طالبا ، وكانت الدراسة أربع سنوات فى كل من مراحله الابتدائى ، والثانوى والعالى . وكان عدد الفصول ١٧٧ ، تستغرق ٣٧٨١ ساعة للتعليم أسبوعيا يعمل فيها ٣١٦ من المدرسين يعمل كل منهم ما بين عشر ساعات الى اثنتى عشرة ساعة خلال الاسبوع بالاضافة الى عدد من المدرسين للحساب والخط . بالاضافة الى عدد من المدرسين يعملون بعد الاحالة الى التقاعد .

وكان مرتب شيخ الأزهر ٧٢٠ جنيها فى السنة بالاضافة الى حصة من الصابون والزبد والسكر والعسل وشموع الاضاءة وأخشاب الوقود ، والقمح والبقول ، ويتقاضى وكيل الأزهر ستمائة جنيه سنويا ، والمفتش العام ٣٣٦ جنيها ، وسكرتير المجلس الأعلى ٥٤٠ جنيها ، والمدرس الأول ٢٤٠ جنيها ، والمدرس من ٧٢ جنيها الى ١٩٢ وفقا لدرجته المالية ، أما الكاتب فلا يزيد مرتبه عن ٣٠٠ جنيه سنويا .

وبلغت ميزانية سنة ١٩١٠ ما يزيد على ٢٣٢ر٤١ وبضعة مليمات ، وهى ما تساوى مائتى ألف دولار ، يضاف اليها بعض الهبات من الخديو وميزانية وزارة المالية . ويبدو من كل هذا ، أن الأزهر مع ما لقى من رعاية منذ حكم محمد على ما زال فى حاجة الى الكثير ليقوم بدوره كجامعة عصرية .

---

(١) اذكر فى مرحلة تعليمى الابتدائى ، أن كانت هناك مدرسة بالزقازيق تدعى - مدرسة عبد المسيح بك موسى للمرحلتين الابتدائية والثانوية وكان ناظرها عزيز أفندى ممن درسوا فى الأزهر وتخرج منه - المترجم .

الحرب والثورة :

وخلال الحرب العالمية ، لعبت الحركة الوطنية دورهـا الفعال فى تاريخ مصر ، فقد ألم بالمصريين خلالها غضب مرير من فرض الحماية على مصر ، من ناحية امتد أثره الى حياة الفلاح والقرية المصرية ، فكل ما كان يعنى الانجليز كسب الحرب ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى زعامة سعد زغلول أحد أبناء الأزهر ، فما أن أمضيت الهدنة ، حتى قام وجماعة من أقطاب مصر بتكوين الوفد المصرى يطالبون باستقلال مصر ، فلما نفى وبعض الزعماء الى مالطة بدأ طـلاب الأزهر وطلبـة مدرسـة الحقوق مظاهراتهم ، وسرعان ما تحولت الى ثورة دامية ، حين أطلق الانجليز النار على طلاب الأزهر عقب الصلاة وقد خرجوا هاتفين بالحرية والاستقلال ، فقتلوا ثلاثة عشر مصريا وأصيب ثلاثون بجراح ٠

وكان الانجليز فى غاية القسوة والعنف ، وممـا يرويه ــ شيرول فالنتين (١) : أن طالبا من الأزهر ضربه الانجليز ضربا مبرحا ، وجلد عشر جلدات ، وسجن ثلاثة أشهر ٠

ويعرض المؤرخون المصريون لحركة الأزهر وطلابه فى تلك الفترة ٠ بمزيد من الفخر والاكبـار ودورهم الباهر فى الثورة ، فما من أمسية الا ويمتلىء الأزهر بالوافدين حيث يخطبهم الشيوخ ويهتف الطلاب بما يثير فيهم الحماس ويشعل فى أفئدتهم حمية الوطنية ، وحين سأل الانجليز شيخ الأزهر أن يقفل أبوابه دونهم ، وأبى ذلك ، وقال ان الأزهر مفتوح للصلاة فى كل آونة ، وحين منع الانجليز التجمعات الوطنية وتصدوا للمظاهرات ، ازدادت الثورة عنفا ، واجتمع فى رحاب الأزهر المسلمون والأقباط يخيطون الثوار ، وأصبحت المساجد والكنائس محافل للثورة ، وفى يوم من الأيام جاء الأزهر أحد كبار القساوسة ووقف خطيبا يثير الطلاب ويدفعهم الى التحدى ومحاربة الانجليز ، وظهر الهلال والصليب متعانقين ، وكان مما قاله ان الانجليز احمرت أشداقهم حين ولغوا فى دماء المصريين ، وحمله الطلاب هاتفين ، وحملوه الى منبر الأزهر ، ليخطب الطلاب مَن فوق قبته ٠

وهدأت الثورة حين جاء لورد اللنبى مصر مندوبا ساميا فوق العادة ، واذن للمنفيين بالعودة ، وصدر تصريح ٢٨ فبراير ، وغدا السلطان فؤاد ملكا على مصر ، مع بعض التحفظات المعروفة ٠

---

(١) Chirol Valentine : The Egyptian Problem, pp. 177-180.

ما بين الحربين :

أصبح السلطان فؤاد ملكا على مصر ، وخلال حكمه أصبح الأزهر فريسة لتيارات ثلاثة تنوشه : القصر ، النفوذ البريطاني ، وزعماء الحركة الوطنية • ولما كان الملك قد أضفى سخاءه على الأزهر ، فقد اتخذ جانبه أكثر شيوخه ، مما نزع بزعيم مصر سعد زغلول ، الى التصدى ليكون الأزهر ، فى رحاب الحركة الوطنية مؤيدا لها • ولم يكن هذا بجديد ، فالكل يقترب من الأزهر ويبقى الأزهر منارة العلم ، يقول شيخ الأزهر كلمته فينصت لها الجميع ، ويخشاها الحاكم وان دانوا له بالولاء •

ولم يشأ سعد زغلول أن يكون للقصر من السلطان عليه ما يعوق اشراف الدولة على أمواله وميزانيته ، فنقلها الى وزارة المالية بوزارة الأوقاف ، كما صدرت قرارات عديدة كان لها أبعد الأثر فى تنظيم شئونه ، وجاء قانون ٢٦ أغسطس ١٩٢٣ ، ليحدد وظائف الخريجين وفقا لمجالات تخصصهم ، فما أن يحصل الطالب على اجازته العلمية ، فان عليه أن يتجه الى الميدان الذى يتيحه له تخصصه فى الميادين التالية : التفسير ، الفقه ، أصول الدين (التوحيد والكلام) ـ النحو ـ التاريخ الاسلامى ، ويشمل تاريخ العلوم العربية والاسلامية • وقد تناول هذا القانون تحويل القضاء الشرعى الى الأزهر فاذا اجتاز الطالب احدى هذه الدراسات منح (شهادة التخصص) •

وصدر قانون آخر فى ٤ مارس ١٩٢٥ بتبعية مدرسة دار العلوم الى الأزهر ، وان بقيت تحت اشراف الوزارة ، لتقوم برسالتها فى تدريس اللغة والأدب العربى وفقا للمناهج الحديثة ، وكان قد تقرر تدريس الرياضيات ، والتاريخ والجغرافيا ، والصحة ، والتاريخ الطبيعى فى المدارس الابتدائية والثانوية ، وقد حالت الظروف السياسية ، حين ولاية الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوى مشيخة الأزهر دون تنفيذ اصلاحاته بعامين تاليين ، ولكنه استطاع أن يقود السفينة فى هذا الجو العاصف بقدرة وكفاءة حتى لقى ربه • وبسبب ما كان من تنافس بين الحكومة والقصر على النفوذ فى الأزهر ، صدر قانون ٣١ مايو ١٩٢٧ ، بأن تكون مالية الأزهر وتعيين شيوخه من اختصاص الوزارة ، دون الملك • وان كان قد عدل سنة ١٩٣٠ ، الا أنه نفذ من جديد سنة ١٩٣٥ •

وفى خلال الحرب العالمية الأولى كانت القاهرة مركز العمليات العسكرية فى الشرق الأوسط ، ومع ما شهدته القاهرة من أحداث الحرب ، والأوضاع العديدة للقوات المحاربة سلوكا ومظهرا ، لم يكن لها ثمة أثر على حياة الأزهر وسلوك طلابه وأرديتهم فظلت العمامة تاجا لرؤوسهم ، والجبة رداءهم الأثير • وظلوا فى حفظهم لدروسهم ، كما كانوا من قبل ، ولم يكن ثمة اصلاح يؤثر أو يلفت النظر ، ومن قبيل ذلك أنه

حذف مبلغ خمسمائة جنيه من الميزانية تقررت فى العام الأسبق لطبع بعض الكتب المقررة ولم تنفذ · وفى نفس السنة ، وقع الجزاء على مدرس من شيوخ الأزهر بالخصم من مرتبه لتاليفه كتابا لطلابه فى أحد المعاهد الدينية التابعة للأزهر ، وعرض فيه لنقد المناهج المقررة ·

وفى نفس السنة (١٩٢٥) جدت ثلاثة أحداث تراكبت واحد بعد الآخر وكان لها دويها الصاخب حينذاك :

وأول هذه الأحداث ، أن الشيخ على عبد الرازق ألف كتابا بعنوان (الاسلام وأصول الحكم) فصل فيه ما بين الدين والخلافة ، وبرهن على أن الخلافة ليست أصلا من أصول الاسلام ، وانما دفع اليها حاجة المسلمين الى نظام يسوس الدولة الناشئة ، وليس ثمة صلة دينية بين قواعد الاسلام واقامة نظام الخلافة الاسلامية ، الا ما تقتضيه ادارة الدولة من شئون الحكم وفقا لدنيا المجتمع وحياته (١) · وتمت محاكمته أمام هيئة من كبار علماء الأزهر ، فأدانته وأصدرت حكمها بتجريده من العالمية وفصله من وظيفته ، وفى العام التالى أصدر الدكتور طه حسين كتابه (الشعر الجاهلى) قال فيه ان كل ما ينسب الى شعر العصر الجاهلى ـ قبل الاسلام ـ من قصائد ـ ليس بصحيح وأنها دونت فى عصر لاحق بعد الاسلام ، وكذب ما قيل من بناء ابراهيم واسماعيل للكعبة وهل كانت ديانة ابراهيم حقا من الاسلام ، وأقام الأزهر الدعوى على الدكتور طه حسين الا أن المحكمة رفضت اقامة الدعوة ، لعدم الاختصاص ، الا أن الكتاب رغم تراجع الدكتور طه حسين قد أثار من المرارة والغضب ما يفوق كل تعبير · أما الحدث الثالث فهو ما كان من حملة على الشيخ محمود شلتوت سنة ١٩٣١ انتهت بفصله لتقديمه مشروعا باصلاح الأزهر لم يلق ترحيبا ، ولنا أن نتصور مدى التغير الذى ألم بمصر حين اختير الشيخ شلتوت شيخا للأزهر سنة ١٩٥٨ ·

وفى سنة ١٩٢٩ صدر قانون لتنظيم صرف الجراية لتكون نصف سنوية نقدا بدلا من الخبز ، وحتى ذلك الوقت كانت حياة الطلاب بسيطة غاية البساطة ، وكان الطلاب المتزوجون يتركون زوجاتهم فى رعاية أهليهم ، ولم يكونوا كغيرهم من الطلاب يمارسون أى نشاط اجتماعى ، ولم تكن لهم ثمة صلة بأخواتهم من الفتيات ، فاذا رئى أحدهم وقد ارتدى عباءته يتحدث الى امرأة أو يعاقر نوعا من المسكرات صاحوا به غاضبين ليفر هاربا بجلده وقد جلله العار (٢) ·

(١) لمزيد من التفاصيل اقرأ ـ الاسلام والسياسة ـ والاسلام والدولة العصرية ـ والدولة والحكم فى الاسلام ، وغير ذلك من المؤلفات ـ للمترجم ·

(٢) يقول المؤلف ، انه سمع ذلك من أحد الخريجين ، وان كنا نعتقد ان فيها من المغالاة ، والتلفيق ما يدعو الى تكذيبها ·

ومن ناحية أخرى كان الطلاب يخضعون للهياج السياسى ، وعندما توفي الشيخ مصطفى الجيزاوى ، واختارت الحكومة بديلا له الشيخ محمد مصطفى المراغى ، شيخا للأزهـــر ، لم يلق اختياره رضاء ، العديد من المشايخ ، وظنوا به الظنون وانتهب الفرصة المغرضون من رجال الأحزاب المناوئه فأثاروا الطلاب ولم يجد الشيخ المراغى بدا من الاستقالة ، واختار الملك بديله الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى وقد عرف بحزمه وقدرته على الاصلاح ورضاء الملك عنه ، وكان من أسباب نجاحه أنه حصر كل همه فى اصلاح البرامج التعليمية والنهوض بالأزهر ، بينما ذهب الشيخ المراغى متحررا من كل ما يعوق الفكر والتفكير العقلى السليم (١) .

وكان له من ماضيه ومن تأييد المسئولين أن صـــدر قانون ١٥ نوفمبر ١٩٣٠ ، وصدق عليه الملك فؤاد ، بتحويل الأزهر الى جامعة ، ثم تبعه قانون ١٩٣٣ مكملا له ، ولحق به قانون ١٩٣٦ ، ليضع القواعد العامة لما ينشده من بناء الكيان العام للأزهر دون الدخول فى تفاصيل معقدة .

وكان أول ما قام أن فصل التعليم الابتدائى والثانوى من التبعية المباشرة للأزهر واتبعها المعاهد الدينية فى القاهرة والاسكندرية وطنطا والزقازيق واسيوط ودسوق ودمياط ، وقد تمت اقامتها سنة ١٩٣٠ ، وأضيفت دراسات جديدة الى معاهد القاهرة وطنطا والمنيا وسوهاج وقنا لدراسة الدين واللغة العربية لمن تعوزهم المقدرة على دراستها دراســة منتظمة حيث يقيمون .

وخصص للدراسات العليا ثلاث كليات جامعية افتتحها الملك فؤاد سنة ١٩٣٢ ، هى : كلية أصول الدين ، وقد أقيمت فى مكان ميل مازالت تحتله الى وقتنا هذا الى الشمال من القاهرة ، وألحقت بها مدرسة الوعظ والارشــاد التى أنشئت سنة ١٩١٢ ، وكلية الشريعة الاسلامية ، وقد أنشئت بداءة بالقرب من الركن الجنوبى الشرقى لقصر عابدين مكــان مدرسة القضاء الشرعى ، وقد عدت أخيرا جزءا من كلية الشريعة ، وكلية اللغة العربية ، وقد احتلت هذا المبنى القديم .

وتضـــمن قانون ١٩٣٠ ، المناهج العــالية ، وقد ألغيت من منهج الدراسة الابتدائية بعد ذلك .

---

(١) وقد نرى فى ذلك ما يخالف منهجه حين أصدر كتابه ـ العلم والعلماء ـ ولعله رأى ذلك أقرب الى تحقيق الاصلاح ـ المترجم

ومن قبل كان أئمة المذاهب الأربعة يشرفون اشرافا تاما على الدراسات الأكاديمية ، وما أن أنشئت هذه الكليات حتى انتقل الاشراف العلمى الى عمداء الكليات الثلاث ، فضلا عن القيام بادارتها •

ولحق قانون ١٩٣٠ ، قانون آخر صدق عليه الملك فؤاد فى ٢٩ مايو ١٩٣٣ بانشاء دراسات عليا للخريجين ، تقوم على التخصص العلمى ، وذلك على الوجه التالى :

الفقه وتمتد الدراسة ثلاث سنوات •

الوعظ والارشاد والدراسة هى الأخرى لثلاث سنوات •

التربية والدراسة لعامين يقوم الدارس بالالمام التام بعلوم التربية والدراسات العقلية •

ويشترط للالتحاق بهذه الدراسات العليا أن يجتاز الطالب اختبارا شفاهيا وآخر تحريريا ، وأن يتقدم ببحث أو رسالة مدبجة •

كما أن للطالب الحاصل على شهادة العالمية بتفوق ، الحق فى الالتحاق بدراسة عليا لمدة ست سنوات على الأقل ليحصل على درجة أستاذ وتعادل الدكتوراه فى الجامعات الأوربية •

ولا يكون له الحق فى الالتحاق بهذه الدراسة ما لم يتم دراسة كل ما يتصل بتخصصه من الموضوعات المقررة ، وأن يعتمد المجلس الأعلى للأزهر ترشيحه وقبوله ، وأن يسجل اسمه للدراسة خلال السنوات الأربع التالية لحصوله على العالمية ، وأن يجوز الامتحانات المعدة — وهى امتحانات صعبة — بتفوق ، وأن يقدم بحثا يتسع لكتاب من تأليفه •

وفى الوقت الذى تمت فيه تلك الاجراءات الدراسية ، قدم الملك فؤاد الاعتمادات المالية لازالة الأبنية القديمة التى تحيط بالأزهر وتحجبه عن أنظار المارة والزوار • كما قام شيخ الأزهر باقامة صلات تربطه بكافة بقاع العالم الاسلامى والمجتمعات الاسلامية فى أى مكان •

ومما يؤثر عن نشاطه ايفاده العديد من البعوث العديدة الى البلاد التى تتواجد بها جاليات اسلامية كالصين واليابان والحبشة وجنوب أفريقيا وغيرها للتعريف بالاسلام •

ومن آثاره الحميدة اصداره مجلة الأزهر ، وانشاء مطبعة تقوم بطباعتها وقد صدر أول اعدادها سنة ١٩٣٠ باسم — نور الاسلام — ثم صدرت بعد سنوات باسم — مجلة الأزهر •

ومع ما قام به الشيخ الظواهرى من جهد أثير ، لم يخل من نقمة المعارضة ، وحملة الناقمين ، فمن ناحية أخذ الناقمون من دعاة التقدم عليه

اتجاهه المحافظ ، كما برم به سبعون شيخا من المسـنين ابعادهم عن التدريس . وتقم عليه حزب الوفد تقربه من الملك ، فأثار عليه الطلاب ، وكان الانجليز بدورهم يميلون الى عودة الشيخ المراغى وكان موضع ثقتهم منذ عمل قاضيا بالسودان ، فلما اشتدت الحملة عليه رأى الاستقالة ، وخلفه الشيخ المراغى شيخا للأزهر للمرة الثانية . وكان أول ما قام به أن حمل الملك على اصدار قانون ٢٦ مارس ١٩٣٦ بمراجعة وتقنين ما جاء فى قانونى ١٩٣٠ وقانون ١٩٣٣ فى صـورة شـاملة ، ليكون الأزهر المعهد الدينى والعلمى الأعظم فى العالم الاسلامى ، لنشر الشريعة واللغة العربية وتعليمها ودعم مكانتها ، وأن الشيخ الذى يختاره الملك من كبار العلماء هو الصورة المثلى لرجال الدين والشرع أينما كانوا وحيثما يعملون . ولم يكن ثمة تغيير ملحوظ فى تشكيل المجلس الأعلى للأزهر ، وان كان ما يؤثر بالذكر من الناحية العلمية ، أن تم الاتفاق على أن للمجلس الأعلى للأزهر أن يحدد عدد الطلاب الذين يقبلون فى المعاهد التابعة للأزهر للدراسة الابتدائيـة من حيث السن والصحة وحفظ القرآن ، وأن يلم بالقراءة والكتابة ومبادىء الخط والحساب .

وأطلق اسم الشهادة التى تمنح بعد أربع سنوات من الدراسة ـ شهادة الدراسة العالية ـ أما اتمام الدراسة مع التخصص فعرفت باسم ـ الشهادة العالمية مع الاجازة ، أما الشهادة العليا المعادلة للدكتوراه فهى ـ الشهادة العالمية مع درجة استاذ .

وقد أضيفت دراسة الفلسفة الى منهج الدراسة فى كلية الشريعة ، بينما أضيفت اللغة الأجنبية وأصول الفقه الى الدراسة بكلية الشريعة . بما يتيح له العمل بالمحاكم الشرعية ، أو دار الافتـاء ، أو المحاماة امام المحاكم الشرعية .

أما التخصص فى الوعظ والارشـاد فيعـد صاحبه للعمل فى هذا الميدان ، أما دراسة التربية فتؤهل للعمل فى ميدان التدريس بالمعاهد الأزهرية أو المدارس الأميرية .

ومع ما كان من اللوائح والتشريعات التى أجيزت خلال الفترة ما بين سـنة ١٩٣٦ وسـنة ١٩٥٩ فلم يكن لها أهمية تذكر ، ويمكن تلخيصها فيما يلى :

فى سنة ١٩٤٥ أنشىء قسم فى كلية اللغة العربية لقراءة القرآن وتجويده ، كما تم العديد من المعاهد التابعة للأزهر فى شتى انحاء القطر ، كما سيأتى تفصيله فيما بعد .

كما تم تنظيم ـ جماعة كبار العلماء بحيث يمثلها ثلاثة من أعضائها في المجلس الأعلى ، واحد عن كل من الكليات الثلاث تعينهم كلياتهم لمدة ثلاث سنوات من كبار أساتذتها ، ويوافق على اختيارهم مجلس الوزراء ٠

كما تم تعديل المناهج منذ صدر قانون ١٩٣٦ ، فأضيف الى المنهج في المدارس الثانوية ، التربية الوطنية واللغة الانجليزية ، مما سنأتي عليه في الفصل السادس ٠ بينما تم حذف مادة العروض والقوافي من المنهج بينما أضيف الى المنهج الأدب المقـــارن والفقه وعلم الاجتماع ، والتاريخ الاسلامي ، وعلم المنطق ، والفلســـفة ، والجغرافيا والخط ، والتربية الاجتماعية ٠

وفي سنة ١٩٥٥ اختصرت دراسة التخصص في التربية من سنتين الى سنة واحدة ، وفي نفس الوقت اختصرت دراسة دبلوم التخصص من ست سنوات الى ثلاث سنوات عى الأقل أو خمس سنوات على الأكثر ، كما قسمت السنة الدراسية الى فصلين ، بشروط معينة للقيد والامتحانات واعداد البحوث المقررة وهو ما نعرض له في الفصل السادس ٠

وفي نفس السنة تمت الموافقة بمقتضى قانون ١٩٣٦ على تنظيم بناء الأزهر وانشاء أبنية جديدة لاقامة الطلاب والحق بها مستشفى وصيدلية ومعهد ديني للقاهرة ٠

وفي تلك السنوات التي صدرت فيها تشريعات تنظيم الأزهر ، كان التعليم في مصر قد خطا خطوات واسعة في التقدم أبعد مدى مما كان عليه في السنوات السابقة ، وهو ما نتبينه في البيان التالي لاعداد الطلبة المقيدين في المدارس الأميرية والجامعات في الســـنوات المذكورة ، وفقا لاحصاء وزارة المعارف العمومية :

السنة الدراسية	البنـين	البنات	المجموع الكلي
١٩١٣ ـ ١٩١٤	٢٤٨٥٧٢	٢٩٢٧٦	٢٧٧٨٤٨
١٩٤٤ ـ ١٩٤٥	٦٠٣٤٧٤	٤٤٣٠٠٨	١٠٤٦٤٨٢
١٩٥٤ ـ ١٩٥٥	١٤٨٥٣٤٢	٧٠٠٠٨٣	٢١٨٥٤٢٥

ومضت دور التعليم التابعة للوزارة والجامعات صورة لما يجرى عليه التعليم في أوربا وأمريكا ، وهو ما جرى عليه الأزهر ومعاهده الملحقة ، والى جانب تلك المعاهد الحكومية قامت هيئات أجنبية بانشـــاء عدد من المدارس كان لها أثرها البالغ في تطوير مناهج التربية والتعليم في مصر ٠ وغدت جامعة القاهرة ومضى الأزهر في اثرها ميدانا للارتقاء والتقدم العلمي الاثير

وكان الأزهر فى خلال حكم محمد على قد أصبح المعهد الذى يزوده بحاجته من الطلاب الذين يلحقهم بمعاهده ومدارسه التى قام بانشائها فى مصر لسد حاجته منها ، وكانت للمؤلفات والكتب والبحوث التى قاموا بتأليفها أهميتها البالغة فى دفع عجلة التقدم والاستنارة (١) .

وكان للأزهر دوره الأثير فى تطوير البحوث وطرق التـــدريس حينذاك ، ومضى على الطريق حتى اذا كانت الحرب العالمية الثانية . كان الأزهر قد اكتملت له كل المقومات لمواكبة التقدم العلمى الجديد .

الحرب العالمية الثـانية :

أصبحت القاهرة قاعدة لقوات الحلفاء فى الشرق الأوسط ، وغدت ولها أهميتها الاستراتيجية البالغة فى حربهم ضد هتلر ، ومع حاجة قوات الحلفاء الملحة للتموين والامدادات العسكرية من الذخائر وما تحتاجه من أصلاح وتأمين سبل الاتصال للقوات المحاربة ، قامت صـناعات جديدة وزادت الحاجة الى الأيدى العاملة والخبرة الفنية المصرية ، فارتفع مستوى الأجور مما أدى الى ارتفاع مستوى المعيشة رغم الغلاء الطارىء . كما زادت الحاجة الى الزراعة والانتاج الزراعى للأرض .

ومع ما كان من أوضار الحرب لم يقف ذلك حائلا دون التفكير فى الاحتفال بالعيد الألفى للأزهر ، أى بمرور ألف عام على انشائه حيث بنى سنة ٣٦١ ، وفقا للتقويم الاسلامى (٢) ومن ثم فان الاحتفال بمرور ألف عام على انشائه يقع سنة ١٣٦١ وفقا للتقويم القمرى وهو ما يوافق سنة ١٩٤٢ وفقا للتقويم الشمسى .

وفى هذا التاريخ أعد الملك مأدبة لعشاء فى قصره لشيوخ الأزهر وطلابه ، الى جانب تقديم عشاء لطلاب الأزهر ، كما أصدر طوابع بريد بصورة الأزهر من فئة عشرة مليمات ، وخمســـة عشر مليما ، وعشرين مليما ، وتاريخ انشائه ، لم يتح لها التداول ، حتى سنة ١٩٥٧ ، وبعد ذلك بسنوات ثلاث صدر طابع بريد جوى بستين مليما بصـورة مئذنة الأزهر ومحرابه .

وقد حدث سنة ١٩٤٣ أن تظاهر الطلاب احتجاجا على اقامة علاقات سياسية بين مصر والاتحاد السـوفيتى ، احتجاجا على ما تلقى الجاليات

---

(١) للمزيد من هذه التفاصيل يرجع الى الكتب التالية للدكتور حسين فوزى النجار : رفاعة الطهطاوى : رائد فكر وامام نهضة ، وعلى مبارك : أبو التعليم ، وأحمد لطفى السيد ، أستاذ الجيل .

(٢) لما كان المؤلف قد أصدر كتابه هذا عن الأزهر اعلاء وتمجيدا له للقارىء الأوربى والامريكى ، فانه كثيرا ما يلجأ الى تقريب المصطلحات العربية والاسلامية الى المفهوم الغربى تبسيطاً لمتناها لهم ، ويعنى بالتقويم الاسلامى التقويم الهجرى — المترجم .

الاسلامية فيه من سوء المعاملة ، وفي العالم التالي ـ ١٩٤٤ ـ تظاهر طلاب الأزهر ، وكانت هذه المرة احتجاجا على شـيخ الأزهر ، لأنه اتخذ جانب الملك ضد الزعماء السياسيين ، وتوتر الموقف فعطلت الدراسة ، وأوقف شيخ الأزهر وأبعد الى حلوان حتى أقيلت وزارة الوفد ٠

وبعد وفاة الشيخ المراغي سـنة ١٩٤٥ ، خلفه الشـيخ مصطفى عبد الرازق شيخا للأزهر وكان من رواد الشيخ محمد عبده ، وتلاميذه ، عمل استاذا للفلسفة بجامعة القاهرة ،ثم وزيرا للأوقاف ، وخلال شياخته للأزهر ، أخذ يحث الطلاب على دراسة اللغات الأجنبية ، وأوفد البعوث لاستكمال دراساتهم بالخارج ٠

وكانت السنوات التي تلت الحرب العـالمية الثانية مليئة بالأسى والخطل ، وكان التوتر والصراع الدائم بين الملك والانجليز ، والزعمـاء السياسـيين وقد خيب الملك ما كان من أمل فيه ، وغدا التضـخم المالي مشكلة عويصة ٠ كما جرت حرب فلسطين في أعقابها الفساد والرشوة وما قيل عن صفقات الأسلحة الفاسدة ، ولم يعد ثمة استقرار في الحكم ، ولم يطل الوقت بأية وزارة في الحكم ٠

وخلف الشيخ مصطفى عبد الرازق على مشيخة الأزهر ستة شيوخ واحداً بعد الآخر ٠

وفي تلك الآونة بدأ الاخوان المسلمون يمارسون نوعا من العمل السياسي ، وقد بدأ مؤسسها الشيخ حسن البنا دعوته لتجديد الاسلام وأحكام دعوته ، وكثر أتباعه ومريدوه بين الأزهريين شـيوخا وطلابا ، واجتاحتهم السياسـة وأوضارها (١) ، ففي الثـاني عشر من ديسمبر ١٩٤٧ قام شيعتها وأقطابها بمظاهرة في الأزهر داعين الطلاب في مكبرات الصوت وفي رتل من السيارات انساحوا الى القاهرة وشوارعها متظاهرين هاتفين ٠

وفي غمار هذا التيه والفوضى الجائشة ، تم تعزيز ميزانية الأزهر سنة ١٩٥٠ ، لاقامة الجامعة الأزهرية الجديدة ، وكان ذلك من أهم ما لحق به من تطور واصلاح ، وفيما بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٥١ قام بناؤها على امتداد الجانب الشرقي من المسـجد القديم ، وأقيمت قاعة الاجتماعات الفسيحة ، على ما هي عليه الآن ، كما أقيم بناء لكلية الشريعة وآخر بكلية اللغة العربية ، وبقيت مدرسة القضاء الشرعي في مقرها القديم الى الشمال من مدينة القاهرة ٠

---

(١) مازال تاريخ الاخوان المسلمين مليئا بالغموض ، وهو ما عرضت له في كتابي حياة جيل ـ وفي رصدي لتاريخ تلك الفترة ، ويبدو أن كثيرا من العملاء طرقوا أبوابها وقادوها الى العنف ، ولم يكن من طبيعة الشيخ حسن البنا ولا من شمائل الاسلام ـ المترجم ٠

وقد غمر البناء الجديد الطلاب بالأمل فى مستقبل كان خير عوض لهم عن الحنين الى الماضى القديم : بعراقته ومآثره .

وفى السادس والعشرين من يناير ١٩٢٥ ، كان حريق القاهرة المؤسى ، حين انثال الدهماء والغوغاء الى الشوارع مخربين وناهبين ، فاحرقوا فندق شبرد ، والنادى الانجليزى ــ نرف كلوب ــ والعديد من دور السينما والملاهى والمطاعم .

وحين أقيل النحاس باشا كان ذلك ايذانا بالخلل وعدم الاستقرار السياسى ولم يعد ثمة أمل فى الاستقرار .

واخيرا وفى الثالث والعشرين من شهر يوليو ١٩٥٢ ، قام جماعة من الضباط بالاستيلاء على الحكم فى انقلاب سلمى .

وبدأت حقبة جديدة فى تاريخ مصر وفى تاريخ الأزهر الحافل .

فصل السابع : الأزهر بعد ألف عام

الثـــورة :

في الســـادس والعشرين من يوليو ١٩٥٢ ، خلع الملك فاروق عن العرش ، وخلفه ابنه الطفل على العرش ، وفي الثـامن عشر من يونيو ١٩٥٣ ، أعلن ضباط الثورة نهاية الملكية وقيام حكم جمهوري ٠

ومع قيام حكومة مركزية برئاسة المقدم جمال عبد الناصر ، لم يعد الأزهـــر حشية للتنافس بين الملك والانجليز والوفد ٠ وخضعت حيـــاة الطلاب لرقابة صارمة ، وانفسح المجال أمام الطلاب لحياتهم الدراسية دون التهيج السياسي ، ولقي شيوخ الأزهر ما يحفزهم على النشـــاط العلمي للاسهام في بناء مصر ، ورعاية النشـــاط العلمي ، وفتح أبواب الأزهر للوافدين من الطلاب الآسيويين والأفريقيين ، لتزويدهم بالمعرفة الاسلامية في عالم جديد ٠

وسخر شيوخ الأزهر كل ما لديهم من جهد لبناء الجمهورية وتعزيز كيانها ، وعندما وقع الهجوم على قناة السويس ، نزع الطلاب الى التدريب العســكري ٠

وبعد ذلك بسنتين حين دعا شيخ الأزهر الى رعاية ما يقتضيه صوم رمضان ، لم ينس أن يشير الى ما يقتضيه الصـــيام فدعا الى تقديم كل ما يملكون من معونة الى جمهورية مصر العربية ٠ وفي مارس ١٩٥٩ ، حين هدد الشيوعيون في العراق الوحدة العربية التي تتبناها مصر ، أعلن شيخ الأزهر الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الجديد الحرب المقدسة على الشيوعيين الذين يهددون الاسلام ويحاولون القضاء عليه والعودة به الى الجاهلية الآفلة وبقي الأزهر بعد عشرة قرون من الأحداث التي تعاورته المنارة السامقة في عالم الاسلام منذ قام بناؤه ٠ ففي عام ١٩٥٨ ، كان الرئيس عبد الناصر يؤمه خلال شهر رمضان كما كان الفاطميون من قبل حين انشائه ، وكأنما الزمن وأحداثه لم تنل منه شيئا ٠ ففي نهاية شهر يناير ١٩٥٨ حين أعد لقيام الجمهورية العربية المتحدة ، قام رئيسا مصر وسوريا بمراسم الصلاة في الأزهر ، وفي الرابع والعشرين من أكتوبر

١٩٥٨ قام وزير الأوقاف في الأزهر واحتفى فيه باليوم العالمى لقيام الأمم المتحدة ، وفى مارس ١٩٥٩ قام الأمير محمد البدر ولى عهد اليمن بأداء صلاة الجمعة فى الأزهر ، ودعا بالرحمة لضحايا العدوان الشيوعى فى العراق .

ومع ما كان من بناء الأزهر سنة ٣٦١ الهجرية ، فانه لم يبدأ دوره التعليمى بصورة منتظمة الا فى سنة ٣٧٨ وفقا للتقويم القمرى (الهجرى) ولما كان التقويم الاسلامى – (الهجرى) لسنة ١٣٧٨ يوافق العام الدراسى لسنة ١٩٥٨ – ١٩٥٩ – وقد مر على الأزهر ألف سنة كان خلالها منارة العلم ، فان علينا أن نلقى بلمحة على دوره وما أصبح عليه خلال تلك السنوات الغاربة من تاريخه ، حتى آل أمره الى جمهورية مصر العربية ، وقد بدأ رسالته حين نقل الخليفة العزيز الفاطمى حق الاقامة والمعيشة لخمسة وثلاثين طالبا فى انقطاعهم للدراسة بالمسجد .

وقد أصبح منهج الدراسة فى الأزهر على عهد جمهورية مصر العربية ، متوائما مع التعليم الدينى ، وفقا للمنهج العلمى الحديث الذى تقوم عليه الدراسة فى وزارة التربية والتعليم . مما يقتضى منا أن نعرض لنظام التعليم فى الأزهر وفقا للنظام الجديد .

الجامعـــة :

أو الجامعة الأزهرية أو جامعة الأزهر ، وتقوم على ثلاث كليات :

١ – كلية اللغة العربية لدراسة اللغة والأدب العربى .

٢ – كلية الشريعة الاسلامية ، وتزود الطالب بدراسة كاملـة للتشريع الاســلامى .

٣ – كلية أصــول الدين

دراســـات اضـــافية :

١ – معهد البعوث الاسلامية ، وقد أعد لاستقبال الطلاب الأجانب ، وفقا لمنهج دراسى يؤهلهم للدراسات العربية والاسلامية . ويبدأ بالدراسة الابتدائية ثم الثانوية وأخيرا الدراســة العليا وكل مرحلة منهـــا أربع ســنوات .

٢ – معهد التوجيه ، وقد أنشىء خلال العام الدراسى ١٩٥٨–١٩٥٩ . لاعداد الرجال للخدمات الخارجية ، كما يعد الطـلاب الأجانب للالتحاق بالأزهر ، لدراسة مقرره .

٣ – معهد القراءات : ومدة الدراسة أربع ســنوات لتعليم الطلاب

قراءة القرآن وتجويده ، وكانوا يتلقون دراستهم بمبنى الأزهر اذ لم يكن له مقر خاص ٠

المعاهد الدينية :

وكانت على الصورة التالية :

١ ـ المعاهد النظامية

وكان منها اثنــان وعشرون معهدا تتبع الأزهر مباشرة وتخضــع للوائحه ، أقيمت لها مبان على أحدث طراز وقد زودت بكل ما يحتاجه الطلاب للاقامة والاعاشة ، وتضــم جميعــا المرحلتين الاعدادية والثانوية فيما عدا أربعة منها قاصرة على المرحلة الابتدائية فقط ٠

وكان معهد طنطا وحده يضم ألفي طالب ، بينما يضم معهد القاهرة ومعهد الزقازيق ، ومعهد المنصورة ما يزيد على ألف طالب ٠

٢ ـ المعاهد الحرة :

وعددها سبعة وعشرون معهدا تنتشر فى أنحاء القطر وتتبع الأزهر بدورها ، وتضم المرحلتين الابتدائية والثانوية ماعدا أربعة منها قاصرة على المرحلة الابتدائية ٠

مستوى الادارة :

وشيخ الأزهر هو الرئيس الأعلى لهذه المعاهد جميعا وله الاشراف التام عليها ، ادارة وتنفيذا ومتابعــة للدراســة ، وكافة ألوان الأنشطة الأخرى ٠

وهو صاحب الرأى والمشورة لدى السلطات العليا للدولة فى كل ما يتصل بالشئون الاسلامية ٠

وقد اختير الشيخ محمود شلتوت لشغل هذا المنصب سنة ١٩٧٨ ٠ وكان لكل كلية عميدها ، ولكل عميد وكيل ، وقد زودت الكليات بحاجتها من السكرتارية والموظفين الاداريين والماليين ، ولكل كلية سجلاتها الخاصة بقيد الطلاب ، وادارة الامتحانات وقيد الناجحين والراسبين ، ولهــا مكتبتها الخاصــة ، ومطبعتها ، وسجل خاص لقيد الطلاب الأجانب ٠ ويشرف على ادارة المعاهد مجلس الأزهر الأعلى ، وله الأمر والنهى فى كل ما يتصل بها من أمور ٠

ولكل كلية مجلس للادارة ٠ وفى سنة ١٩٥٨ تكونت ثلاث لجان تضطلع بالمسئولية فى الأمور التالية :

١ ـ الثقافة الاسلامية من حيث الوعظ والارشاد وشئون الطلاب الأجانب والبعوث الخارجية والاشراف على المكتبة والصحيفة ، والمطبعة ، وقاعة المحاضرات .

٢ ـ الكتاتيب الخاصة بتحفيظ القرآن وتلاوته للفقراء من الأطفال .

٣ ـ ما يتصل بالكليات من شئون ويقوم بها ، مجلس الجامعة الأزهرية ولكل كلية ممثلها بالمجلس الأعلى للأزهر .

وتطبيقا لقانون سنة ١٩١١ ، تم تكوين هيئة كبار العلماء من ثلاثين شيخا ، ولما كان أكثرهم من كبار السن ، فاما أدركتهم الوفاة أو أحيلوا الى التقاعد ، رئى اتباع نظام الجامعة وصدر قانون سنة ١٩٥٤ بذلك ، ويقضى :

١ ـ أستاذ كرسى .

٢ ـ أستاذ مساعد .

٣ ـ مدرس .

وأصبح لكل كلية اسلامية هيئة من المدرسين ممن يحملون مؤهلات جامعيــة عليــا ـ الدكتوراه والماجستير ـ أما من دونهم من حيث المؤهل فميدانهم التعليم الابتدائى والثانوى .

وفى خلال السنة الدراسية ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ ، كان عدد الأساتذة والمعيدين فى الجامعة ، وعدد مدرسى المدارس ، كما يلى :

٢٨٠ فى كليات الجامعة الأزهرية الثلاث .

١٤٣ فى المعاهد المعدة للطلاب الأجانب .

١٣٧٧ فى المعاهد الدينية .

١٨٠٠ المجموع الكلى .

ولا يشمل هــذا العــدد العــاملين فى المعــاهد والكليات من الكتبة والاداريين والقائمين على الرعاية الصــحية للطــلاب ، أو أعضــاء المكاتب الاسلامية فى الخارج ، هذا بالاضــافة الى ثمانمائة واعظ يعملون فى المساجد التابعــة للأزهر ، أو يقومون بتدريس الدين فى مدارس مصر عامة .

وأكثر العاملين فى هذه الوظائف ممن تلقوا تعليمهم فى الأزهر ، ومن الأســاتذة البارزين من حصلوا على الدكتوراه من جامعــات انجلترا وفرنسا وألمانيا ، ومما يؤثر الآن أن الأزهر يوفد المتقدمين من طلابه الى أوربا وأمريكا ، ليقوموا بالتدريس بعد حصولهم على الدرجات العلمية ، فى جامعة الأزهر .

ولم يعد الأزهر اليوم كما كان فى القرن التاسع عشر

المبنى الجديد :

وحتى بداية القرن العشرين لم يكن ثمة تغيير يذكر فى مبنى الأزهر ٠ الا أن ما قام به الملك فاروق من تبليطه بالرخام وفرشه بالسجاد قد أضفى على المحراب نوعا من البهاء ، ولما كانت الدراسة فيه قاصرة على تحفيظ القرآن وتجويده فقد بقى المسجد القديم مصلى للجامعة ، وكثيرا ما يلجأ اليه الطلاب لقضاء أوقات الفراغ فى صحن المسجد الفسيح ٠

وقد أقيمت ادارة الأزهر عبر الميدان القائم الى جوار بوابة المسجد الأصلية ٠ وكان ذلك سنة ١٩٥٦ ويضم ادارة الأزهر وكلياته ، ويؤدى اليها سلم فسيح الدرج ، يؤدى الى شرفات بهيجة ذات نوافذ عريضة تطل على أبهائه الداخلية ٠

أما المكاتب فقد أقيمت على أحدث طراز وزودت بالفرش الثمينة ، والتليفونات للاتصالات الخارجية والداخلية ، وليس هناك ما ينقصها من وسائل الراحة من المقاعد الوثيرة والفرش الزاهية بصورتها الاسلامية الرائعة ٠

والى الجانب الشرقى من المسجد مساحة فسيحة يطل عليها حوش الجامعة الجديد المطل على الفناء المفتوح ، وقد أصبح صالحا بعد ازالة القديمة المتداعية سنة ١٩٥٥ ، لاستيعاب كل فصول الجامعة ٠ والى اليمين من مدخل الفناء الجديد ، أقيمت قاعة المحاضرات من طابقين ومنارة فى ركن من أركانها ، وتم بناؤها سنة ١٩٥٠ لتسع أربعة آلاف طالب ، وقد زودت بكل وسائل التهوية على أكمل وجه ٠

سجلات الطلاب :

لا توجد تسجيلات دقيقة للطلاب فى الفترة السابقة على سنة ١٨٤٦ ، وحتى الفترة التالية لا نجد من الاحصاءات ما يستند الى مصادر مؤكدة ٠

وان كان الاحصاء التالى أوفى ما يمكن أن نرجع اليه ٠

السنة	عدد المقيدين	السنة	عدد المقيدين
١٨٤٦ ـ ١٨٤٧	٧٤٠٥	١٩٠٨ ـ ١٩٠٩	٩٠٠١
١٨٥٥ ـ ١٨٥٦	٥٩١٠	١٩١٨ ـ ١٩١٩	١٥٨٢٦
١٨٦٧ ـ ١٨٦٨	٤٧١٢	١٩٢٨ ـ ١٩٢٩	١١١٥٧
١٨٧٥ ـ ١٨٧٦	١٠٧٨٠	١٩٣٨ ـ ١٩٣٩	١٣١٦٣
١٨٩٨ ـ ١٨٩٩	٨٢٤٦	١٩٤٨ ـ ١٩٤٩	١٨٥٨٢
		١٩٥٨ ـ ١٩٥٩	٣٩٠١٦

وتشمل هذه الاحصائية طلاب المرحلتين الابتدائية والثانوية وترجع الزيادة الملحوظة فى اعداد الطلاب الى افتتاح هذا العدد الكبير من المعاهد فى كافة أنحاء القطر ٠

وقبل ما جد من اعادة تنظيم الأزهر سنة ١٩٣٠ ، نرى أن توزيع الطلاب وفقا للمذاهب الأربعة كان على الوجه التالى :

السنة	حنفى	شافعى	مالكى	حنبلى
١٨٧٥	١٢٧٨	٥٦٥١	٣٨٢٦	٢٥
١٨٩٢	١٧٧٤	٣٩٤١	٢٥٠٨	٣٦
١٩٠٢	٢٩٥١	٤٥٦٩	٢٦٥٤	٢٩

وفى السنوات التالية لسنة ١٩٥٠ نرى التسجيل يتم وفقا للوحدات الدراسية دون المذاهب الشرعية ٠

الطلاب الأجانب :

حين نتناول من كانوا يتخذون من الأزهر سكنا ومقاما خلال القرن الخامس عشر ، يذكر المقريزى انهم كانوا من الفرس ، والزنوج والفلاحين المصريين ، والشمال الأفريقى ٠ وان كنا نعرف انه خلال الحكم العثمانى كان الأزهر يضم أعدادا كبيرة من الطلاب الأجانب ٠ وان كانت لا توجد أية احصاءات تسجل ذلك ، الا ما كان من التقرير الذى تقدم من مصطفى بيرم لمؤتمر هامبورج سنة ١٩٠٢ ذكر فيه أن الأزهر كان يضم ٦٤٥ طالبا أجنبيا : ١٠٤ من الأتراك و ٩ من الأكراد ، و ٢٦٤ من السوريين بما فيهم اللبنانيين والفلسطينيين ، و ٢ عراقى و ٥ من الحجاز والجزيرة العربية و ٧ من الهند ، و ٥ من الأفغان و ٧ من جاوه ، و ٢٠ من تونس و ٥١ من طرابلس فى الشمال الأفريقى و ٢٧ من الجزائر ، و ٢٢ من مراكش و ١١٨ من وسط أفريقيا ، ، و ٦ لا تعرف هويتهم ، و ١٢ من وسط أفريقيا يمثلون ٦ من الحبشة و ١٢ من دارفور و ٢٨ من سنار و ٢٧ من الدكارنة و ٤٥ من البربر فى الشمال الافريقى ٠

وفى العام الدراسى ١٩٤٥ ــ ١٩٤٦ ، بلغ عدد الطلاب الأجانب ٨١٤ طالبا وبعد ذلك بسنتين بلغ عددهم ٩٩٩ طالبا ٠

وفيما يرويه الشيخ محمود أبو العيون السكرتير العـام السـابق للجامع الأزهر ، أن هؤلاء الطلاب الأجانب قد جاءوا اليه من طرابلس وتونس والجزائر ومراكش والسودان ، والصومال وبروناى ، وجنوب أفريقيا ونيجيريا وأوغندا وسوريا والعراق ، والجزيرة بما فيها اليمن ، وجاوه وسيلان والهند والصين واليابان وروسيا والقوقاز ، وآسيا الصغرى

وكردستان ، وأفغانستان ، وتركيا ، والبانيا ويوغوسلافيا وبولندا وبلغاريا ٠

وعندما انتهت الملكية فى مصر ٠ كان للطلاب الأجانب من المنح المالية ما للمصريين ، فكانوا يتقاضون بدل الجراية من ثلاثة جنيهات الى خمسة شهريا ، ومع ما كان سنة ١٩٥٨ ، من قطع بدل الجراية للمصريين فيما بعد المرحلة الابتدائية ، تقرر للطلاب الأجانب تسعة جنيهات شهريا لمن هم فى المرحلة الجامعية وثمانية جنيهات لمن هو مقيد للدراسة فى معهد دينى ، وفى سنة ١٩٥٩ قرر المجلس الأعلى للأزهر أن يكون لشيخ الأزهر فى حالات خاصة الحق فى رفع هذه المنحة الى خمسة عشر جنيها للطلاب الأجانب كحد أقصى شهريا ٠

ومع نهاية ما عرف بنظام الأروقة فقد أعد للطلاب الأجانب أماكن للاقامة فى مدينة ناصر للبعوث الاسلامية ، وفى العام الدراسى ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ ٠ كان عدد الوافدين من الطلاب الأجانب ٢٧٠٨ طلاب ، تضمهم عشرون وحدة سكنية ٠ مما نأتى على تفصيله فى الفصل الخامس ٠

الطلاب العميان :

وقد قام الأزهر دائما برعاية العمى من الطلاب ليواجهوا الحياة قادرين على تكاليفها ، فمنهم من أعد لحفظ القرآن وتجويده فى المناسبات التى تقتضيه خاصة أو عامة ٠ ومنهم من يزود بدراسات أعلى للعمل فى الكتاتيب الدينية مما نأتى على تفصيله فى الفصل التالى ٠

الانفاق (الميزانية) :

ومن الأرقام التالية نتبين كيف اتسعت ميزانية الأزهر ، وهو ما نرجع فيه الى الاحصاءات الرسمية التى دونت لأول مرة ، فقد تضاعف الانفاق لمواجهة زيادة المرتبات ، وانشاء معاهد جديدة و ـلات التضخم التى أعقبت الحرب وهو ما تسفر عنه الأرقام التالية فى خلال السنوات التى واكبتها :

السنة	الدخل	السنة	الدخل
١٨٩٢ ـ ١٨٩٣	٤٣٧٨	١٩٣٠ ـ ١٩٣١	٣٣٥٩٦٤
١٩٠١ ـ ١٩٠٢	١٤٠٠١	١٩٤٠ ـ ١٩٤١	٣٤٢٦٠٠
١٩١٠ ـ ١٩١١	٤٩٧٢٠	١٩٥٠ ـ ١٩٥١	١٢٣٠٩٠
١٩٢٠ ـ ١٩٢١	٢٠٦٨٨١	١٩٥٨ ـ ١٩٥٩	٢١٢٥١٠٠

الميزانية خلال السنة الدراسية ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ ٠

الدخــل

الجراية	٥٩٧٠٠
الانفاق الحكومى	١٧٧٤٤٧٥
معونة خاصة	٥١٢٥
الانفاق الحكومى لمواجهة التضخم	٢٠٠٠٠٠
اعانة الأوقاف	٢٥٨٠٠
المجموع الكلى	٢١٢٥١٠٠

ومع ما كان من تبعية الأزهر للادارة الحكومية ، أصبحت أوقاف الأزهر بدورها خاضعة لوزارة الأوقاف ·

الدراســـة :

كان على الغلام الذى يود الالتحاق بالأزهر فى مرحلته الابتدائيـة أن يجيد القراءة والكتابة ، وأن يلم بمبادىء الحساب والاملاء ، وأن يبلغ سن الحادية عشرة حافظا للقرآن ·

والدراسة فى المعـاهد الدينية أربع ســنوات فى المرحلة الابتدائية وخمس سنوات فى المرحلة الثانوية ، والسن التى يتلقى فيها التلميذ دراسته ، تتواءم مع السن التى لأمثاله فى المدارس الأوربية والأمريكية · ولسنا فى حاجة للقول بأن التلميذ فى المرحلة الابتدائية ، لا يتلقى من الدراسات الدينية ما يعجم عليه من قبيل دراسة الفقه والتفسير ، وان كان عليه أن يتعلم مضمون القرآن وتعاليمه الدينية ، أما تلاميذ المرحلة الثانوية فانهم قد بلغوا السن التى تمكنهم من استيعاب الفقه والتفسير ، والأحاديث والشريعة ، كما يتلقون دروسا فى العلوم الحديثة كما تدرس فى المدارس الأميرية · وفقا لمناهج وزارة التعليم ·

وللتلميذ الذى يتم المرحلة الثانوية فى المعـاهد الدينية الحق فى الالتحاق باحدى الكليـــات الثلاث بجامعـــة الأزهر · وعليه أن يجتاز الامتحانات المقررة ، خلال تلقيه الدراسة ، وللطلبة المتفوقين أن يتقدموا بأبحاث يكلفون بها مما يتطلب من الطلاب أن يلموا تماما بكل ما يتصل بدراستهم ، ومنهم من يبعث الى أوربا وأمريكا ليتلقوا أحدث الدراسات العصرية ، وخاصة فيما يتصل بالدراسات الفلسفية ، ففى سنة ١٩١٦ كان موضـــوع الدراسة المقررة للامتحانات وعلى الطالب أن يجتازهـا ، فلسفة المعتزلة واتجاهاتهم الفقهية ، وتاثيرها على الفكر الاسلامى كما كان من الغزالى فى موقفه بين الفلسفة والتصوف ، وما كان من تاثير الفلسفة اليونانية ومدرسة الاسكندرية على الفكر الاسلامى وخاصة فلسفة أرسطو ،

ولعلنا نرى فى الوقت الحاضر الدكتور محمد البهى وقد تلقى دراسته فى برلين وهمبورج لا يكتفى بتدريس الفلسفة اليونانية والاسلامية ، ولكنه يعرض لفلاسفة الفكر المعاصر ، ومن أروع ما كتب أخيرا أن أفرد صفحات عديدة من مؤلفه هذا لاتجاهات الفكر المعاصر فتناول فلسفة ماركس والفكر الشيوعى ، كما تناول فلسفة محمد اقبال وأفكاره .

ولم يقف التجديد عند ذلك ، فكانت دراسة علم النفس والاجتماع والتاريخ السياسى ، وغدا المعلمون وقد ألموا كذلك بطرق التدريس الحديثة ، وان لم يكن ثمة دراسة فسيحة لبعض المواد كالطبيعة والكيمياء والتاريخ الطبيعى ، الا أنه تم التعريف بها والالمام بفحواها معمليا ونظريا مما نعرض له فى الفصل السادس .

وقد أصبح المنهج الدراسى مقررا ثابتا لا يتناوله تغيير ما لم تقتض الضرورة الالمام بالدراسات الجديدة وبقرار من مجلس الأزهر وموافقة وزارة التربيــة والتعليم ، ولم يكن التغيير ليتعدى الكتب المقررة دون المناهج ذاتها . وأصبح من اليسير على الطلاب اقتناء ما يحتاجونه من كتب بعد أن غدت الطباعة أمرا يسيرا . ولم يعد لطرق الاملاء السابقة مكان ، ففى السنة الدراسية ــ ١٩٥٣ ــ ١٩٥٤ ــ حين قام الأستاذ جورج كريمر . بزيارة الأزهر أتيح له أن يشهد اجتماعا عاصفا للطلاب أعلنوا فيه ثورتهم على الكتب الصفراء القديمة .

ومما جرى عليه الأزهر من قبل أن يمنح الطلاب اجازة خلال شهر رمضان ، ولم يعد لذلك وجود ، ومضت الدراسة خلاله كما هى المدارس الأميرية من الساعة العاشرة حتى الساعة الثانية بعد الظهر ، فيما عدا الاجازة المقررة لعيد الفطر .

وكان لهذا التطور فى حياة الأزهر أثره فى اقبــال الطلاب عليه وزيادة عدد الدارسين فيه ، ففى سبتمبر ١٩٥٩ بلغ عدد المقيدين للدراسة بكلية أصول الدين ٥٥٠ طالبا ، ولم يتسن لها قبول ٢٥٠ طالبا بسبب ضيق المكان .

ومع ما كان من هذه المتغيرات الجديدة ، والمتغيرات القادمة المؤكدة غدا المنهج الدراسى أكثر شمولا وسعة ليشمل العديد من الدراســات الجديدة بجانب الدراســات الأثيرة للأزهر على مدى تاريخه الفسيح .

المكتبة :

ذكرنا أنه كان هنــاك فى منتصف القرن التاســع عشر ١٨٥٦٤ مخطوطا وكتابا موزعة بين أروقة الأزهر ، لم يكن هناك من يلقى اليها بالا .

حتى قرر المسئولون فى ديوان الأوقاف انشاء مكتبة عامة للأزهر ، فقاموا بجمعها ووضعها فى صناديق من الخشب بواجهة من الزجاج ، وقاموا بنقلها الى مدرسة أقبغا وتيبرس لتكون نواة لمكتبة الأزهر الجديدة ٠

وقد تردد أكثر المسئولين عن الأروقة فى نقل ما فيها من كتب الى المقر الجديد ، حتى ان رواق الصعايدة قد أمسك بما لديه منها حتى سنة ١٩٣٦ ، وما وافت سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية حتى كانت مكتبة الأزهر قد استكملت قوامها ٠

ولم يكن لدى الكثير من شيوخ المساجد أية دراية بقيمة هذه المخطوطات التاريخية فعملوا على التخلص منها بنقلها الى الأزهر . كما قام العديد من الأفراد كان أكثرهم من ورثة الباشوات أو شيوخ الأزهر باهداء مكتباتهم الخاصة ومقتنياتهم من المخطوطات الى مكتبة الأزهر ٠

وما وافى عام ١٩٣٦ حتى تزايد عدد الكتب وتم حفظها فى جزء من مبنى ادارة الأزهر ، وعلى أثرها قامت المعاهد الأثرية بانشاء مكتباتها الخاصة ، كان أبرزها وأهمها فى هذا المضمار معاهد الاسكندرية وطنطا ودمياط ٠

وكان من المخطوطات ما له أهمية بالغة ، لا سيما ما كان منها عن العصر الوسيط ، كما كانت هناك نسخ نادرة من القرآن ترجع احداها الى ما قبل ست سنوات من غزو وليم الفاتح (١) لبريطانيا ٠

وقبيل وفاة الملك فؤاد قام باهداء مكتبة الأزهر من الفرامانات والوثائق ما يرجع أقدمها الى نهاية القرن السادس عشر ٠

وحين قامت مكتبة الأزهر كان على ادارتها أربعة موظفين ومثلهم من الشيوخ للارشاد والتوجيه ، وكان مرتب أمين المكتبة عشرة جنيهات شهريا ، وكانت ميزانية المكتبة السنوية ٣١٤ جنيها ٠ وعندما تم اعلان الأزهر جامعة سنة ١٩٣٦ ارتفعت ميزانيتها الى ١٤٤٨ جنيها وارتفع عدد موظفيها الى عشرة موظفين منهم اثنان من الكتبة ، وعند تعيين الأمين العام الحالى سنة ١٩٤٥ بدأ باعداد قائمة للكتب انتهى منها سنة ١٩٥٠ ٠

وكانت تضم حينذاك عشرين ألف مخطوط وأكثر من ستين ألف

---

(١) ألف دكتور بايارد دودج كتابه هذا عن الأزهر للناطقين باللغة الانجليزية من الانجليز والأمريكان ، اكبارا واعجابا به ، ولتيسير فهمه وادراك فحواه عمد الى الاستشهاد والمقارنة بما هو فى الغرب الأوربى والأمريكى ــ المترجم ٠

كتاب تتناول ثمانية وخمسين فرعا من فروع الدراسة (١) وبعد ذلك بستة عشر عاما وفى عام ١٩٥٩ كان عدد الكتب فى المكتبة الرئيسية مائة وعشرين ألف مجلد بالاضافة الى خمسة عشر ألف مجلد فى كلية أصول الدين ، تبقى بها لأمد معين ٠

فاذا تسنى لزائر أن يؤم المكتبة الآن لعرته الدهشة حين يبصر بتلك الاضافات الجديدة مما يرى لا سيما ما كان منها باللغة العربية ٠

التربية البدنية والصحية :

وبالاضافة الى التدريب العسكرى ، كان على الطلاب أن يسهموا فى النشاط الرياضى ٠ واختير للاشراف عليه فى كل من الكليات والمعاهد الأزهرية أحد أعضاء المجلس الأعلى للأزهر ، وفى سنة ١٩٥٦ ، كان هناك أكثر من عشرة آلاف طالب جامعى وطلبة المعاهد يمثلون ٢٩٪ من المقيدين فيهما يشاركون بصورة أو أخرى فى النشاط الرياضى ، وتم تخصيص عشرين فدانا فى القاهرة لذلك ، تضم حماما للسباحة والملاعب العديدة للنشاط الرياضى ٠

وفى سنة ١٩٢٩ تم تعيين الطبيب عباس حلمى للاشراف الصحى على الطلاب ، وبعد ذلك بست سنوات تم انشاء مستشفى حكومى بالقرب من مبنى الجامعة الأزهرية ٠

وأخيرا تم تعيين الدكتور حسن أبو السعود سنة ١٩٢٩ للاشراف الصحى على الطلاب بصورة وافية ٠

وعندما تم اقامة البناءين الجديدين ، فوق المرتفع الأرضى المجاور للأزهر من جانبه الشرقى سنة ١٩٣٦ ، كان من السعة بحيث ضم عيادة طبية ومستشفى يتسع لخمسين سريرا بالاضافة الى المعهد الدينى بالقاهرة ٠

وفى السنوات الأخيرة تطوع ستة عشر أخصائيا من الأطباء الحكوميين بالقاهرة لمتابعة الاشراف الصحى على الطلاب وذلك لمدة ساعتين خلال أربعة أيام فى الاسبوع ، دون أجر الا حساب المواصلات جيئة

---

(١) كان تصنيفها على الصورة التالية :

٨٦٢٤ كتابا فى الحديث ، و ١٧٦٥٥ فى الشريعة و٥٢٧٧ كتابا فى التفسير و ٧٨١٢ كتابا فى الأدب و ٥٥١٢ فى النحو ، ٣٨٣٨ فى الفقه ، أما الكتب العلمية فكان تبويبها كما يلى :

٦٣٢ كتابا فى الصحة والطب ، ٣٠٣ فى تاريخ الشعوب ، ٥٠٥ فى الحساب و٣٤ كتابا فى الجبر و٦٧ كتابا فى الهندسة و ٤٢٨ كتابا فى الفلك و ١٩ كتابا فى العلوم التجارية و ٦٦ كتابا فى الزراعة و ٥٠٢ كتاب فى اللغات الأجنبية ٠

ورواحا . هذا الى جانب الأطباء المقيمين ومساعديهم لادارة المستشفى والعيادة والصيدلية . واجراء الكشوف العديدة والجراحات الطارئة والتحاليل الطبية وعلاج الأسنان ، والكشف بالأشعة ، كان يتردد عليها يوميا حوالى ثلثمائة حالة للعلاج الى مائة وعشرين حالة من الاختبارات المعملية والتحاليل الطبية . وكل هذا يتم مجانا دون أى مقابل ، ولا يقتصر العلاج على الطلاب وحدهم بل يمتد الى أسرهم وذويهم حتى الخدم والعاملين بالجامعة وتم اقامة مستشفى جديد وصيدلية ، ومعمل للتحاليل للطلبة الأجانب .

وشملت الرعاية ما يحتاجه المريض من رعاية تمتد الى تزويده بالنظارات الطبية ، والأسنان الصناعية وما الى ذلك مما يحتاجه المريض .

الخدمات الاضافية :

وهناك ما يضطلع به الأزهر من الأعمال الاضافية ترقى الى مستوى المسئولية الواجبة ، تمضى فى اتجاهات أربعة لا بديل لغيره فى أدائها ، بل وتحمل مسئوليتها :

أولها ما يضطلع به من واجب الوعظ والارشاد مما يدعوه الى تكليف المحاضرين والوعاظ بزيارة الطوائف والجماعات فى شتى أنحاء القطر لغرس النوايا الطيبة لاحياء الجانب الروحى فى وجدانهم وتقوية الايمان فى نفوسهم والسلوك القويم فى حياتهم ، وعلى الواعظ أن يلوذ بالمدعين وأن ينأى عن التهويمات القديمة لمدعى المعرفة من أقطاب الماضى البائد ، وأن يخاطب الناس على قدر عقولهم حتى يتسنى لهم أن يعقلوا ما يسمعون ويدركوا معناه فاذا تحدثوا الى النساء عليهم أن ينموا فيهن الاحساس بالواجب الأسرى ورعاية مستوى الأسرة وأن ينشئن أبناءهن فى رحاب الدين والخلق القويم .

وهؤلاء الوعاظ أشبه بما لدينا من الطوائف الانجيلية لا يقصرون واجبهم على تجمعات الفلاحين وسكان الأحياء الراكدة ، أو المساجد فى المدن والقرى بل ان عليهم أن يؤموا المصايف ومعسكرات الجند ، ومأوى اللاجئين وعمال المصانع والشركات الصناعية والتجارية .

وقد تم سنة ١٩٤٩ القاء ــ ٤٦٠٠ ــ حديث شهريا منها ٥٤٩ حديثا للسيدات ، وقدر عدد الحاضرات منهن خلال الاسبوع ١٦٢٢٦٠ امرأة ، كما تم القاء ١٤٥٦٠ وعظا على رجال القوات المسلحة ، بلغ مجموعها ١٠٢٦٩٠ .

وفى نفس الوقت تم تجديد وبناء ٤٦٥ مسجدا ، كما تم اقامة سبعة معاهد دينية جديدة ، وانشاء عشرين جمعية جديدة لتحفيظ القرآن ، كما

قدم الأزهر العون لهيئة من ثلثمائة واعظ الى جانب أعضـــاء هيئات التدريس وطلاب الكليات للقيام بالوعظ والارشاد خلال شهر رمضان . وفي سنة ١٩٥٩ كانت اذاعة الأزهر قد أنشئت لتحمل صوت شيخ الأزهر الى كافة أنحاء العالم العربي .

وكانت الصورة التالية للامتداد والذيوع اقامة دراسات أهلية لمن يرغب في الالمام بما يريد عن الدين وتعاليمه سواء في الأزهر أو المعاهد الدينية الأخرى أو المساجد القريبة .

وكانت الظاهرة التالية للامتداد والانتشار انشاء هيئة البعوث من أئمة الشيوخ تبعث بهم الى الخارج لفترات محدودة للتعريف بالاسلام على وجهه الصحيح ، بين أقوام متباينين . من غير العرب ، ففي تلك البلاد حيث لا يلم الناشيء باللغة العربية ، يجد من العسير أن يلم بالعقيدة الاسلامية على وجهها الصحيح ، حتى وان تسنى لهم حفظ بعض آيات القرآن وتسميعها وأداء الصلوات ، بصورة تقليدية .

كما كانت بعض البلاد الناطقة باللغة العربية ترى بعض الأهلين من الفلاحين على صورة من الجهل تشيع فيها الخرافات والأســاطير المحلية الشائعة ، حتى كان من القبائل العربية الضاربة في السهوب النائية من لا يلم بسيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتعاليمه ، بينما يحمل المواطنون من الأوربيين والأمريكيين كل موجدة وضـغن على الاســـلام والمسلمين ، كما كان الكثير من القبائل الأفريقية رغم تمسكهم بالاسلام لا يلمون بتعاليمه فضلا عن جهلهم بسيرة نبي الاسلام (صلى الله عليه وسلم) .

وتسفر الاحصائية التالية وقد نشرت سنة ١٩٥٩ عن عدد المبعوثين الذين أوفدهم الى الخارج للتعريف بالاسلام وتعاليمه :

ـــ سبعة عشر مبعوثا الى مراكش ، وليبيا ، وليبريا ، وغانا ، ونيجيريا وزنزبار .

ـــ سبعة وأربعون مبعوثا الى لبنان وسوريا وغزة وعدن وعمان والبحرين والباكستان وأندونيسيا وتايلاند واليابان ، ومبعوث واحـد الى ألمانيا ، وثمانية مبعوثين الى ديترويت ، وشيكاغو ، وسان فرنسسكو ، ونيويورك ، وكندا ، واثنان الى البرازيل وشيلي وعددهم جميعا خمسة وسبعون مبعوثا .

كما قام الأزهر بدعم المعاهد الثقافية بالسودان وانجلترا والولايات المتحـدة الأمريكية . وأصبح المسجد الاســـلامي منارة المسلمين ، ويوفد المقرئين الى كافة بقاع العالم لاحياء ليالي رمضان . في المساجد والمراكز الاسلامية التي أقامها فيها .

والظاهرة الرابعة للامتداد والانتشـــار ما كان عن طريق الطباعة والنشر ، وقد تم انشاء مطبعة فتيسر للأزهر أن يصدر مجلته وصدر أول عدد منها فى بواكير صيف سنة ١٩٣٠ باسم ـ نور الاسلام ـ شهرية فى البداية وباللغة العربية شاملة لموضوعات عديدة وثمنها أربعون قرشا للعدد الواحد توزع على الطلاب والمعاهد الدينية ، وقد حوت الأعداد الأولى منها ترجمة لكتاب ـ هـ٠ج٠ ويلز ـ مختصر تاريخ العالم ، وآخر عن المسلمين فى روسيا ، كما كانت تنشر بعض القصص القصيرة ، واقتباسات تحت عنوان ـ طرائف وملح ـ فلما تولى الشيخ مصطفى المراغى مشيخة الأزهر غـير اسمها الى ـ مجلة الأزهر ـ وأخذ ينشر فيهـا بعض خطبه ومقالاته ٠

ومن مقالاتها ما كان يترجم الى الانجليزية لمن لا يلمون بالعـربية من مسلمى الهند والباكستان ، وكانت تواريخ اصدارهـا وفقا للعـام الهجرى ، وان كانت الصفحة الداخلية تضم التاريخ الأفرنجى لصدور العدد ، وتصدر المجلة الآن فى مائة صفحة (١) تتنـاول خمسـة عشر موضوعا وبعض الحواشى القصيرة ٠ وثمن العدد أربعون قرشا فى مصر وخمسون قرشا فى الخارج مع ثمن مخفض للمدرسين والطلاب ٠

وأكثر ما ينشر عن المسائل الدينية ، وان تنـاولت الموضـــوعات الأخرى السـير والتاريخ والشعر ، كما أخذت تنشر صور الكتاب ومن يكتبون عنهم ٠ ومما يذكر أنـه فى ينـــاير ١٩٥٧ ، والغزو البريطانى لبورسعيد نشرت صورة لشيخ الأزهر فى لقائه بالبطريرك رئيس الكنيسة القبطية (٢) وأخرى للأطباء المتطوعين فى القوات المسلحة ٠

وكان لشيوع مجلة الأزهر وانتشارها ما أثار الاهتمام بالاســلام والتعريف بالأزهر فى كافة بقاع العالم ٠

والى جانب هذا النشاط الفسيح فى تطوير الأزهر وتنظيمه أنشأ الأزهر ادارة للتوجيه تشرف على كلية اللغة العربية وكلية الشريعة ، وتزود السائلين بكل ما يعنيهم عنهما ٠

كما كان انشاء دار الفتوى للمذاهب الأربعة خطوة أخرى من خطوات التنظيم والتقدم ، تبدى الرأى فيما يعجم على النـاس من أمور الشرع والسلوك الدينى ، وقد قدمت من الفتاوى فى الآونة الأخيرة ما يزيد على ٣٥٠ فتوى فى السنة ٠

---

(١) كان ذلك عند صدور الكتاب سنة ١٩٦١ ٠

(٢) يلاحظ ان الكتاب كما سبق القول قد كتب للانجليز والأمريكيين للتعريف بالازهر وفضله على العلم والحضارة فى العالم ٠

وبدا أثر الأزهر بينا فى كتاتيب – تحفيظ القرآن ودراسة أحكامه ، ففى عام ١٩٥٦ قام الأزهر باعانة هذه الكتاتيب وكانت تضم حينذاك ٢٥٤٢٢١ صبيا ٠

وكان لهذا النشاط الجم والفسيح للأزهر ما بدا أثره بينا وظاهرا فى حياة العالم المعاصر ، حين أخذت الشيوعية والتعاليم الضالة الوافدة تهدد الفكر العالمى وتعصف به ٠

وكما كان فى عصر – أبو حامد الغزالى – أخذ الناس يستهدون ايمانهم صادقا وعباداتهم أكثر روحانية (١) ٠

خريجو الأزهر منذ البداية :

مع ما كان من بذرة الاحصاءات عندما أقام الفاطميون الأزهر ، فان من اليقين أنه أنشىء أصلا للتنويه بالدعوة الفاطمية واعداد الدعاة لها فى رحاب الأزهر ، ومن المؤكد أن بعض خريجيه ومنهم على سبيل المثـال الفقيه الفارسى المعروف – ناصر خسرو قد تلقى تعليمه أو بعضه فى رحاب الأزهر بالقاهرة ، بينما تلقاه آخرون قسمة ما بين الأزهر ودار الحكمة وما يجاورها من مساجد ، ولنا أن نقول عن يقين ان الأزهر كان المكان الأثير لاعداد ، الدعاة والمسئولين عن الدعـوة الفاطمية فى أقاليم مصر ومدنها فى الدولة الفاطمية حتى اذا كان صلاح الدين الأيوبى وحتى حكم الظاهر بيبرس ، لم يكن الأزهر يلقى من الرعاية والاهتمام والعون المادى ليحظى بما كان له من مكانة أثيرة من قبل ٠

ومع ما قام بـه الظاهر بيبرس من تجـديد الأزهـر ليكون مثوى للدراسات العليا ، لم يكن له ميزة على غيره من المدارس والمساجد التى اتخذت مقرا للتعليم والمعرفة الرفيعة ٠

وما لبث أن أخذ يحتل نوعا من الرعاية والتقدير ، فمع ما كان من قلة الذين تلقوا تعليمهم فى رحابه ، فانهم كانوا يحتلون مركز الصفوة بين معاصريهم من العلماء على عهد المماليك والدولة العثمانية سواء فى مصر وفى غيرها من البلدان الأخرى ، وهو ما يشير اليه العديد مـن المؤرخين العرب من أمثال الجبرتى والسيوطى والمقريزى وغيرهم من المحدثين ، ممن أفاضوا فى تناول سيرة شيوخه الذين ينتمون الى الأزهـــر وانطلقوا من رحابه ، وان لم يعرض أى منهم بأى احصاء لخريجيه ٠

وكان محمد على يختار من طلابه لتلقى الدراسات الحديثة فى الطب والهندسة وما الى ذلك من العلوم الحديثة لبناء دولته ٠

---

(١) كان المؤلف ممن يهيمون بسيرة الامام الغزالى وفلسفته وبسنن تعاليمه وارادته – المترجم ٠

ونرى من طلابه ومن تخرجوا فى رحابه من لعبوا أعظم دور فى تاريخ مصر الحديث كسعد زغلول ، والشيخ محمــــد عبده ممن تركوا بصماتهم على الحكم فى مصر ، كما كان منهم أمثال الجبرتى ممن عرضوا للعلوم والدراسات الدنيوية ومنهم من تولى مناصب القضاة ، ووظائف الوعظ والارشـاد ، ومن كانـوا فى الطليعة من مفكرى الجيــل ، ومن كانت له الزعامة فى محيطه كمحمـــد بن على السنوسى فقد تلقى بعض تعليمه فى الأزهر قبل أن يمضى فى حياته زعيما للطائفة السنوسية ٠

وكما هى الحال فى الجامعات الأخرى ، كانت أضابير الخريجين ودرجاتهم مما يدل على التزامهم بالسلوك القويم ، ويهبون حياتهم وجهدهم لكل ما هو نافع ، الا أن ما يكلفون به يبدو غائما غير واضح ، وكان أكثرهم يقومون بتدريس اللغة العربية والدين ، أو يلى وظيفة حكومية ٠ وكانت الحاجة الى المدرسين ملحة ، لأنهم يلمون باللغة العربية الماما جيدا ، كما يحفظون القرآن ويلمون بالحديث والتفسير ، كما كانوا خير من يقوم بالأعمال الكتابية فى الدواوين والوظائف الحكومية ، لالمامهـم بالتعبير والقدرة على الكتابة وسلوكهم الكريم وأمانتهم فى أداء مايوكل اليهم ٠

كما أن دراستهم للشريعة تؤهلهم لتوثيق العقود اذا لم يتسن لهم العمل بالمحاماة أو القضاء الشرعى ، وقد يعملون كتبة فى المحاكم الشرعية أو دواوين الحكومة ، ومن أوتى منهم القدرة على التأثير ، وقيادة الجماهير وادارة شئونهم ، فانهم يقومون على المساجد وعاظا ومرشدين ، ويضطلعون بكل ما يتصل بالتعليم الدينى فى المدن والقرى ، ويتخذون من المساجد وزوايا الصوفية محافل اللقاء والنشاط الدينى ٠

وكان أكثر خريجى الأزهر من المصريين ، وقد وجدوا فى الانتماء اليه ما يضفى عليهم نوعا من التوقير والاحترام ، وكان بعضهم لايمضى فى دراسته الا بقدر ما يتيح له وظيفة حكوميـــة كتبـة ، فى الدواوين والمصالح الحكومية ، أو يقوم على كتاب لتحفيظ القرآن الكريم وتجويده ، وقد يبقى البعض فى الدراسة زمنا أطول حتى تواتيه الفرصة لافتتاح حانوت للتجارة ٠

ومن يتلقى دراســة أوفى يعين اماما للمسجد ، يؤم الصلوات ، ويخطب لصلاة الجمع والأعياد ، ويشرف على كتاتيب حفظ القرآن ، الى جانب العمل مأذونا لعقد القران والطلاق وتسجيلهما وتقرير المواريث ٠ وكل ما يتصل بالشئون الدينية وفقا للشريعة ٠

ويتاح لمن يتلقى تعليما أوفى أن يعمل بالمحـــاماة أمام المحـــاكم الشرعية ، أو قاضيا بها ، فاذا مضى فى دراسته بما يؤهله للتدريس بالأزهر أو المعاهد الدينية اختير لها ٠

وقد اختير كثرة منهم للعمـــل بالارســـاليات الخارجية ، ففى عام ١٩٥٦ ، مثلا ، اختير مائة وواحـــد وسبعون لوظائف التدريس فى المدارس والمعاهد الدينية فى الأقطار التالية :

٣٧ للحجـــاز ، ٣٠ للرياض ، ٢٠ للكويت ، ٢٤ للســـودان ، ١١ للصومال ، ٦ أرتريا ، ٥ ليبيا ، ١٢ لبنان ، ٥ العراق ، ٥ سوريا ، ٢ مالى ، ٢ الهند ، ١٢ غزة ، ٢ فرنسا ، ٢ لندن ، ٢ واشنطون ٠

وأما الطلاب الأجانب الذين أتموا دراستهم بالأزهر ، وعادوا الى بلادهم ، فانهم يضطلعون بأعمال تعد صورة جليلة لأثر الأزهر فى تلك البلاد ، وهو ما تبرزه بعض الأمثلة التالية : فى سنة ١٨٩٧ قام الشيخ العباسى بانشاء مدرسة خاصة ، فى بيروت كان لها دورها البـارز فى احياء اليقظة الاسلامية فى لبنـــان وكانت دعامة للجمعية الخيرية التى قامت على نشر التعليم الاسلامى فى ربوعها ٠

ومع ما كان من عودة طـلاب الشمال الافريقى الى بلادهم ، قاموا بالتعليم فى معاهدهم ، كجامعة فاس فى مراكش ، وجامع الزيتونة فى تونس ، ودور التعليم فى الجزائر ، وبنغازى ، فقد بقى منهم العديد من الطلاب فى رحاب الأزهر للدراسة ، كما أمه العديد من شباب الجنوب الافريقى فى أقصاه ، وقبيل الحرب العالمية الأولى جاء على لسان بعض المراقبين أن الكثيرين من خريجى الأزهر هم من مواطنى نيجيريا والسودان ووسط افريقيا ، وان لم يكن منهم نفر من أقصى الجنوب الافريقى ، على حد قولهم ، ولم يتعد وجودهم أقصى ما كان من الحدود الفاصلة بين مصر وساحل غانا شرقا ٠

ومع ما كان من أبناء القبائل الضاربة فى تلك الحفافى الافريقية من الغرب وقد جاءوا الى الأزهر مقيمين ، فان اقامتهم لم تعد الراحة فى طريقهم الى الحج ، أو الارتزاق من عمل يؤدونه خلال اقامتهم ، لسـد نفقات حجهم ٠

وكان بالأزهر خلال الحكم العثمانى وأتموا دراساتهم فى رحـــابه كثرة من الأتراك ، قاموا بالعمل فى المساجد والمحاكم الشرعيـــة بسبب اجادتهم للغة العربية ، ثم هجروه بعد أن قام أتاتورك بالغـــاء المراسم الاسلامية واللغة العربية ، وقل عدد القادمين اليه من روسيا وسيبيريا ٠٠ ولم يفد اليه أى طالب من تلك البلدان عام ١٩٠٩ ، وان كان من علمائه الآن عدد أربعة من خريجيه ، اثنان فى بخارى ، والثالث فى ســـمرقند والرابع فى طشقند ٠

ومن أوائل خريجيه فى أفغانستان وباكستان ، عرفوا بآثارهم دون مؤهلاتهم ، ومنهم مثلا الشيخ فؤاد فخر الدين وكان مسئولا عن العديد من المسائل العامة ، كما كان الشيخ أبو الحسن محيى الدين أستاذا بجامعة دكا شرق الباكستان ٠

ومما أشار اليه زائر للقاهرة عن خريجى الأزهر من الهند أنهم تركوا بصماتهم البارزه على الحياة الثقافية والدينية فى بلدهم ، فالشيخ محمد عمران الندوى مثلا يعمل عميدا لكلية ـ دار العلوم ـ فى لكناو ، والشيخ محمد اسلام الدين أستاذ بجامعة كلكتا ، كما أن هناك شيخين آخرين هما ـ محمد مظهر علاء الدين أحمـــد ، والســيد محيى الدين حسن ، أستاذين بجامعة اليجار ـ عليكرة ـ كما أن الشيخ أبو الخير محمد أيوب على يعمل ناظرا لمدرسة ثانوية بحاضرة من حواضر الأقاليم ٠

وتلك أمثلة قليلة أثيرة لهؤلاء الخريجين بالهند ٠

وفى الحديث عن الملايو وأندونيسيا ، يقول الدكتور شفيق غربال فى كتاب له صدر حديثا ان مسلمى جنوب شرقى آسيا يتوخون الاتجاه الى مركز الثقافة الاسلامية احياء لحياتهم الروحية ، ولا يكتفون فى ذلك ، بارسال أبنائهم للحج والدراسة فى الأماكن المقدسة بالجزيرة العربيه ، ولكنهم يبعثون بالنابهين من أبنائهم للدراسة بالأزهر ، ومازالوا اليوم فى رحابه ، فاذا عادوا الى الوطن فانهم دون شك سيكونون حملة المشاعل وأعلام الفكر سواء فى جزر أندونيسيا ، أو دولة ماليزيا ، وبين مليونين من المسلمين جنوب تايلاند ٠

ومن الجدير بالذكر أن اثنين ممن تتلمذوا فى الأزهر يحتلان مناصب الوزارة للشـئون الدينيـة فى أندونيســيا ، أحـدهما الشيخ رضـيان فتح الرحمن ، والآخر الشيخ أحمد الأزهرى ، كما أن السفير الأندونيسى لدى الباكستان الدكتور محمد الراجيدى قد تلقى تعليمه فى الأزهر ٠

ومن أعلام المسلمين من قادة مسلمى الصين ـ داود ٠ س ٠ م ٠ لنج ـ ويعمل الآن قنصلا للصين فى لبنان ، وكان ممن درسوا بالأزهر ٠

وقد ذكر سنة ١٩٥٨ ، وكان ذلك قبيل الحرب ، أن المسلمين قد بعثوا ببعض تلامذة المدارس فى بكين وشــنجهاى وكومنج ويبلغ عددهم ثمانيــة وعشرين تلميذا الى الأزهر ، وكانت تلك هى المرة الأولى التى يستقبل فيها الأزهر طلابا من الصين ، وهو ما يؤدى الى تطلع الطلاب

المسلمين الى القاهرة فى طريقهم الى الأزهر ، وسنرى الكثيرين من خريجيه فى الصين من بعد ٠

ومما قيل ، يبدو واضحا أن خريجى الأزهر الأوائل فى الصين يتسنمون مراتب القيادة ، بينما بقى الآخرون فى تواضعهم يحيون لغة العرب وثقافة الاسلام والايمان العميق بتعاليمه ٠

ومما يثير الفخر والاعجاب أن نرى خريجى الأزهر قد حملوا مشعل الثقافة الاسلامية وتعاليم الدين الحنيف ، وأن الأزهر نفسه كان المنارة التى تشع النور فى العالم من سيبيريا الى نيجيريا ومن مراكش الى الصين قبل أن يسمع الناس بأمريكا أو كشف عنها بعد ، كما كانت البقاع الشمالية من أوربا تعيش فى تيه الضلالة والجهل ، برابرة بدائيين ٠

الفصل الثامن : قضية المستقبل

قضايا التعليم :

فى حديثنا هذا عن الأزهر نرى أنه قد أخذ بسنة التطور فغدا ، جامعة لها كيانها ليواجه المستقبل بكل احتمالاته ٠

لقد أفل ما كان للخلافة العثمانية من أثر وتحررت البلاد من سطوة النفوذ الاستعمارى وأصبح لهـا استقلالها التام ، وأخذ التفكير العلمى الحديث كيانه ليعصف بقيم الماضى وتقاليده البائدة وحلت الآلة وتركت معالمها البارزة على كيان المدن واتساعها وعلى حيـاة الريف والفلاحـين القديمة ، وتحررت المرأة ، وأخـذت القيم والتقاليد الأوربيـة تعصف بكل ما هو قديم فى هيكل المجتمع وقوامه الجديد ، واختفت الارستقراطية القديمة وأخذ الناس يطالبون بحقوقهم ، وجاءت الشيوعية لتهدد كيان المجتمع والحضارة الاسلامية العريقة ٠

وحلت المدارس الحديثـة فى كافة بلدان العالم الاسـلامى محل المؤسسات الاسلامية ، ولم يعد الأزهر المكان الفريد للتعليم العالى فى مصر ، وقامت جامعات أربع ، هى جامعة القاهرة وعدد طلابها أربعون ألف طالب من البنين والبنات ، وجامعة عين شمس ويزيد عدد طلابهـا على ثمانية وعشرين ألف طالب ، وجامعة الاسكندرية ويقرب عدد طلبتها من خمسة وعشرين ألفا ، وجامعة أسيوط ويزيد عدد طلابها على ثلاثة آلاف وأربعمائة طالب ، وتضاعف عدد الجامعات الحديثة فى كافة أنحاء العالم الاسلامى ، وقامت المدارس الحديثة لتسع العديد من صغار التلاميذ ، وقد بلغ عددهم فى مصر سـنة ١٩٥٨ فى مدارس المرحلة الابتدائيـة ، ٢٣٢٣٠٠ من البنين والبنـات ، وبلغ عددهم فى المرحـلة الثانوية ، ٣٥٦٣٠٠ تلميذ الى جانب ٧٨٣٠٠ تلميذ بالمدارس المهنية الصـناعية والتجارية ، فاذا قورنت بأعداد الطلاب فى المعاهد الأزهرية وقد بلغت ٣١٧٥٥ طالبا بدوا قلة بالمقارنة بأعداد المدارس غير الأزهرية ، وهو ما يثير السؤال التالى :

أما كان من الأوفق أن نعد مناهج الدراسة فى المعاهد الدينية على غرار المناهج فى المدارس الأميرية التابعة لوزارة التعليم ؟ ولم يكن الحل

أسبوعيا ، هذا فى الوقت الذى مضت فيه المعاهد الدينيــة فى تطبيق المناهج الحديثة • وبدا التقارب بين الاثنين بارزا •

وبدت المشكلة الأخرى فيما يتصل بمناهج كلية الشريعة الاسلامية ففى أواسط القرن التاسع عشر ، أخذت الدولة العثمانيــة فى تطبيق القانون المدنى الذى شرعه نابليون (١) • كما قامت الحكومة العثمانيـة سنة ١٩١٧ بتطبيقه على حقوق المرأة وفى ســـنة ١٩٤٩ أخذت مصر فى تطبيق معالم هذا القانون فأصـــدرت القانون المدنى الجديد متضمنا هذا الاتجاه فى التوفيق بين أحكامه وأحكام الشريعة الاسلامية فيما يعــرف بقانون التنظيمات الجديدة ، ومن ثم كان التفكير فى تجديد مناهج كلية الشريعة لتصبح ولها أهميتها البالغة فى هذا الاطار من التطور الشامل ، لتحقيق ثلاثة أهداف :

أولها تزويد المسئولين عن تطبيق الشريعـة من القضاة والمحامين بالقدرة التشريعية التى تقتضيها وظائفهم • وأن تكون من ناحية اخرى مركزا أثيرا للبحوث الشرعية ، وأخيرا اعداد رجال التشريع لمواجهة كافة الاحتمالات فى الجمهورية العربية المتحدة •

وكان على رجال الأزهر أن يواجهوا ما تجرى عليه مناهج التعليم الدينى فى المدارس الثانوية ، وما تقوم عليه الدراسة فى كلية الشريعة ، ففى الماضى كان الطلاب فى الأزهر يعتمدون على المتون القديمة فى دراستهم دون الرجوع الى الدراسات الجديدة التى تحتويها مكتبة الكلية ، ويأخذون فى حفظها وتسجيلها معتمدين على الذاكرة دون الرجـــوع الى المصـــادر الأصليـــة •

ولم يعد لهذا الواقع وجود فى الكيان الجديد للجمهورية العربية المتحدة فى حاجتها الى التجديد والبنـــاء والرجال القـــادرين على الخلق والابداع •

فاذا تم تجديد المكتبة وتحديثها ونقلها الى الطابق الذى يعلو قاعة الاجتمـــاعات ، فان ذلك مما ييسر على الطـــلاب الافادة منهـــا وأن تكون مكانا أثيرا لديهم للمطالعة والدراسة •

وثمة عامل آخر للنهوض والتقدم بايفـــاد البعوث من الأســـــاتذة الناشئين الى الجامعات الأوربية والأمريكية من أبناء الأزهـــر والمعاهد

---

(١) استند نابليون فى ــ قانونه المدنى ــ على الشريعة الاسلامية من ناحية وتشريعات جستنيان من ناحية أخرى ، ويعده أعظم مغامرة ، ويقول فى ذلك :

my glory is not that Iwan 120 bottles, but my civil code• المترجم •

الدينية مما يتيح لهم القدرة على التجديد ومراجعة طرق التدريس ، وأن يبدأ ذلك بالمرحلتين الابتدائية والثانوية ٠ وهو ما أشار اليه كاتب اسلامى بقوله ان الحاجة ليست فى اصدار القوانين واللوائح بقدر ما هى فى اعداد الرجال القادرين على حمل رسالة الأزهر ليكون له أثره الفعال فى عالم الاسلام ٠

وتقديرا لهذا الاتجاه قام شيخ الأزهر بتعيين الدكتور محمد المعداوى لادارة المعاهد الدينية والدكتور محمد البهى للاشراف على شئون الوافدين والطلاب الأجانب وعن المكتبة والمجلة ، وقد حصلا كلاهما على درجة الدكتوراه من المانيا ، وقد عين الشيخ محمد الفحام بعد حصوله على الدكتوراه من باريس عميدا لكلية اللغة العربية ، بينما اختير الشيخ محمد حب الله وقد حصل على الدكتوراة من انجلترا عميدا لكلية الشريعة ويعمل الآن فى واشنطون بأمريكا ٠

ومما يواجه المسئولين من الناحية الواقعية مشكلة القبول فى الكليات الثلاث ، وكم طالبا يمكن قبولهم ؟

وقد غدت الجامعات الحكومية مكتظة بطلابها مما دعا الى التفكير فى انشاء معهد مصرى عال لاعداد النخبة المختارة من صفوة الدارسين ٠ ومع تزايد عدد السكان فى مصر يتزايد عدد المتقدمين للالتحاق بالكليات ، ويطغى حينذاك الكم على الكيف ٠

ومن المعروف أنه كلما تزايد عدد الطلاب فى الفصول فقد الأستاذ الصلة بتلاميذه ولم يعد ثمة تاثير ثقافى أو أخلاقى للأساتذة على طلابهم ٠٠

ولنا أن نتساءل الى أى مدى يتسنى للأزهر أن يواجه تلك المشكلة فى المستقبل ؟

الاسلام والشبيبة الجديدة :

وثمة قضية على الأزهر أن يواجهها ، وان كانت قضية عامة لا يختص بها بلد واحد أو محيط اجتماعى معين ، وهى قدرة الاسلام على التوافق مع الجيل الناشىء فى عصر الذرة وقد غمت عليه تفسيرات ما يمور

به العالم من أحداث وكشوف علمية تفوق حد الخيال · وذلك منهج يصدق عليه ايمانه الدينى (١) ·

وفى زمننا هذا وما جد فيه من كشوف علمية ، فان علينا أن نذكر أن نبى الاسلام محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ درج على حث اتباعه على معرفة كل ما يجىء به العلم · فالمعرفة قوام الاسلام ـ كما يروى عنه (صلى الله عليه وسلم) ـ والعلم سياج الدين ، ومن الأحاديث النبوية التى تنطق بتقدير العلم والدعوة له : (أفضل العبادة طلب العلم ـ من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ·· طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) وهو ما جاء عليه ـ الدكتور توفيق الطويل ـ فى كتابه الأثير ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ·

ومما يؤسى ، أن ثقافة العصر لا تهتدى بالعقل فى كثير من اتجاهاتها · وغالبا ما تنأى عن الايمان بعد أن طغت المادية عليها وعصف الطمع التجارى **والمادية المغرقة بكل فضائلها** · وقد غرق العقل الاسلامى فى كثير من مناحيه فى الاتجاهات الأوربية · فحالت بينهم وبين ادراك حياة العصر وتفسيرها لأبنائهم فى صورة مرضية بناءة ·

وقد سلك الطلاب فى المدارس المصرية أخيرا منهجا يدنيهم من المنهج السليم ، وهو ما يعبر عنه طالب من طلاب الدراسات العليا ، بقوله :

« نحن وفى هذه السن على الأخص فى أشـد الحاجة الى التعليم الدينى ، فهناك الكثير مما يعجم علينا ادراكه ، ولا ندرى أيتفق هذا مع ديننا أو لا يتفق ؟ » ·

والأحوال الثقافية تعانى من الانفصام ، ولم يلق أحد بالا الى دور الأبوين ولا الى المعاناة الاقتصادية لترشيد التعليم ، هذا الى جانب التشوش الذى يعانى منه الطلاب فى نظرتهم الى القيم السائدة فضلا عن تباين مستوى الاستيعاب ، وما من أحد يلقى بالا الى التباين بين المراهقين فى نظرتهم الى القيم السائدة من حيث الولاء أو الايمان ·

ويشير سير هاملتون جب الى هذا الواقع البادى فى مصر ، فيقول :

---

(١) من دراستى للقرآن ، وما كان من كشوف علمية فى نصف القرن الأخير ، لم أجد ما ينفيه العلم الحديث ، بل ان فى آياته ما عجم تفسيره على الأولين ، حتى جاءت الكشوف العلمية الحديثة لتشرح ما غم على الأولين ادراكه ، وكان لعدد من المستشرقين الغربيين أمثال نيكلسون ، وول ديورانت ، وكارليل ، وويلز ، واخيرا بايارد دودج الفضل فى تصحيح ما كان من تفسيرات مبهمة أو خاطئة حتى فكرت فى دعوة العلماء لاعادة تفسير القرآن وبيان اعجازه من جديد ـ المترجم ·

(ان المصريين يواجهون خطر الانفصام عن ماضيهم ، باستسلامهم الى مساوىء الحضارة الغربية دون محاسنها التى أضفت على الأوربيين هذا التقدم الباهر) ٠

وقد جاء الاسلام ليحرر الناس من عبادة الأوثان ٠ أما اليوم فان ما يعتورهم أن يفقدوا الايمان بالله ٠

وقد جاء السيد محمد اقبال ليحرر الشبيبة من هذا التيه الذى يغرقهم بالشك وينأى بهم عن الايمان بالله ٠ وأخذ يرود بهم آفاق الفكر الأوربى فى مواجهته لعصر العقل ، الذى عاشه برجسون وهوايتهد وأينشتين ، بينما جاء الشيخ محمد عبده للانقاذ ٠ وقد أقبل الطلاب على دراسة باستير وداروين ٠

وقد شجع اقبال الطلاب على دراسة النظريات العلمية الحديثة ٠ ويقول لهم ان ما جاء به القرآن لا يعرض للأحداث التاريخية بقدر ما يفصح عن القدرة الالهية بتقريبها الى الأذهان قياسا على واقعهم ، هداية لهم وتقويما لأخلاقهم ، فان ما جاء به عن الطوفان لا يعرض لخلق الانسان ووجوده على الأرض ٠ وما يعنى غير انتقال الانسان من حالة الفطرة الى حالة الوعى والادراك والارادة الحرة ليدرك أو يشك أو يعصى أو يطيع ٠

ويرى بالتالى أن الجنة والنار لا تعنيان المكان كما هو على الأرض ، وأن ما جاء به القرآن من وصفهما لا يعنى غير التصوير الحسى للحقيقة وهو ما جاء به القرآن فى قول بين عن الأزل والأبد ، وليس هناك ما هو أبعد عما جاء به القرآن من القول السائد من أن الكون محدود بزمن منه بواقع مطلق لا يعلمه غير الله (١) ٠ وجل ما ينشده اقبال أن يعى الشباب أن يقترب بالدين الى عقول الشباب فى عصر العلم ٠

ويدعو اقبال الى فتح باب الاجتهاد لادراك المعنى المنشود فيما جاءت به الشريعة وتفسيره التفسير السليم ، ومما طالب به بعض العلماء المتميزين انشاء اكاديمية تجمع بين رجال العلم والدين فى العالم الاسلامى ، وان يكون لها الحق فى مراجعة أحكام الشريعة على وجهها الصحيح لتمضى مع روح العصر وتطوره العلمى ، وفى قوله تعالى : « **وما أوتيتم من العلم**

---

(١) وفى القرآن الكريم ما يؤيد ذلك ، ففى قوله تعالى :
« ويسالونك عن الساعة قل انما علمها عند ربى » الأعراف آية ١٨٧ ٠
وفى قوله تعالى : « ويسالونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا » الاسراء آية ٨٥ ٠
وقد تكرر هذا المعنى فى آيات كثيرة ، فما هو من علم الله لا يعلمه البشر – المترجم ٠

الا قليلا » ما يفسح الميـــدان لمعرفة هـذا الكون فى معجزة الخـالق الأعظـــم ٠

وقد أيقظ ما ينشده الاسلام من رخاء المجتمع والمساواة بين الناس فى الجزاء والعمل ، عقول الشباب على حقيقة ما ينشده الاسلام بعيدا عن التهويم والآراء الباطلة ، وهو ما كان تعاليم نبى الاسلام العظيم وما جاء عليه القرآن فى قوله تعالى :

(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبـــل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمســـاكين وابن السبيل وفى الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاه والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى الباساء والضراء وحين الباس أولئك الذين صـــدقوا وأولئك هم المتقون) البقرة الجزء الثـانى آية ١٧٧ ٠

ففى لبنان ــ مثلا ــ قامت جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية ــ باعانة خمسين مدرسة ابتدائية وكلية للشباب ، ومستشفى وملجأ لليتامى وغير ذلك من أعمال ، ومع ما كان من تقاعس طلبة الجامعة الأمريكية فى بيروت عن زيارة المساجد ، فانهم قد أسهموا بجهد بالغ فى دعم الجمعية ومشاركتها فيما تقوم به من منشآت خيرية فأقاموا مدرسة ليلية لتعليم المعوزين ، كما قاموا بتقديم العديد من الخدمات لرفع مستوى المعيشـــة والحياة الاجتماعية بين الفلاحين ٠

وكان الحذر من أن يتحول العمل الدينى الى وسيلة للمنفعة والكسب أو أداة للتعصب ، ولهذا قام علماء الأزهر برفض كتاب ادعى فيه مؤلفه أنه ينشد الاصلاح وشن الهجوم على رجال الدين بدعوى أنهم يؤيدون الظلم وينبذون العدالة فى الوقت الذى أخذ جانب الشيوعيين ومضى على غرارهم ٠ كما طالب بتحديد النسل ، وكانت المأساة حين مضى الشباب والفتيات منكرين للدين فأخذوا جانب الشيوعية ، وأخذوا يفسرونه بادعاء العدالة وتحقيق الرخاء وأن الايمان الدينى يجب أن يتجه الى الشفقة بالمجتمع بديلا للعبادة ٠

وحين نعرض لنزعة الشيوعية فان علينا أن نعرض لموقف الأزهر حيالها ٠ فهناك الكثيرون من أبناء افريقيا وآسيا يتساءلون :

ــ أحقيقة أن العالم يحكمه قوتان كبيرتان فى عصرنا هذا : الشيوعية والديمقراطية الأمريكية ؟

أما المسلم المؤمن الذى يوقر دينه فانه يجيب على السؤال بقوله : ان هناك قوة ثالثة هى — الاسلام ٠

والمسلم المؤمن لا يتقبل الشيوعية لأنها تنكر وجود الله والايمان به وتشكك فى القرآن ، وتحارب الملكية الخاصة ، وغير ذلك من مبادىء الاسلام الخالصة ، وفى نفس الوقت فان المسلم المنفتح لا يستطيع أن يغلق فكره عما يصدر عن الغرب من نظريات وآراء عن الحكومة والمسائل الاقتصادية والتعليم الغربى ، الى جانب ادراكه أن هذه النظريات والآراء هى التى دفنت وراء العدوان الامبريالى والاستغلال الغربى ، وكل ما ثار فى العالم من حروب مدمرة بدت فى عنفها وقسوتها فى الحربين الأخيرتين ، كما فشلت النظم الغربية فى حل الكثير من المساوىء الخاصة بالتفرقة العنصرية واللون والعمل والطلاق والخمور ، والرذيلة . والقضـاء على الخضرة وبوار الأرض واقتلاع الغابات ، واثبتت الأنظمة البرلمانية فشلها فى كثير من بلدان الغرب ، وأبى المسلمون أن يتخذوا من الغرب فى أوربا وأمريكا قدوة ومثالا ، ورأوا أن على المسيحيين فى أوربا وأمريكا أن يصلحوا أمرهم قبل أن يعرضوا للاســلام بنقد أو يفرضوا تعاليمهم الغربية على بلدان الشرق ٠

ويرى رجال الاصــلاح ودعاته من المسلمين مواجهة مشكلاتهم على ضوء ما كان من ادراكهم أو تفسيرهم للفكر الغربى على أساس من التصور الاسلامى فى محيطه ٠ فالى جانب الشيوعية فى روسيا والديمقراطية فى أوربا وأمريكا لابد وأن يكون الى جوارهما عالم ثالث هو عالم الاسلام ، وهذا هو واجب الأزهر عليه أن يضطلع به ٠ باعداد القيــادات الفكرية والروحية لهذا العالم الثالث فى عالم اليوم ٠

وقد أزف العيد الألفى لجامعة من أقدم الجامعات فى العالم بقيت أعلامها مرفوعة الذرى ، جامعة الأزهر حيث يقف اليوم على أعتاب مستقبل جديد وعالم لم تبد معالمه بعد ٠ وقد مضت به الأعوام عاما اثر عام طوال الف عام مثوى للعبادة وملاذا للاجئين ممن أضناهم الزمن ، ومنارة للعلم والتعليم ، فعندما تهاوت بغـداد فى الشرق وقرطبة فى الغرب ، حمل الأزهر الشعلة خفاقة بنور المعرفة ، وعندما واجه الاسلام غارة الصليبيين والمغول ، حفز الأزهر قلوب المؤمنين وغرس فى قلوبهم الشجاعة والقدرة على التحدى ٠

وبقى الأزهر حفيظا على القرآن وتعاليم الدين وأصول الثقافة فضلا عن الحفاظ على العربية لغة القرآن ٠

وحين عصفت المجاعات والزلازل والصراعات بين المماليك فيما يمكن أن يقال عنها — حروب أهلية — كان الأزهر ملاذ الخائفين والمذعورين ومن أصابهم الأذى ·

وحين عصف الجهل وزلزلت الكوارث عقول المصريين فأصـابتهم بالبوار العقلى ، ولفحت الأزهر حمى التصوف والاغراق فى التدين ·

وعندما اجتاح الاحتلال الأوربى مصر كان الأزهر ملاذ النداء الوطنى ونزعة المقاومة · ومع ما أصابه من آثار المقاومة والركود العقلى ، بقى تاريخه حافلا بالانجازات ·

وفى هذا العصر ، عصر الشك والريبة وقد غام الأفق بكل ما ينوء به الادراك واليقين ، ندعو الله أن يأخذ بيد الأزهر ليقود شباب الاسلام الى الايمان العميق بالله ، وان يهديهم سواء السبيل فى تلك المتاهة التى تعصف بروح العصر ·

شيوخ الأزهر

كان القائم على ادارة الأزهر فى البداية يحمل لقب (المشرف) ومن بعد ـ الناظر ـ وخلال القرن السابع عشر أنشىء منصب شيخ الأزهر .

وفيما يلى قائمة بأسمائهم ومذهبهم والمدة التى شغلوا خلالها المنصب :

الاسم	المذهب	تاريخ ومدة الشياخة
١ ـ محمد عبد الله القرشى	مالكى	؟ ـ ١٦٩٠
٢ ـ محمد النشرتى	»	١٦٩٠ ـ ١٧٠٨
٣ ـ عبد الباقى القلينى	»	١٧٠٨ ؟
٤ ـ محمد شنن	»	؟ ١٧٢١
٥ ـ ابراهيم بن موسى الفيومى	»	١٧٢١ ـ ١٧٢٥
٦ ـ عبد الله الشبراوى	شافعى	١٧٢٥ ـ ١٧٥٨
٧ ـ محمد بن سالم الحفناوى أو الحفنى	»	١٧٥٨ ـ ١٧٦٧
٨ ـ عبد الرؤوف بن محمد السجينى	»	١٧٦٧ ـ ١٧٦٨
٩ ـ أحمد بن عبد المنعم الدمنهورى	»	١٧٦٨ ـ ١٧٧٨
١٠ ـ أحمد بن موسى العروسى	»	١٧٧٨ ـ ١٧٩٣
١١ ـ عبد الله الشرقاوى	»	١٧٩٣ ـ ١٨١٢
١٢ ـ محمد الشنوانى	»	١٨١٢ ـ ١٨١٨
١٣ ـ محمد بن محمد العروسى	»	١٨١٨ ـ ١٨٢٩
١٤ ـ أحمد بن على الدمهوجى	»	١٨٢٩ ـ ١٨٣٠
١٥ ـ حسن بن محمد العطار	»	١٨٣٠ ـ ١٨٣٤

١٦ ـ حســـن القيســـونى	«	١٨٣٤ ـ ١٨٣٨
١٧ ـ أحمد الصايم الصفتى	«	١٨٣٨ ـ ١٨٤٧
١٨ ـ ابراهيم الباجـورى	«	١٨٤٧ ـ ١٨٦٠
١٩ ـ مجلس حل محل المشيخة		١٨٦٠ ـ ١٨٦٤
٢٠ ـ مصطفى العروسى	شافعى	١٨٦٤ ـ ١٨٧٠
٢١ ـ محمد العباسى المصرى	حنفى	١٨٧٠ ـ ١٨٨٦
٢٢ ـ شمس الدين محمد الامبابى	شافعى	١٨٨٦ ـ ١٨٩٥
وقد تولى المشيخة أيضا خلال سنة ١٨٨٢		
٢٣ ـ حسونة النواوى	حنفى	١٨٩٥ ـ ١٨٩٩
٢٤ ـ عبد الرحمن القطب النواوى	«	١٨٩٩
٢٥ ـ سليم البشرى	مالكى	١٨٩٩ ـ ١٩٠٢
٢٦ ـ على محمد الببلاوى	«	١٩٠٢ ـ ١٩٠٥
٢٧ ـ عبد الرحمن الشربينى	شافعى	١٩٠٥ ـ ١٩٠٦
٢٨ ـ حسونة النواوى ـ مرة ثانيه ـ	حنفى	١٩٠٦ ـ ١٩٠٩
٢٩ ـ سليم البشرى ـ مرة ثانية ـ	«	١٩٠٩ ـ ١٩١٧
٣٠ ـ محمد أبو الفضل الجيزاوى	مالكى	١٩١٧ ـ ١٩٢٧
٣١ ـ محمد مصطفى المراغى	حنفى	١٩٢٧ ـ ١٩٢٩
٣٢ ـ محمد الأحمدى الظواهرى	شافعى	١٩٢٩ ـ ١٩٣٥
٣٣ ـ محمد مصطفى المراغى ـ مرة ثانية ـ		١٩٣٥ ـ ١٩٤٥
٣٤ ـ مصطفى عبد الرازق	حنفى	١٩٤٥ ـ ١٩٤٧
٣٥ ـ محمد مأمون الشناوى	«	١٩٤٨ ـ ١٩٥٠
٣٦ ـ عبد المجيد سليم	«	١٩٥٠ ـ ١٩٥١
٣٧ ـ ابراهيم حمروش	«	١٩٥١ ـ ١٩٥٢
٣٨ ـ عبد المجيد سليم ـ مرة ثانية ـ	«	١٩٥٢
٣٩ ـ محمد الخضر حسين	مالكى	١٩٥٢ ـ ١٩٥٤
٤٠ ـ عبد الرحمن تاج	حنفى	١٩٥٤ ـ ١٩٥٨
٤١ ـ محمد شلتوت	«	١٩٥٨ ـ ١٩٦٤

وكان الشيخ محمود شلتوت آخر من عاصرهم في مصر من شيوخ الأزهر ، وحين اختير الشيخ حسن مصطفى مأمون شيخا للأزهر سنة ١٩٦٤ ، كان قد غادر مصر بعد أربع سنوات - ١٩٥٦ - ١٩٥٩ - من الأعوام الدراسية ، قام في نهايتها - على الاحتفال بالعيد الألفي للأزهر في عامها الدراسي - ١٩٥٨ - ١٩٥٩ ، وأشركه معه الحفل شيخ الأزهر - الشيخ شلتوت - وعمداء الكليات الأزهرية ، ويتوج هذا الحفل بكتابه هذا عن الأزهر - دراسة - كما يقول لأقدم جامعة في العالم . ليعرف الغرب الأوربي والأمريكي ، فضله على العالم - أو على حد قوله : « أن يقدم للقارىء غير العربي ، والذى لا يعرف اللغة العربية . ولا يعلم شيئا عن أشهر معهد في العالم الاسلامي ، وأعظم محفل للثقافة الاسلامية أضاء العالم الاسلامي بنور المعرفة ، بينما كانت ثقافة أوربا اللاتينية في مرحلة المخاض ، شرحا للثقافة الاسلامية وأثر الأزهر فيها » .

ويختتم تقديمه بهذه العبارة الرقيقة :

(لشد ما أخذت خلال تلك السنوات التى عشتها في القاهرة بمحافلها العلمية . وحيويتها العارمة ، كما أخذت بالود الذى غمرنى به أولئك الأساتذة الاجلاء من أبنائها لرجل ينشد منهم العون والمساعدة) .

وقد صدر الكتاب قبل انشاء الجامعة الأزهرية ، ولا يفوته أن يشير الى ذلك في غلاف الكتاب ، فيقول :

(في ١٨ يوليو ١٩٦١ ، بعد أن قدمت الكتاب الى المطبعة ، بدأ تنظيم جديد للأزهر) .

وهذا التنظيم الجديد الذى يشير اليه المؤلف في غلاف كتابه هو تحول الجامعة الأزهرية الى جامعة أزهرية كبرى تضم كليات علمية الى جانب الكليات الدينية .

ولا يفوتنا أن نأتى على الحفل الأخير ، وهو الحفل السنوى السابع والثلاثين لتوزيع الاجازات العلمية على الطلبة المنتهين ، ودعى اليه شيخ الأزهر - الشيخ شلتوت - وعمداء الكليات الأزهرية يوم الخميس ١١ يونية سنة ١٩٥٩ - وفيه ألقى خطابه الرائع عن (العلم والعمل) فيبدأ بكلمات (لأبى حامد الغزالى) :

سيداتى ، سادتى

من أقوال أبى حامد الغزالى هذه العبارة المأثورة :

- أيها الولد ، العلم بلا عمل جنون ، والعمل بلا علم لا يكون - العلم شجرة والعمل ثمرتها .

وبمناسبة فوزكم بالدرجات العلمية ، يهمنى كثيرا ، أيها الطلبة فتيانا وفتيات ، أن أذكركم بهذه الكلمات التى جاءت على لسان رجل من أحكم الحكماء الذين عاشوا على ارضنا هذه) ٠

وأذكر من ذلك ، وقد دعيت الى الحفل ، ونوه فيه بانتاجى العلمى ٠ وكتاباتى عن الشرق الأوسط ، والسياسة فى الاسلام ، وأذكر بالتالى أنه حين ذكر أبا حامد الغزالى كان صوته أشبه بقيثارة تعزف بالجوى والحنين ، ويستشهد بالحض على العـــلم بالآية القرآنية : « **وان ليس للانســـان الا ما سعى** » (سورة النجم آية ٣٨) ٠

ويمضى فى قوله : ــ ويجدر بنا أن نتزيد على ما قاله الغزالى مثلا مأثورا من أمثال كونفشيوس ، ألا وهو ــ العمل بلا علم باطل ــ ويعود فى ختام خطابه الى التذكرة بعبارة أبى حامد الغزالى :

ــ العلم شجرة والعمل ثمرتها ــ فيقول :

(والآن وانتم تواجهون معركة الحياة لابد لكم من الخبرة العملية وزيادة المعرفة ــ العلم بلا عمل جنون ، والعمل بلا علم لا يكون ــ على أن هناك مطلبا يتضاءل أمامه كل مطلب فى الحياة ، ذلك هو العمل الذى يجمع بين التضحية الذاتية والخدمة الوطنية ــ لأن العلم شجرة والعمل ثمرتها ــ وانى لأدعو لكم بالمزيد من المعرفة المزدهرة بأطيب الثمار ، طوال سنى حياتكم فى أداء واجبكم نحو الله والناس) ٠

ويذكر الدكتور بايارد دودج ــ أنه حين دعى الى هذا الحفل ، وكان ختاما لحياته الفكرية فى مصر والشرق العربى ، قد أدرك أن الأزهر يوشك أن يتم ألف عام على انشائه جريا على التقويم القمرى ، وكان قد آب الى بلده برنستون ، عاكفا على دراساته ، وكان أولاها بالدراسة كتابه هذا عن الأزهر فى عيده الألفى ٠ وان لم تنقطع زياراته لمصر خلال تلك الفترة حتى سنة ١٩٦٧ ، ولم ينقطع عن زيارتى كلما جاء الى مصر ، وبقيت المراسلات بيننا حتى وفاته سنة ١٩٧٢ ٠

وقد اهدانى كتابه هذا عن الأزهر حين صدوره فى أمريكا ، وأرفقه بكلمة رقيقة بقيت موضع اعزازى وفخرى ، ولعلها مما حملنى على ترجمة كتابه الأثير هذا الى اللغة العربية ٠ وان كان قد كتب أصلا ــ كما سبق القول ــ لتعريف العالم الغربى الأمريكى والأوربى ، ويقدمه بأن الغاية

منه ، أن يقدم للقارىء غير العربى ، والذى لا يعرف اللغة العربية ، ولا يعلم شيئا عن أشهر معهد فى العالم الاسلامى وأعظم محفل للثقافة الاسلامية أضاء العالم الاسلامى بنور المعرفة · بينما كانت ثقافة أوربا اللاتينية فى مرحلة المخاض ، شرحا للثقافة الاسلامية وأثر الأزهر فيها ، ويختم تقديمه بهذه العبارة الرقيقة :

« لشد ما أخذت خلال تلك السنوات التى عشتها فى القاهرة بمحافلها العلمية ، وحيويتها العارمة . كما أخذت بالود الذى غمرنى به أولئك الأساتذة الاجلاء من أبنائها لرجل ينشد منهم العون والمساعدة » ·

واذا كان فى هذه الكلمة الأخيرة تكرار ، فان وفائى للرجل الذى أحب بلدى وأحب أزهرها العظيم ، لا يحول بينى وبين التكرار ·

ويسعدنى أن أهدى الى روحه هذه الترجمة ، كما يسعدنى أن أجمل ما كان من بعد من تاريخه الحافل ، على القمة منه شيخان أحمل لهما كل الود والتقدير والاكبار :

فضيلة الامام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق · وشيخ الافتاء الكبير ، وأرى فيه خليفة للامام الأكبر الشيخ محمد عبده : الدكتور محمد سيد طنطاوى ··



الفهـــــرس

الموضـــوع — الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٧٥٠٩ / ١٩٩٧

I.S.B.N 977 - 01 - 5235 - 8

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى جنيه وربع
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٧

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

■ د. حسين فوزى النجار

الأزهر الشريف.. المنارة الإسلامية التى تعمر بها أرض الكنانة، فاستقطب اهتمام الجميع، بما فيهم الأجانب، فهو الأبعد أثرًا دينًاوثقافة بدرجة كبرى؛ استحقت ذلك الاهتمام، ومن هؤلاء الذين عكفوا على دراسة تاريخه «بيارد دودج» والذى عمل بالجامعة الأمريكية، وأخذ دراسته بكل جدية، سواء من الوثائق أو المكتبات، واستفاد من عشرات البحوث والدراسات.

وهذا العمل الذى قام بترجمته الدكتور حسين فوزى النجار، يؤكد أهمية التواصل بين الثقافات وضرورة الاطلاع على نظرة الآخرين، خاصة إذا كان ذلك متصلا بالأزهر الشريف، ومن ثم فهى ترجمة بليغة لمؤلف مفيد، يحوى بين دفتيه تقديما وثمانية فصول، تناولت الأزهر فى مختلف العصور وجهوده التى كانت ومازالت ثرية فى الإسلام، وحسبما أشار المؤلف فإن من هذا الكتاب هى تزويد القارئ بما لا عن أعظم الجامعات الإسلامية شهرة.